

التفسير الوسيط للمقرآن الكريم

تفسير سورة يس

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر

(الجزء الثاني والثالث العشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
، صدق الله العظيم ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة ديس ، من السور التي يحفظها كثير من الناس ، لاشتهارها فيما بينهم ، وهى السورة السادسة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الجن . .

قال القرطبى : وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية . إلا أن فرقة قالت : إن قوله - تعالى - : « ونكتب ما قدموا وآثارهم .. » نزلت فى بنى سلة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - (١)

٢ - وقد ذكروا فى فضلها كثيرا من الآثار ، إلا أن معظم هذه الآثار ، ضعفها المحققون من العلماء ، لذا نكتفى بذكر ما هو مقبول منها .

قال ابن كثير مامليخصه : أخرج الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من قرأ ديس ، فى ليلة أصبح مغفورا له

وأخرج ابن حبان فى صحيحه ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من قرأ سورة ديس ، فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له . .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ، عن معقل بن يسار ، أن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - قال : البقرة سنام القرآن ويس قلب القرآن .
لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، وأقرءوها على موتاكم ،
- أى : فى ساعات الاحتضار وعند خروج الروح - .

ثم قال ابن كثير : ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة ،
أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يصره الله . وكان قراءتها عند الميت لتنزل
الرحمة والبركة ، ويسهل عليه خروج الروح .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، قال : كان المشيخة
يقولون : إذا قرئت - يعنى يس - عند الميت ، خفف عنه بها (١) .

وقال الألوسى ماملخصه : صح من حديث الإمام أحمد ، وأبى داود ،
وابن ماجه ، والطبرانى ، وغيرهم عن معقل بن يسار ، أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : يس قلب القرآن

وذكر أنها تسمى المعمة ، والمدافعة ، والقاضية ، ومعنى المعمة : التى تعم
صاحبها بخير الدنيا والآخرة . ومعنى المدافعة التى تدفع عن صاحبها كل
سوء . ومعنى القاضية : التى تقضى له كل حاجة - بإذن الله وفضله ، (٢) .

٣ - وقد افتتحت سورة يس ، بتأكيد صدق الرسول - صلى الله عليه
وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وبتركيب أعدائه الذين أعرضوا عن دعوته ،
وبتسليته عما أصابه منهم من أذى .

قال - تعالى - : يس ، والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين : على صراط
مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد
حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٨

(٢) راجع تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ٢٠٩

٤ - ثم ساقّت السورة الكريمة بعد ذلك قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاؤوا إليهم لهدايتهم ، وكيف أهلك الله - تعالى - المكذابين أرسله . . .

قال - سبحانه - : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلهنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين »

٥ - ثم نسوق السورة الكريمة بعد ذلك ، ألواناً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن نعمه على عباده ، تلك النعم التي نراها في الأرض التي يعيشون عليها ، وفي الخيرات التي تخرج منها ، كما نراها في الليل والنهار . وفي الشمس وفي القمر . . . وفي غير ذلك من مظاهر نعمه التي لا تحصى :

قال - تعالى - : « وآية لهم الأرض الميتة - أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وجفرا فيها من العيون . لياكلوا من ثمره ، وما علمته أيديهم أفلا يشكرون . سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم وما لا يعلمون . . . »

٦ - وبعد هذا البيان الحكيم لمظاهر قدرة الله - تعالى - ، وفضله على عباده ، حكمت السورة الكريمة جانباً من دهاوى المشركين الباطلة ، وردت عليهم بما يخفرون أنفسهم ، وصورت أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم مسرعين ، ليقفوا بين يدي الله - تعالى - للحساب والجزاء . . .

قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . قال يوم لا تقلم نفس شيئاً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون . . . »

٧ - وبعد أن تحكى السورة الكريمة ما أعد الله تعالى بفضله وكرمه لعباده المؤمنين ، من جنات النعيم ، ومن خير غيم ... تعود فتحكى ما سيكون عليه الكافرون من هم وغم ، وكرب وبلاء ، بسبب كفرهم ، وتسكينهم للحق الذى جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

قال - تعالى - : ألم أعهد لإيكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون . أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون

٨ - ثم تنزه السورة الكريمة النبى - صلى الله عليه وسلم - عما اتهمه به أعداؤه ، من أنه شاعر ، وتسايه عما أصابه منهم ، وتبين للناس أن وظيفته - صلى الله عليه وسلم - إنما هى الإنذار والبلاغ .

قال - تعالى - : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ...

إلى أن يقول - سبحانه - : فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون .

٩ - ثم تختتم السورة الكريمة بحكاية ما قاله أحد الأشقياء منكرا للبعث والحساب ، وردت عليه وعلى أمثاله برد جامع حكيم ، يرشد كل عاقل إلى إمكانية البعث ، وأنه حق لا شك فيه .

قال - تعالى - : ألم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد

شيئا أن يقول له كن فيكون : فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء .
والله ترجمون . .

١٠ - وبعد فهذا عرض بمجل لسورة يس ، ومنه نرى ، أن هذه السورة
الكريمة ، قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته
كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق ، وعلى أن الرسول
- صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه . . .

كما اهتمت بضرب الأمثال لبیان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء
عاقبة الأشرار .

كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، يغلب عليه قهر الآيات ، وإيراد الشواهد
المتنوعة على قدرة الله - تعالى - ، عن طريق مخلوقاته المبثوثة في هذا
الكون ، والتي من شأن المتأمل فيها بعقل سليم ، أن يهتدى إلى الحق ، وإلى
الضراط المستقيم .

وصدق الله - تعالى - في قوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما
تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

الأستاذ بجامعة الأزهر

صباح الخميس ٢٣ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥ / ٧ / ١١

التفسير

قال الله - تعالى - :

« يَس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) . »

قوله - تعالى - : يس ، من الألفاظ التي اختلف المفسرون في معناها ، ففهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومنه من يرى أن معناها : يا رجل ، أو يا إنسان .

ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبية إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التي ينطقون بها ، هو من عند الله - تعالى - ، وأنهم ليس في إمكانهم أو إمكان غيرهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ...

قال الألوسي : قوله - تعالى - : يس ، : الكلام فيه كالشك في دالم ، ونحوه من الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، إعراباً ومعنى عند الكثيرين . وظاهر كلام بعضهم أن : يس ، بمجموعة ، اسم من أسمائه صلى الله عليه وسلم .

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة في الواو . وقرأ آخرون بسكونها مظهرة والقراءتان سبعيتان ، ، ، ، ، (١) .

وقوله - تعالى - : وقرآن الحكيم ، قسم منه - تعالى - بكتابه ذي الحكمة العالية . والهدايات السامية والتوجيهات السديدة ، والنشريات القوية ، والآداب الحميدة ...

وقوله - سبحانه - : : إنك لمن المرسلين ، جواب لهذا القسم .

أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك - أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لخل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لمكى بخاصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا في ذلك غيرنا .

وجاء هذا الجواب شتملاً على أكثر من مؤكد ، الرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وقالوا في شأنه : د لست مرسلًا .

قال بعض العلماء : واعلم أن الأقسام الواقعة في القرآن ، وإن وردت في صورة تأكيد المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الاصلى بها تعظيم المقسم به . لما فيه من الدلالة على اتصافه - تعالى - بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف ، الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة . كأنه قال : إن من أنزل القرآن

- وهو ماهو في عظم شأنه - هو الذي أرسل رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم -
ومثل ذلك يقال في الأقسام التي في السور الآتية ... (١) .

وقوله - تعالى - : « على صراط مستقيم » خبر ثان لحرف « إن » ، في قوله
- تعالى - قبل ذلك : « إنك لمن المرسلين » .

أى : إنك - يا محمد - لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ،
لا أوجاج فيه ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو في
نهاية الاعتدال والاستقامة .

قال صاحب الكشف : قوله : « على صراط مستقيم » خبر بعد خبر ،
أو صلة للمرسلين .

فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين
لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟

قلت : ليس الغرض بذكره ما ذهب إليه من تمييز من أرسل على صراط
مستقيم عن غيره من ليس على صفته ، وإنما الغرض وصفه ، ووصف ما جاء
به من الشريعة ، لجمع بين الوصفين في نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن
المرسلين الثابتين على طريق ثابت . وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل
من بين الصراط المستقيمة ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه - أى : فى
التفخيم والتعظيم - ، (٢) .

ثم مدح - سبحانه - كتابه بمدائح أخرى فقال : « تنزيل العزيز الرحيم »
وقد قرأ بعض القراء السبعة : « تنزيل » بالنصب على المدح ، أو على المصدرية
لفعل محذوف . أى : نزل الله - تعالى - القرآن تنزيل العزيز الرحيم .

(١) تفسير « صفوان للبيان » ج ٢ ص ٢١ لفضيلة الاستاذ الشيخ حسين

محمد عثوف :

(٢) تفسير للكشاف ج ٤ ص ٤

وقرأ البعض الآخر : « تنزيل » ، بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .
 أى : هذا القرآن هو تنزيل العزيز - الذى لا يغلبه غالب - ، الرحيم أى
 الواسع الرحمة بعباده .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال :
 « لتتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » .

واللام فى قوله : « لتتذر » متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : « إنك
 لمن المرسلين » .

والإنذار : إخبارهم معه تخويف فى مدة تقسع لتتخلف من الخوف . فإن
 لم تقسع له فهو لإعلام وإشعار لا إنذار . وأكثر ما يستعمل فى القرآن
 فى التخويف من عذاب الله - تعالى - .

والمراد بالقوم : كفار مكة الذين بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - لإنذارهم ،
 وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال - تعالى - : « قل يا أيها الناس
 إني رسول الله إليكم جميعا ... » ، وما ، نافية . والمراد بآبائهم : آباؤهم
 الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله - تعالى - إليهم إسماعيل
 - عليه السلام - .

أى : أرسلناك - يا محمد - بهذه الرسالة من لدنا ، لتتذر قوما ، وهم قريش
 المعاصرون لك ، لم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير . ما يحذرهم من سوء
 عاقبة الإشراف بالله - تعالى - ، فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم
 من إخلاص العبادة له ، وطاعته فى السر والعلن .

قال ابن كثير : قوله « لتتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » ، يعنى بهم
 العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفي من عدم ،
 كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم ، الذى وردت به الآيات ،
 والأحاديث المتواترة ... ، (١) .

وقال الجمل ما ملخصه : قوله : لتنذر قوما . . ، أى العرب وغيرهم . وقوله : ما أنذر آباؤهم ، أى الأقربون ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا فآباء العرب الأقدمون - أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى . . . ودماء نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا - صلى الله عليه وسلم - فالجمله صفة لقوله وقوما ، أى : قوما لم ينذروا . وقوله : فهم غافلون ، مرتب على الإنذار . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا في غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : لقد حق القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون .

والجمله جواب لقسم محذوف . ومعنى : حق ، ثبت ووجب .

والمراد بالقول : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب لإصرارهم على كفرهم .

أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أزلا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، ووجودهم للحق الذى جنتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الفى على الرشد ، والضلال على الهدى . .

وقال - سبحانه - على أكثرهم ، لأن قلة منهم أتبعته الحق ، وآمنت به وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : : إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم .

ثم صور - سبحانه - انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : : إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم إلى الاذقان فهم مقمحون . . .

والأغلال : جمع غل - بضم العين - وهو القيد الذي تشد به اليد إلى العنق بقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن - بفتح الدال - وهو أسفل الفم .
ومقحمجون : من الإقحاح ، وهو رفع الرأس من غض البصر . يقال : قح البعير قوحاً إذا رفع رأسه عن الخوض ولم يشرب . والقاء في قوله « ففى » وفي قوله « فهم » : للتفريع .

أى : إنا جعلنا فى أعناق هؤلاء الجاحدين قيوداً عظيمة ، ففى - أى هذه القيود - واصله إلى أذقانهم ، فهم يسبب ذلك مرفوعة رؤوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لا يستطيعون أن يخفضوها ، لأن القيود التى وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رؤوسهم .

فقد شبه - سبحانه - فى هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم ، بحال من وضعت الأغلال فى عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .
أى : أننا لم نكتف بجعل الأغلال فى أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزاً عظيماً ، ومن خلفهم كذلك حاجزاً عظيماً . فأغشيناهم ، أى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وأغطية تمنعهم من الرؤية ، فهم لا يبصرون ، شيئاً بسبب احتجاب الرؤية عنهم .

فآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فزنتهم من الرؤية والإبصار .

ولذا قال صاحب الكشف عند تفسيره هاتين الآيتين : ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى إزعاجهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين :

في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يباطئون
 رؤسهم له ، وكالحاصلين بين سدين ، لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم :
 في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله ،^(١) .

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن
 جرير عن عكرمة ، أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولا فعلن ،
 فأنزل الله - تعالى - قوله : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً . . . » فكانوا
 يقولون لأبي جهل : هذا محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول : أين هو ؟
 ولا يبصر ،^(٢) .

وقوله - تعالى - : وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ،
 بيان لما وصل إليه هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق .

وقوله « سواء » اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل .
 أى : مستو أى : أن هؤلاء الذين جعلنا في أعناقهم أغلالاً . . . وجعلنا من بين
 أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ، مستوعنهم لإنذارك إياهم وعدمه ، فهم - لسوء
 استعدادهم وفساد فطرتهم - لا يؤمنون بالحق الذي جنتهم به سواء دعوتهم
 إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت
 قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بشيء مما تدعوهم إليه .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للتذكير فقال : « إنما تنذر من
 اتبع الذكر » .

أى : إنما تنذر - أيها الرسول الكريم - إنذاراً نافعاً ، أولئك الذين اتبعوا
 إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه . . .

وينفع إنذارك - أيضاً - مع من « خشى الرحمن بالغيب » ، أى : مع من

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٠ .

(٢) لباب القول في أسباب النزول ج ١٨٧ للسيوطي .

خاف عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب ، ودون أن يرى الله - تعالى -
الذى له الخلق والأمر .

هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والذكير والإرشاد ، لأنهم فتحوا
قلوبهم للحق ، واستجابوا له .

والغناء في قوله : فبشره بمغفرة وأجر كريم ، لترتيب الإشارة أو الأمر
بها ، على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية .

أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هذا النوع من الناس ، بمغفرة عظيمة
منا لذنوبهم ، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد سوانا .

ثم أكد - سبحانه - أن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، لكي لا يغفل
عنهما الناس ، ولكي يستعدوا لهما بالإيمان والعمل الصالح فقال : ولما نحن
نحيي الموتى

أى : ولما نحن بقدرتنا وحدهما نحيي الموتى بعد موتهم ، ونعيدهم إلى الحياة
مرة أخرى لكي نحاسبهم على أعمالهم .

ونكتب ما قدموا وآثارهم ، أى : ولما نحن الذين نسجل عليهم أعمالهم
التي عملوها في الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم غير صالحة .

ونسجل لهم - أيضاً - آثارهم التي تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة
كعلم نافع ، أو صدقة جارية . . . أم غير صالحة كدار للهو واللعب ، وكرأى
من الآراء الباطلة التي اتبعها من جاء بعدهم ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون
من ثواب أو عقاب ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ، أى : وكل شيء أثبتناه
وبيناه في أصل عظيم ، وفي كتاب واضح عندنا ، ألا وهو اللوح المحفوظ ،
أو علمنا الذى لا يعزب عنه شيء .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وفي قوله : وآثارهم ، قولان :

أحدهما : أى : ونكتب أعمالهم التي باثروها بأنفسهم ، وآثارهم التي
أثروها - أي تركوها - من بعدهم ، فنجزهم على ذلك - أيضاً - ، إن خيراً

غير ، وإن شرافته . كقوله - صلى الله عليه وسلم - من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . . .

والثاني : أن المراد بقوله « وآثارهم » أى : آثار خطائم إلى الطاعة أو المامنية . . فقد روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : دخلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن يذتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تذتقلوا إلى المسجد ؟ قالوا : نعم ، يا رسول الله !

قد أردنا ذلك . فقال : يا بنى سلمة ، دياركم تكتتب آثاركم دياركم تكتتب آثاركم . .

ثم قال ابن كثير : ولا تنافى بين هذا القول والذي قبله ، بل فى القول الثانى تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتتب ، فلأن تكتتب التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى (١) .

هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية - كما قيل - ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قال لبنى سلمة ، « دياركم تكتتب آثاركم » أى : الزموا دياركم تكتتب آثاركم ، دون إشارة إلى سبب النزول .

قال الألوسى ما ملخصه ، والأحاديث التى فيها أن الله - تعالى - أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن يفتقلوا من ديارهم . معارضة بما فى الصحيحين

من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته - صلى الله عليه وسلم - لا تنافي تقدم النزول . أي : أن الآية مكية كبقية السورة (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقرأ على الناس - ليحذروا ويتعظوا - قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذي جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - :

« واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧) قالوا إنا نطيرنا بكم ، إن لم تنتهوا لنرجنكم ولیمسنكم منّا عذابٌ أليم (١٨) قالوا طائركم معكم أين ذكركم بل أنتم قومٌ مُسرِفون (١٩) » .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : . . واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ، وهذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين . . . والمرسلون :

قيل : هم رسل من الله على الابتداء . وقبل إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاة إلى الله - تعالى - ... (١).

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبي والمفسرون من أن المراد بالقرية أنطاكية ، كما أنه لم يرتض الرأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من هند عيسى - عليه السلام - ...

فقد قال - رحمه الله - ماملاخصه : وقد تقدم عن كثير من الساف ، أن هذه القرية هي أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلان عيسى - عليه السلام - . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث ...

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التى فيها بتاركة - أى ، علماء بالدين المسيحى ،

الثالث : أن قصه أنطاكية مع الخواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ...

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة ، قرية أخرى غير أنطاكية . فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لافى الملة النصرانية ولا قبل ذلك (٢).

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٩ .

والذي يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه في هذه القصة وأمثالها ، بالمعبر والعظات التي تؤخذ منها .

وضرب المثل في القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل في تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما في قوله - تعالى - : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة فرج وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركي مكة في الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .

وقوله له - سبحانه - : « إذ جاءها المرسلون » بدل اشتغال من أصحاب القرية .

والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق .

وقوله : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما .. » بيان لسكينة الإرسال ، ولموقف أهل القرية من جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

أي : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما .

والغناء في قوله « فكذبوهما » الإفصاح ، أي : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخراجهم من عبادة الأصنام فذهبوا إليهم ، فكذبوهما .

وقوله : « فعززنا بثالث » أي : فقويت الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية . ومنه قولهم : تعزيز اللحم الناقة ، إذا اشتد وقوى . وهزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها . وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول «فعرزنا» محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعرزناهما برسول ثالث
«فقالوا» أى الرسل الثلاثة لأصحاب القرية .

«إنا إليكم مرسلون» لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص
العبادة لله - تعالى - ، ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات
فقال : «قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء» ، إن أنتم
إلا تكذبون .

أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم
لستم إلا بشر مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكان البشرية فى زعمهم
تتناهى مع الرسالة ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء . «ما
ندعونا إليه» .

ثم وصفهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من
أنكم رسل إلينا .

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول
عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، ووصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالآناة والصبر ، شأن الوائى من صدقه ،
فقالوا لأهل القرية : «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين» .

أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى
بعلينا علما ، وبحكمه ، حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبليكم
ما كلنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا
تكذيبهم لهم ، بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وإنهم صادقون
فى رسالتهم ، لأن قولهم «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» ، جار مجرى القسم
فى التوكيد .

وقولهم : « وما علينا إلا البلاغ المبين » ، تهديد للوخطبة التي أرسلهم الله - تعالى - من أجلها .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل رداً قبيحاً ، فقالوا لهم : « إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تقتلوا لئرجمنكم ، ولئمسكنكم منا عذاب اليم ، والتطير : التشاؤم . أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاء منا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى ما لا تريد ، لئرجمنكم بالحجارة ، ولئمسكنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم .

قال صاحب الكشف : قوله « تطيرنا بكم » ، أى : تشاء منا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، وفقرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أنهم يقيمون بكل شئ . مالوا إليه ، واشتهروه وآثروه وقبلته طابعهم ، ويقشاهموا بها نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : بركة هذا وبشؤم هذا ... (١) .

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضاً - بالثبات ، وبالمنطق الحكيم فقالوا لهم : « طائرتم معكم ، أن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » .
أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم .

وجواب الشرط لقوله : « أن ذكرتم » ، محذوف ، والتقدير : أنز وعظمت وذكركم بالحق ، وخوفتم من عقاب الله ... تطيرتم وتشاءتم .

وقوله : « بل أنتم قوم مسرفون » ، لإضراب عما يقتضيه الإستفهام والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم .

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل

الحق أنكم قوم عادتمكم الإسراف في المعاصي ، وفي إيثار الباطل على الحق ،
والغنى على الرشد ، والنشأتم على التيمان .

ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاوراة التي دارت بين أهل القرية وبين
الرسول والتي تدل على أن أهل القرية كانوا مشغلا في السفاهة والسكرانة
للخير والحق .

بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم
صاه أن يرى من قومه تنكروا لرسول الله - تعالى - ، ونطاولهم عليهم ،
وتهديدهم لهم بالرجم ، فقال - تعالى - :

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا
المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٢١) ومالي
لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أأنتخذ من دونه آلهة إن
يردني الرحمن بضراً لا تمنعني شفاعتهم شيئا ولا ينفذون (٢٣) إني
إذ أنقذ ضلال مبين (٢٤) إني آمنت برَبِّكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل
الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لي ربِّي وجعلني من
المكرمين (٢٧) وما^(١) أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء
وما كنّا منزلين (٢٨) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩)
يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٣٠)
ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١)
وإن كل لما جميع لدينا محضرون (٣٢) » .

وقوله - سبحانه - : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى
معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة ، والتقدير :

وانتشر خبر الرجل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بنهيد بعضهم لهم
وجاء من أقصى المدينة ، أى من أبعد مواضعها ، رجل يسعى ، أى : رجل
ذو فطرة سليمة ، يسرع الخطأ لينصح قومه ، وينهاهم عن إبداء الرسل
ويأمرهم بإتباعهم .

قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل
بالنجارة .

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن
نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما
ذكره عنه .

ويكفيه نقرأ هذا الثناء من الله - تعالى - عليه بصرف النظر عن اسمه أو
صنعتة أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها في القرآن الكريم ،
هو الاعتبار والافتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها في أول القصة بالقرية ، الإشارة إلى
سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والتعبير بقوله . : يسعى ، : يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو
هيمته ، ومضاء عزمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعان
أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يراض أن يقبع في بيته - كما يفعل الكثيرون -
بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقوله - تعالى - : قال يا قوم اتبعوا المرسلين ، بيان لما بدأ ينصح قومه
به بعد وصوله إليهم .

أى : د قال ، لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ، يا قوم اتبعوا المرسلين ، الذين جاؤا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذى أنغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : : اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ، اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى طريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك فى حضى قومه على إتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : : ومالى لا أعبد الذى قطرنى وإليه ترجعون . أأنخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إني إذا لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فاسمعون ، .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعني من أن أهبط الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقني ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما استحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام فى قوله : : أأنخذ من دونه آلهة ... ، اللانكار والنفي .

أى : لا يصح ولا يجوز أن اتخذ معه فى العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ، إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ، من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .

ولا ينقذون ، أى : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى عما يصيبني من ضر أراد الرحمن أن ينزله بي .

« إنى إذا ، لو اتخذت هذه الآلهة شريكاً مع الله فى العبادة ، انى ضلال مبين ، أى : لا كوفى فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء ،

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : « إنى آمنت بربكم ، الذى خلقكم ورزقكم ، فاسمعون ، أى : فاسمعوا مناطقته به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه - سبحانه - فى العبادة أحداً ، مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان فى قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعاً قوياً دون أن يخشى أحداً إلا الله ، ويدعو قومه بشقى الأساليب إلى إتباعه ويقم لهم ألواناً من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .

ثم يصارحهم فى النهاية . ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بها جاء به الرسل إيماناً لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو عيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشف . فقد أجاد فى تصوير هذه المعانى فقال ما ملخصه : قوله : اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ، : كلية جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لا تخشرون معهم شيئاً من دنياكم ، وترجون صحة دينكم ، فينظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، ليتألف بهم ويداريهم . . . فقال : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » . ثم قال : « إنى آمنت بربكم فاسمعون ، يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نهيتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم . . . » (١) .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذناً واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه : **د قِيلَ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ . . .** .

أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : **ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .**

قال الألوسى : قوله : **د قِيلَ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ . . .** ، استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك .

والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال **قتلوه . . .**

وقيل : الأمر للتبشير لا الإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث . . . (١) .

وقوله - تعالى - : **د قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المسكرين ، استئناف لبيان ما قاله عند البشارة .**

أى : قيل له **ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : يا ليت قومي الذين قتلونى ولم يسمعوا نصيحى ، يعلمون بما نلتهم من ثواب من ربى ، فقد غفر لى - سبحانه - ذنوبى ، وجعلنى من المسكرين عنده ، بفضلته وإحسانه .**

قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادم ذلك إلى إتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصاً على هداية قومه .

روى ابن أبي حاتم أن عروة بن مسعود الثقفي ، قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ابغضني إلى قومي أدعوم إلى الإسلام ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « لاني أخاف أن يقتلوك » . فقال : يا رسول الله ، لو وجدوني نائماً أيقظوني . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : انطلق إليهم ، فانطلق إليهم فر على الآلات والعزى فقال : لأصيحنك غداً بما يسوؤك ، فغضبت ثقيف . فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا نسلوا - ثلاث مرات - . فرماه رجل منهم - فأصاب أكعله فقتل - والآكحل : عرق في وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذا مثله كمثل صاحب يس . قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ، (١) .

وقال صاحب الكشف ما ملخصه : وقوله : « ياليت قومي يعلمون » . إنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون عليهم بها سبباً لا كقتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول في الإيمان . وفي حديث مرفوع : « نصح قومه حياً وميتاً » .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطاف في اقتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشجاعة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الفوائد وهم كفرة وعبداء أصنام . . . ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلهم فقال : « وما أنزلنا على قومه من بعده : أي : من بعد موته » .

« من جند من السماء » لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن يفعل معهم ذلك .

« وما كنا منزلين ، أى : وما صح وما استقام فى حكمنا أن نزل عليهم جنوداً من السماء ، لهُوان شأنهم ، وهوان قدرهم .

« إن كانت إلا صيحة واحدة ، أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحبها بهم جبريل بأمرنا .

« فإذا هم خامدون ، أى : هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة . يقال - خمدت النار تخمد خمرداً - إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها . وخمد الرجل - كقعد - إذا مات وانقطعت أنفاسه .

« وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين ، فقد نزلت بهم عقوبة الله - تعالى - فجعلتهم فى ديارهم جاثمين .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدهوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال - تعالى - : « يا حسرة على العباد ما يأتيتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

والحسرة : الغم والجزن على ما فات ، والندم عليه نداماً لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته لإرجاعها .

« وباء ، حرف نداء . و دحسرة ، منادى وقد أؤها على الجواز بتغزيلها منزلة العقلاء .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وآثروا العمى على الهدى ويدخل فيهم دخولا أولاً أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمنفرد من الآية الكريمة ، التعجب من حال هؤلاء المهلكين ، وبيان

أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .

والمعنى : يا حيرة على العباد الذين اهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضري فهذا أو ان حضورك فإن هؤلاء المالكين كانوا في دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ، ويستخفون به وبدعوته ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .

قال صاحب الكشف : قوله : يا حيرة على العباد . . . ، نداء للحيرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حيرة فهذه من أحوالك التي حثك أن تحضري فيها ، وهي حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلطف عليهم المتلطفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرى : يا حيرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث إنها موجهة إليهم ، (١) .

أى : يا حيرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسولهم ، واستهزائهم بهم .

ثم وبخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون .

والقرون : جمع قرن . وهم القوم المفترون في زمن واحد . وكم ، خبرية بمعنى كثير .

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب

إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسولهم ، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إليهم لينخروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك في الدنيا ، لحكمة أرادها الله - تعالى - .

ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبشهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » .

و « إن » ، حرف نفى . و « كل » ، مبتدأ ، والنون فيه عوض عن المضاف إليه .

و « لما » ، بمعنى إلا . و « جميع » ، خبر المبتدأ . و « محضرون » ، خبر ثان .

أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثير من القرى الظالم أهلها ، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة في الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لا شك فيها أنه ما من أمة من الأمم ، أوجاعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجهم إلىنا يوم القيامة ، لنحاسبها على أعمالها ، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه .

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم » انه بما يعملون خير ، (١) .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألواناً من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، وهذه الأدلة منها ما هو أرضى ، ومنها ما هو سماوى ، ومنها ما هو بحرى ، وكلها تدل - أيضاً - على فضله ورحمته ، قال - تعالى - :

«وَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ
الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ
مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ
الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ
نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا
إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) .

قال الإمام الرازي ماملخصه قوله : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها »
وجه تعلقه بما قبله ، أنه - سبحانه - لما قال : « وإن كل لما جميع لديننا »
محضرون « كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم ،
واستبعادهم ، وعنادهم فقال : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... » أي :
« وكذلك نجزي الموتى ... » (١) .

والمراد بالآية هنا : العلامة والبرهان والدليل .

والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجذباء التي لا نبات فيها .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٧٧ .

والمراد بالحب : جنسه من حنطة وشعير وغيرهما .

أى : ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى ، أننا نزل الماء على الأرض الجداء . فتهتز وتربو ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التى يعيشون عليها . وبأكلون منها .

ونسكر - سبحانه - لفظ دآية ، للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغى لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها .

والله - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر - أيضا - على إحياء الموتى وإعادةهم إلى الحياة .

وقوله : د أحييناها ، كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميئة آية .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله د فنه يأكلون ، للدلالة على أن الحب هو الشيء الذى تكون منه معظم الماء كولات التى يعيشون عليها ، وأن قلة تودى إلى القحط والجوع .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم الأخرى التى تحملها الأرض لهم فقال : د وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وجفرا فيها من العيون ، .

والآية الكريمة معطوفة على قوله : د أحييناها ، ، ونخيل جمع نخل كعبيد جمع عبد . وأعناب جمع عنب . والعيون : جمع عين . والمراد بها الآبار التى تسقى بها الزروع .

أى : أحيينا هذه الأرض الميئة بالماء .. وجعلنا فيها - بقدرتنا ورحمتنا - بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وجفرا واشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التى تسقى بها تلك الزروع والثمار .

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أشهر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم .

واللام في قوله : « لياكلوا من ثمره » متعلق بقوله : « وجعلنا ... » .
والضمير في قوله : « من ثمره » - يهود إلى المذكور من الجنات والنخيل
والأعقاب . أو إلى الله - تعالى - .

أى : وجعلنا في الأرض ما جعلنا من جنات ومن نخيل ومن أعقاب ، لياكلوا
ثمار هذه الأشياء التي جعلناها لهم ، وليشكرونا على هذه النعم .
و « ما » في قوله : « وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » الظاهر أنها نافية
والجمله حالية ، والاستفهام للحض على الشكر .

أى جعلنا لهم في الأرض جنات من نخيل وأعقاب ، لياكلوا من ثمار
ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم ، وإنما الذي أوجدها وصنعها
هو الله - تعالى - بقدرته ومشيئته .

وما دام الأمر كذلك ، فها شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا .
قال ابن كثير : وقوله : « وما عملته أيديهم » ، أى : وما ذاك كله إلا من
رحمتنا بهم ، لا يسعيهم ولا كدهم ، ولا يحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة .
ولهذا قال : « أفلا يشكرون » ، أى : فلا يشكروه على ما أنعم به عليهم من هذه
النعم التي لا تعد ولا تحصى ... (١) .

ويصح أن تكون « ما » هنا موصولة فيكون المعنى : لياكلوا من ثمره
ومن الذي عملته أيديهم من هذه الثمار كالغصير الناتج منها ، وكفرسهم لتلك
الأشجار وتميدها بالسقي وغيره ، إلى أن آتت أكلها .

قال الشوكاني : وقوله : « وما عملته أيديهم » معطوف على ثمره ، أى :
لياكلوا من ثمره ، وياكلوا عما عملته أيديهم كالغصير والدبس ونحوهما ، وكذلك
ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة ، وقيل هي نافية . والمعنى : لم يعملوه

بأيديهم ، بل العامل له هو الله (١) .

ثم أتى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : « سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وبما لا يعلمون » .

ولفظ : « سبحانه » اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، والتقدير : سبحانه الله سبحانه ، أى : تسميها . بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما .

و « من » فى الآية الكريمة للبيان .

أى : نزوه الله - تعالى - تنزيها عن كل سوء . ونعظمه تعظيما لانهاية له ، فهو - عز وجل - الذى خلق الأزواج كلها ، أى : الأنواع ، والأصناف كلها ذكورا وإناثا .

« مما تنبت الأرض » أى خلق الأصناف كلها التى تنبت فى الأرض من حبوب وغيرها .

« ومن أنفسهم » أى : وخلقها من أنفسهم ، إذ الذكر من الأتى والأتى من الذكر .

« وبما لا يعلمون » أى : وخلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد عليها لإياه وحده - تعالى - كما قال - سبحانه - « ويخلق ما لا تعلمون » .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته - تعالى - وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا فى الأرض ، ونرى بعضها متمثلا فى الإنسان المكون من ذكر وأتى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى الأرض التى نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى قلب الليل

والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، فقال - تعالى - : د وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون .

وقوله : د نسلخ ، من السلخ ، بمعنى السكشط والإزالة ، يقال : سلخ فلان جلد الشاة ، إذا أزاله عنها .

والمراد هنا : إزالة ضوء النهار عن الليل ، ليبقى لليل ظلمته .

قال صاحب الكشف : سلخ جلد الشاة ، إذا كسطه عنها وأزاله . ومنه : سلخ الحية خرشاتها - أى : جلدها - فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل ، وملك ظله ، (١) .

أى : ومن البراهين والعلامات الواضحة ، الدالة على وحدانية الله ، على إحياء الموتى ، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التى نشاهدها ، حيث ينزع - سبحانه - عن الليل النهار ، فيبقى لليل ظلامه ويصير الناس فى ليل مظلم ، بعد أن كانوا فى نهار مضى .

فمضى ، فإذا هم مظلمون ، : فإذا هم داخلون فى الظلام ، بعد أن كانوا بعيدين عنه . يقال : أظلم القوم . إذا دخلوا فى الظلام . وأصبحوا ، إذا دخلوا فى وقت الصباح .

وقوله - تعالى - : د والشمس تجري لمستقر لها ، بيان لدليل آخر على قدرته - تعالى - وهو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : د وآية لهم الليل

قال الألوسى ما ملخصه وقوله : د لمستقر لها ، أى لحد معين تنتهى إليه . .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٦ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٢ .

شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره . . . والمستقر عليه اسم مكان واللام بمعنى إلى . . .

ويصح أن يكون اسم زمان ؛ على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعداه ، وعلى هذا فستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا . . . ، (١) .

والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا ، وهي أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعداه ، وإلى زمن محدد لا تتجاوزه ، وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : : والشمس تجري لمستقر لها ، أى : والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها ، وإنما هي تجري فعلاً تجرى في اتجاه واحد ، في هذا الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون بأثنى عشر ميلاً في الثانية .

واقفه ربها الخبير بجرىاتها وبمسيرها يقول : إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر لها . - هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو - سبحانه - ولا يعلم مواعده سواه .

وحين تتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى في الفضاء ولا يسندها شيء ، حين تتصور ذلك ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم ، (١) .

وقد ساق القرطبي عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - : : والشمس تجري لمستقر لها قال مستقرها تحت العرش ، .

ولفظ البخارى عن أبى ذر قال : قال النبي - صلى عليه وسلم - لى حين غربت الشمس : « تدرى أين تذهب ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها . فقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها . فذلك قوله - تعالى - : « والشمس تجري لمستقر لها . . . » (١) .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » ، يعود إلى الجرى المفهوم من « تجرى » .

أى . ذلك الجريان البديع العجيب المقدر للشمس ، تقدير الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، العليم بكل شىء فى هذا الكون علماً لا يخفى من قليل أو كثير من أحوال هذا الكون .

ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى تتعلق بكال قدرته فقال : « والقمر قدرناه منازل . . . » .

ولفظ القمر قرأه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده .

والمنازل جمع منزل . والمراد بها أماكن سيره فى كل ليلة ، وهى ثمان وعشرون منزلاً ، تبدأ من أول ليلة فى الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه . ثم يستقر القمر ليلتين إن كان الشهر تاماً . ويستقر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعاً وعشرين ليلة .

أى : وقدرنا سير القمر فى منازل ، بأن ينزل فى كل ليلة فى منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، إذ كل شىء عندنا بمقدار .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر ، بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة « قدرناه » .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٧ وابن كثير ج ٦ ص ٥٦٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : « والقمر قدرناه » . بالنصب - : أى : وصيرنا سيره ، أى : محله الذى يسير فيه « منازل » ، فقدر بمعنى صير الناصب للمفعولين . والكلام على حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول « ومنازل » مفعوله الثانى . .

وقرأ الحرمين وأبو عمرو : « والقمر » بالرفع ، على الابتداء . وجملة « قدرناه » خبره .

والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة (١) . وقوله - سبحانه - : حتى عاد كالعرجون القديم ، تصوير بديع حالة القمر وهو فى آخر منازل .

والعرجون : هو قنو النخلة ما بين الشماريخ إلى منبته منها وهو الذى يحمل ثمار النخلة سواء أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية . وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو الانعطاف والقوس ، شبه به القمر فى دقته وتقوسه واصفراره .

أى : وصيرنا سير القمر فى منازل لا يتعدها ولا يتقاصر عنها ، فإذا صار فى آخر منازل ، أصبح فى دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس ، قال بعض العلماء : والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة . يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب ، حتى عاد كالعرجون القديم ، وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . ولكنه فى لياليه الأولى يبدو كأن فيه نضارة وقوة . وفى لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاها سهوم ووجوم ، ويكون فيه شعوب وذبول . ذبول العرجون القديم . فليست مصادفة أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب ، (٢) .

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦ .

(٢) تفسير : فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥ .

وقوله - تعالى - : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ، بيان لدقة نظامه - سبحانه - في كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب في أسنى درجات الدقة ، وحسن التنظيم .
 أى : لا يصبح ولا يتأخر للشمس أن تدرك القمر في مسيره فتجتمع معه بالليل . وكذلك لا يصبح ولا يتأخر لليل أن يسبق النهار ، بأن يزاحمه في محله أو دقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يسير في هذا الكون بنظام بديع قدره الله - تعالى - له ، بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه في سيره .
 قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعبده ، ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ...
 وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ولا الليل سابق النهار ، يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار ... (١) .
 وقوله - تعالى - : وكل في فلك يسبحون ، الثنوين في كل ، عوض عن المضاف إليه .

قال الألوسي : والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارة ، كفلح المنزل . وهى الخشبة المستديرة فى وسطه . وفلك الخيمة . وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تمرق الخيمة ، (٢) .
 أى : وكل من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، فى أجزاء هذا الكون يسرون بانسباط وسهولة ، لأن قدرة الله - تعالى - تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب . ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من النعم التى امتن بها على عباده فقال : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٣ ص ٢٣ .

والمفسرين في تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير في لهم ، يعود إلى أهل مكة. والمراد بنذريتهم : أولادهم صغارا وكبارا ، والمراد بالملك المشحون : حنس السفن .

فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - أولادهم صغارا وكبارا في السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .

ويرى بعضهم أن الضمير في لهم ، يعود إلى الناس عامة والمراد بنذريتهم : آباؤهم الأقدمون ، والمراد بالملك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام - التي أنجاه الله - تعالى - فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم .

فيكون المعنى : وعلامة ودليل واضح للناس جميعا على قدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا وحملتنا - آباؤهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - في السفينة التي أسراه بصنعها ، والتي كانت مليئة ومشحوة ، بما ينتفعون به في حياتهم .

قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ؛ الأصول والفروع ، لأن الذرية من الذرة بمعنى الخلق . والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منهم الفروع . فاسم الذرية يقع على الآباء ، يقع على الأولاد ، (١) .

وهذا الرأي الثاني قد اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواء ، فقد قال رحمه الله : يقول - تعالى - : ودلالة لهم - أيضا - على قدرته - تعالى - تسخير البحر ليحمل السفن ، فن ذلك - بل أوله - سفينة نوح التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين . ولهذا قال : : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ، أي : آباؤهم .

وفي الفلك المشحون ، أي : في السفينة المملوءة بالأمثلة والحيوانات ، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٥ .

وقوله - تعالى - : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - على عباده . »

والضمير في قوله - تعالى - « من مثله » يعود على السفن المشابهة لسفينة نوح - عليه السلام - .

قال القرطبي : مالم يخصه قوله - تعالى - : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » والأصل ما يركبونه . . . والضمير في « من مثله » الإبل . خلقها لهم للركوب في البر ، مثل السفن المركوبة في البحر ، والعرب تشبه الإبل بالسفن . وقيل إنه الإبل والدواب وكل ما يركب .

والأصح أنه للسفن . أى : خلقنا لهم سفنًا أمثالها ، أى : أمثال سفينة نوح ، يركبون فيها .

قال الضحاك وغيره : « هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح - عليه السلام - » (١) .

ثم بين - سبحانه - مظهر آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين » .

الصريخ المغيث . أى : فلا مغيث لهم . أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصرخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى من ينقذه ، فيصرخ المغيث له قائلاً : جاءك الغوث والعون .

والاستثناء هنا مفرغ من أعم العطل .

أى : « وإن نشأ أن نغرق هؤلاء المحمولين في السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضى عنده حياتهم . »

فَلَا يَتَانِ الْكَرِيمَتَانِ تَصَوَّرَانِ مَظَاهِرَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَكَلِ
تَصَوِيرٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفْنَ الَّتِي لَمْ تَجْرِ فِي الْبَحْرِ - مَهْمَا عَظُمَتْ - تَصِيرُ عِنْدَمَا
تَشْتَدُّ أُمُوجُهُ فِي حَالَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْاضْطِرَابِ ، وَيَغْشَى الرَّاكِبِينَ فِيهَا مِنَ
الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ مَا يَغْشَاهُمْ ، وَفِي تِلْكَ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ لَا نَجَاةَ لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ
إِلَّا عَنْ طَرِيقِ رِعَايَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - لَهُمْ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من رد المشركين السيء على من يدعونه إلى
الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذي لا يحيط لهم عنه ، ومن
أحوالهم عند قيام الساعة ، فقال - تعالى - :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَرْجِعُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا: أَنْظِمِمْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)
مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ
فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا
يَا وَيْلَنَا مَنِ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ
الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعًا لَدَيْنَا
مُخَضَّرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (٥٤) » .

وقوله - تعالى - : « ولذا قيل لهم لا تظلموا بين أيديكم وما خلفكم ... »
حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، وكيف أنهم صموا آذانهم عن
سماع الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن الفسك في الآيات التكوينية .

أى : ولذا قال قائل هؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : لا تقوا
ما بين أيديكم وما خلفكم ، أى : لا تحذروا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ،
وصوموا أنفسكم عن ارتكاب المعاصى التى إرتكبها الظالمون من قبلكم ،
فأهلكوا بسببها وأبعدوا ، وآمنوا بالله ورسوله وإعملوا العمل الصالح ، لعلمكم
بسبب ذلك تنالون الرحمة من الله - تعالى - .

وجواب « إذا » المحذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك
أعرضوا عن النصح ، وإستخفوا به ، وتناولوا عليه .

وليشهد لهذا الجواب المحذوف وقوله - تعالى - بعد ذلك : « وما تأتئهم من
آية من آيات ربهم إلا كانوا معرضين » .

و من ، الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن سماع الحق ،
والثانية للتبويض .

أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين ، أنهم
ما تأتئهم آية من الآيات التى قدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى
أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فى دعوته ، إلا كانوا عن كل ذلك
معرضين إعرضا تاما ، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم .

وأضاف - سبحانه - الآيات التى أتتهم إليه ، لتفخيم شأنها ، وبيان أنها
آيات عظيمة ، كان من شأنهم - لو كانوا يعقلون - أن يتدبروها ، ويتبعوها
من جاء بها .

ثم حكى - سبحانه - موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة من نصيحهم وأرشدهم

إلى الصواب ، فقال - تعالى - : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ... » .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية زوايات منها : أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقبه أبو جهم . فقال له : يا أبا بكر : أنزعم أن الله قادر على أطعام هؤلاء ؟

قال نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : إبتلى - سبحانه - قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء .

فقال أبو جهم : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا في ضلال ، أنزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم قطعهم أنت فزالت هذه الآية ؟ . وقيل : كان العاصم بن وائل السهمي ، إذا سأله المسكين قال له : إذهب إلى ربك فهو أولى منى بك . ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا ... (١) .

والمعنى . وإذا قال قائل من المؤمنين لهؤلاء الكافرين : أنفقوا على المحتاجين شيئا من الخير الكثير الذي رزقكم الله - تعالى - إياه .

قال الكافرون - على سبيل الاستهزاء والسخرية - للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين طلبتم منا أن ننفق عليهم ، لو شاء الله لأطعمهم ولاغناهم كما أغنانا .

« إن أنتم ، أيها المؤمنون ، إلا في ضلال مبين ، في أمركم لنا بالإففاق عليهم أو على غيرهم . »

قال الشوكاني مامليخصه : وقوله : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » حكاية لتحكم الكافرين ، وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون : إن الرزق هو الله ، وإنه يغنى من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكانهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين

وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله . وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن الله - سبحانه - أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا ، وأمر الغنى أن يطعم الفقير ، ولا يتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة . وقولهم : « من لو إ شاء الله أطعمه » هو وإن كان كلاما صحيحا في نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، وإنكار جواز الأمر بالإتفاق مع قدرة الله ، كان لإحتجاجهم من هذه الحيثية باطلا .

وقوله « إن أقم إلا في ضلال مبين » من تنميه كلام الكفار . وقيل : هو ردمن الله عليهم ... (١) .

ثم يحكي القرآن إنكارهم للبعث ، وإستهزاهم بمن يؤمن به فيقول : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

أى : ويقول الكافرون للدؤمين - على سبيل الإستهزاء والتكذيب بالبعث - « متى هذا الوعد ، الذى تعدوننا به من أن هناك بعثا ، وحسابا وجزاء ... أحضروه لنا ، إن كنتم صادقين » فيما تعدوننا به .

وهنا يحى الرد الذى يزلزلهم ، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم القيامة ، فيقول - سبحانه - : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » .

المراد بالصيحة هنا : النفخة الأولى التى ينفخها لمسرافيل بأمر الله - تعالى - فيموت جميع الخلائق .

وقوله « يخصمون » أى : يختصمون فى أمور دنياهم . وفى هذا اللفظ عدة قراءات سبعة .

منها قراءة أبو عمرو وابن كثير: «وم يخلصون»، بفتح الياء والخاء وتشديد الشاد مع الفتح - ومنها قراءة عاصم والكسائي: «وم يخلصون»، بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد مع الكسر.

ومنها قراءة حمزة ويخلصون، بإسكان الخاء وكسر الصاد مع التخفيف. أى: أن هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة، ويستبعدون حصولها، جاهلون غافلون، فإن الساعة آتية لا ريب فيها، وستجل بهم بفته فإنهم ما ينتظرون، إلا صيحة واحدة، يصيحها إسرافيل بأمرنا، فتأخذهم هذه الصيحة وتصعقهم وتهلكهم «وم يخلصون»، أى: «وم يتخلصون» ويتنازعون في أمور دنياهم.

وعند ما تنزل بهم هذه الصيحة، لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا بما يريد أن يقول له، ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهلهم، لأنهم يصعقون في أماكنهم التي يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة.

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأحوال علامات يوم القيامة، ولسرعه مجيء هذه الأحوال.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة والرجل يليط حوضه - أى يسده بالطين - فلا يسقي منه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها» (١).

ثم بين - سبحانه - حالهم عند النفخة الثانية فقال: «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون».

والمراد بالنفخ هنا: النفخة الثانية التي يكون معها البعث والحساب.

والصور : القرن الذى ينفخ فيه لإسرافيل ، ولا يعلم كيفيته سوى الله - تعالى - .

والآجداث : جمع جدث - بفتح ح - كفرس وأفراس - وهى القبور .
وينسلون : أى : يسرعون بطريق الجسر والقهر لا بطريق الاختيار .
والنسلان : الإسراع فى السير .

أى : ونفع فى الصور النفخة الثانية ، فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونها ، يخرجون من قبورهم سراعا - وبدون اختيار منهم - متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ايقضى فيهم بقضائه العادل .

« قالوا ، بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع : يا ويلنا ، أى : يا هلاكنا
احضر فهذا أوان حضورك .

ثم يقولون بفزع أشد : « من بعثنا من مرقدنا ، أى : من أثارنا من رقادنا ،
وكانهم لمول ما شاهدوا قد اختلطت عقولهم ، وأصبحت بالهول ، فتوهموا
أنهم كانوا نياما .

قال ابن كثير - رحمه الله - « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، يعنون
قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا
ما كذبوه فى محشرهم قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، وهذا لا ينفى عذابهم
فى قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقوله : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، رد من الملائكة أو من
المؤمنين عليهم . أو هو حكاية الكلام الكفارة فى رد بعضهم على بعض على سبيل
الحسرة والباس .

و « ما ، موصولة والعائد محذوف ، أى : هذا الذى وعده الرحمن والذى
صدقه المرسلون .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : إذا جعلت « ما ، مصدرية ، كان
المعنى : هذا وعد الرحمن ، وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدق فيه
بالوعد والمصدق . فما وجه قوله : « وصدق المرسلون . إذا جعلتها موصولة ؟

قلت : تقديره : هذا الذي وعده الرحمن ، والذي صدقه المرسلون ، بمعنى : والذي صدق فيه المرسلون من قولهم : صدقهم الحديث والقتال

ثم بين - سبحانه - سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » .

أى : ما كانت النفخة التى حكيت عنهم آنفاً ، إلا صيحة واحدة ، صاحبها إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ، فإذا هم جميع ، دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ، ويجمعوون للحساب والجزاء .

« فالיום ، وهو يوم القيامة ، لا تظلم نفس شيئاً ، عن الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها .

وقوله - تعالى - « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، أى : ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا ، فالجلة الكريمة ناكيد وتقرير لما قبلها .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة ، جاء الحديث عما أعد الله - تعالى - بفضل وكرمه للؤمنين ، وعما يقال للكافرين فى هذا اليوم من تبيكيت وتأنيب فقال - تعالى - :

« إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا

الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) .

ف قوله - تعالى - : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » بيان لأحوالهم الطيبة ، بعد بيان أحوال المكافرين السيئة .
والشغل : الشأن الذي يشغل الإنسان عما سواه من الشئون ، لم يكونه أم عنده من غيره . وما فيه من التكبر للتفخيم ، كأنه قيل : في شغل أي شغل .

وفاكهون : أي . متنعمون متلذذون في النعمة التي تحيط بهم ، مأخوذ من الفكاهة - بفتح الفاء - وهي طيب العيش مع الفشاط . يقال : فكك الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفكاه ، إذا طاب عيشه ، و زاد سروره ، وعظام نشاطه وسميت الفكاهة بذلك لتلذذ الإنسان بها .

أي : يقال للمكافرين في يوم الحساب والجواز زيادة في حسرتهم - إن أصحاب الجنة اليوم في شغل عظيم ، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم ، ويرضى قلوبهم ، ويقر عيونهم ويجعلهم في أعلى درجات التمتع والغبطة .

وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة ، للاشعار بأن هذه الحال ثابتة لهم ثبوتاً تاماً ، بفضل الله - تعالى - وكرمه .

ثم بين - سبحانه - جانباً من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها فقال : « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » .

و هم ، مبتدأ ، و أزواجهم ، مضاف عليه . و متكئون ، خبر المبتدأ .

قال الإمام الرازي : ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :

أحدهما : أشكلهم في الإحسان . وأمثالهم في الإيمان ، كما قال - تعالى - :
 « وآخر من شكله أزواج » .

وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل ، كما
 في قوله - تعالى - : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم » ، (١) .

ويبدو أن المراد بالأزواج هنا : حلائلهم اللاتي أحلهن الله لهم ، زيادة
 في مسرتهم وبهجتهم وعلى هذا سار عامة المفسرين .

والظلال : جمع ظل أو ظلة ، وهي ما يظل الإنسان ويقيه من الحر .
 والأرائك : جمع أريكة وهي ما يجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه
 للراحة والمتعة .

أى : أن أصحاب الجنة هم وحلائلهم يجلسون على الأرائك متسكثون
 في متعة ولذة .

« لهم فيها ، أى في الجنة ، فاكهة ، كثيرة متنوعة » ولهم ما يدعون ، أى :
 ولهم فوق ذلك جميع ما يطلبونه من مطالب وما يتمنونه من أمنيات .

فقوله : « يدعون ، يصح أن يكون من الدعاء بمعنى الطلب ، كما يصح أن
 يكون من الإدعاء بمعنى التمنى » .

يقال : أدع على ماشئت أى : تمن على ماشئت . ويقال : فلان في خير
 ما يدعى ، أى : في خير ما يتمنى ...

ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله : « سلام قولا
 من رب رحيم » .

وللمفسرين في إعراب قوله : « سلام ، أقوال منها : أنه مبتدأ خبره انماصب
 للفظ « قولا » ، أى : سلام يقال لهم قولا ... (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٠٠

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢١ .

وقد أشار صاحب الكشف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله : سلام ، بدل من قوله ، ما يدعون ، كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم .

والمعنى : أن الله - تعالى - يسلم عليهم بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة في تكرمهم ، وذلك غاية متمناهم ... (١) .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه ابن أبي حاتم - بسنده - عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بيننا أهل الجنة في نعمتهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤسهم فإذا الرب - تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : سلام قولاً من رب رحيم ، قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعم ما داموا ينظرون إليه . حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم ، (٢) .

والماتل في هذه الآيات الكريمة - كما يقول الإمام الفخر الرازي - برأها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا في تعب ، كما تشير إلى وحدتهم ، وإلى حسن المكان ، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه ، وإلى تليذهم بالنعم وإلى تلقيهم لأجل نحية ... (٣) .

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم ، فإذا يقال للمجرمين .

لقد بين - سبحانه - بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال : وامنأزوا اليوم أيها المجرمون ، أى : ويقال للمجرمين في هذا اليوم - على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا - أيها المجرمون - عن المؤمنين ، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب في جهنم ، بسبب كفركم وجحودكم للحق .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٢ . (٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٠ .

(٣) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٠١ .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره .

قال تعالى : « و يوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا واقاموا الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ، (١) » .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » من جملة ما يقال لهم - أيضاً - على سبيل التوبيخ .
والعهد بالشئ : الوصية به ، والمراد به هنا : وصية الله - تعالى - للناس على السنة رسلة ، أن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يحالفوا : ما يوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية .

قال الألوسي : والمراد بالعهد هنا ، ما كان منه - تعالى - على السنة الرسل عليهم السلام - من الأوامر والنواهي التي من جعلتها قوله - تعالى - : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . » .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر ، إذ قال - سبحانه - : « ألسنت بر بكم قالوا بلى ، » .

وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الأمر بعبادة الله - تعالى - الزاجرة عن عبادة غيره . . .

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها .

والمعنى : لقد عهدت إليكم - يا بني آدم - عهداً مؤكداً على السنة رسلي ، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته ، وأن لا تتبعوا خطواته ، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة ، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء .

خجلة د إنه لكم عدو مبين ، تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان .

وقوله : « وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهى عما يجب عليهم أن يجتنبوه .

و « أن » فى قوله « أن لا تعبدوا » وفى قوله « وأن اعبدونى » مفسرة ، والجملة الثانية معطوفة على الأولى .

أى : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة الشيطان ، وعهدت إليكم أن تعبدونى وحدى دون غيرى .

فالإشارة فى قوله : « هذا صراط مستقيم » تعود إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

أى : هذا الذى أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لى هو الطريق الواضح المستقيم ، الذى يوصلكم إلى عز الدنيا ، وسعادة الآخرة .

وقوله - سبحانه - ، « ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون » استئناف مسوق لتأكيد النهى عن طاعة الشيطان . ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته .

« وجبلا كثيرا » بمعنى : خلقا كثيرا حتى لأنهم اكثرتهم كالجبل العظيم .

ولفظ « جبلا » قرأه نافع وعاصم - بكسر الجيم والياء ، وقرأه ابن كثير وحزرة والسكسائي « جبلا » بضم الجيم والياء وتخفيف اللام ، وقرأه أبو عمرو وابن عامر « جبلا » بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد .

أى : ولقد أغرى الشيطان منكم يا بنى آدم خلقا كثيرا ، فهل عقلمت ذلك ،

وانمظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم ، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة ،
وانخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح هو بعد ارتكم . وبالعامل على إغوائكم .
قال - تعالى - : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه
ليكونوا من أصحاب السعير » (١) .

وقال - سبحانه - حكاية عنه . « قال فبعضك لا غوينهم أجمعين . إلا عبادك
منهم المخلصين » (٢) .

وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان ، يقال لهم في النهاية : « هذه
جهنم التي كنتم توعدون » .

أى : هذه جهنم مائة أمام أعينكم أيها الكافرون ، وهى التي كنتم توعدون
بها في الدنيا . وكنتم تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب .

« اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون أى : ذوقوا حرها ولهبها وسعيرها ،
بسبب كفركم في الدنيا ، وموتكم على هذا المكفر .

والأمر في قوله - تعالى - : « اصلوها ، للتحقير والإهانة ، كما في قوله
- تعالى - : « ذق إنك أنت العزيز الكريم ، والذين يأمرونهم بذلك هم خزنة
النار ، بأمر من الله - تعالى - . »

ثم تنتقل السورة السكرية فتحكى لنا جانبها آخر من أحوال الكافرين في
هذا اليوم العصيب ، كما نحكى لنا جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - فنقول :

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ
فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا

مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ يَنْفَعُهُ نُفْسُكَ فِي الْخَلْقِ
أَفَلَا يَنْفَعُونَ (٦٨) » .

والمراد باليوم في قوله - تعالى - : « اليوم نختم على أفواههم ... »
يوم القيامة .

وقوله : « نختم » من الختم ، والختم الوسم على الشيء بطابع ونحوه . مأخوذ
من وضع الخاتم على الشيء . وطبعه فيه الاشتياق ، لكي لا يخرج منه ما هو
بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه .

أى : في يوم القيامة نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما
تكلمنا أيديهم ، وتشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبونه في الدنيا من أقوال
باطلة ، وأفعال قبيحة .

قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين
في الدنيا ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك في قوله - تعالى - : « ثم لم تكن
فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » (١) .

أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف في ذلك اليوم العصيب . أو لأن إقرار
غير الناطق بأبلغ في الحجة من إقرار الناطق ... أو ليعلموا أن أعضاءهم التي
ارتكبت المعاصي في الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم في الآخرة .

وجعل - سبحانه - ما تنطق به الأيدي كلاما ، وما تنطق به الأرجل شهادة ،
لأن مباشرة المعاصي - غالبا - تكون بالأيدي ، أما الأرجل فهي حاضرة لما
ارتكب بالأيدي من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له ، أما قول
الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله .

قال الجمل : وقال السرخي : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند
الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم
كان جبرا ، أو قهراً . والإقرار مع الإيجاب غير مقبول . فقال : تكلمنا

أيديهم وتشهد أرجلهم ، أى : باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ، يكون أدل على صدور الذنب منهم ^(١) .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث .
التي صرح بها أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه في الدنيا من سيئات . ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال : كنا عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من يجادلة العبد ربه يوم القيامة .

يقول : رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز على إلا شاهدا من نفسى ، فيقول الله - تعالى - له : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام البكائين شهودا .

قال : فيحتم على فيه ، ويقال لأركانها - أى لأعضائه - : د انطق ، . فتنتطق بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لىكن وسحقاً فنعسكن كئنت أناضل ، ^(٢) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : د ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ... ^(٣) .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين هم في قبضته في كل وقت فقال : د ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، .

وقوله : د لطمسنا ، : الطمس إزالة الشيء عن طريق محوه . يقال : طمست الشيء طمسا من باب ضرب بمعنى محوته وأزالت أثره . والمطموس والمطميس

(١) حاشية الجدل على الجلالين ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٣ ، وتفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٩ و ٢٠ .

الاعشى . ومفعول المشبهة محذوف . والصراط : الطريق وهو منصوب
بنزع الخافض .

أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نحو عنها الرؤية والإبصار لفعلنا ،
ولكننا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم ، فكان من الواجب
عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر .

وقوله - سبحانه - : « فاستبقوا الصراط ، مطوف على دلائمنا ، على
سبيل الفرض .

أى : لو نشاء نحو أبصارهم لمحوها ، فلو أرادوا في تلك الحالة المبادرة إلى
الطريق لمسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك ، لأنهم كيف يستطيعون
ذلك وهم لا يبصرون شيئا .

فلاستفهام في قوله - تعالى - : « فأنى يبصرون ، لاستبعاد إجتيازم
الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف .

وقوله - سبحانه - ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيا
ولا يرجعون ، والمسخ : تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ،
ومن هيئة إلى هيئة .

أى : وفي قدرتنا إذا شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية ، إلى صور أخرى
قبيحة كان نحوهم إلى قردة أو حيوانات وهم على مكانتهم ، أى : وهم
في مكانهم الذى يقيمون فيه « فما استطاعوا ، بسبب هذا المسخ مضيا ، أى :
ذهابا إلى مقاصدم « ولا يرجعون ، أى : ولما استطاعوا - أيضا - إذا ذهبوا
أن يرجعوا .

أى : فى إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون فى أماكنهم ، فلا يقدرُونَ أن
يمضوا إلى الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف .

فالمقصود بالآيتين السكريميتين تهديدم على استمرارهم فى كفرهم وبيان
أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفى قبضته ، وأنه - سبحانه - قادر على أن

يفعل بهم ما يشاء من طمس الأبصار ، ومن مسخ للصور ، ومن غير ذلك مما يريد - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - أحوال الإنسان عندما يتقدم به العمر فقال : « ومن نعلمه فننكسه في الخلق أفلا يعقلون » .

وقوله : « نعلمه » من التعمير ، بمعنى إطالة العمر .

قال القرطبي : وقوله : « نكسه » قرأه عاصم وحزم - بعن النون الأولى وتشديد الكاف - من التنكيس . وقرأه الباقر : « نكسه » - بفتح النون الأولى وضم الكاف - من نكست الشيء أنكسه نكسيا إذا قلبته على رأسه فانتكس . قال قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا . . . قال الشاعر :

من عاش أخلفت الأيام جـدته وخانه ثفتياه السمع والبصر

فطول العمر يصير الشباب هرما ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا . . . وقد استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يرد إلى أرذل العمر . . . (١) .

والمعنى : ومن نطّل عمره نكسه في الخلق ، أي : زده إلى أرذل العمر ، فنجمله - بقدرتنا - ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخا بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص العقل بعد أن كان مكتمله . . . « أفلا تعقلون » ، ذلك - أيها الناس - مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف . . . قادر - أيضاً - على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته .

وشبيهه بهذا الآية قوله - تعالى - الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا ، وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ، (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٥١ .

(٢) سورة الروم آية ٥٤ .

وقوله - سبحانه - : : ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد هدت الكافرين بسوء التصير إذا استمروا في كفرهم ، وبينت جانباً من فضل الله - تعالى - عليهم ، لعلمهم يفيترون إلى رشدهم ، ويشكرونه على نعمه .

ثم زد - سبحانه - على الكافرين الذين وصفوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال - تعالى - :

« وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ » (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) .

أى : وما علمنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - الشعر ، وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم ، المشتمل على ما يسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم . فالمقصود من هذه الجملة الكريمة . نفي أن يكون القرآن شعراً بأبلغ وجه ، لأن الذى علمه الله - تعالى - لنبيه هو القرآن وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعراً .

وقوله - تعالى - : : وما ينبغي له ، أى : ما علمناه الشعر وإنما علمناه القرآن فقد اقتضت حكمتنا أن لا نجعل الشعر فى طبعه - صلى الله عليه وسلم - ولا فى سلبه ، حتى لو حاوله - على سبيل الفرض - فإنه لا يتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته - صلى الله عليه وسلم - .

والضمير فى قوله - تعالى - : : إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ، يعود إلى القرآن الكريم :

أى : ما هذا القرآن الكريم إلا ذكرٌ من الأذكار النافعة . والمواعظ النافعة والتوجيهات الحكيمة ، وهو فى الوقت نفسه « قرآنٌ مبين » أى : كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة ، التى لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر .

وقد أنزلناه على الرسول الكريم « لينذر ، به » من كان حيا .
 أى : من كان مؤمنا مائلا ذا قلب حى ، ونفس نقية ، وأذن واعية ،
 لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإندار والتحذير .

« ويحق القول على الكافرين » أى : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع
 بالإندار ، أما من كان مصرا على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد جفت
 عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به فى جهنم وبئس القرار .

وقد تسكلم المفسرون هنا كلاما مفصلا . عن كون القرآن ليس شعرا ،
 وكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس شاعرا ، وعلى رأسهم صاحب
 الكشف فقد قال مامنا خصه : « كانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 إنه شاعر ، فرد الله عليهم بقوله : « وما علمناه الشعر » أى : أن القرآن ليس
 بشعر ، وأين هو من الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على
 معنى ، فأين الوزن ؟ وأين التقفية ؟

وأين المعانى التى ينتجها الشعراء من معانيه ؟ وأين نظام كلامهم من
 نظمهم وأساليبه ...

« وما ينبغى له ، أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى جعلناه
 بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولم يتسهل ، كما جعلناه أميا .. لتكون
 الحجة أثبت ، والشبهة أدهض ...

فأنت قلت : فقله :

أنا النسي لا كذب أنا ابن هبيل المطلب

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه - صلى الله عليه وسلم - الذى كان
 يرى به على السليقة . من غير صنعة ولا تسكف . إلا أنه انفق ذلك من
 غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق فى كثير من

لإنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر (١) .

ثم ذكر - سبحانه - المشركين ببعض النعم التي أسبغها عليهم ، والتي يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه منهم ، فقال - تعالى - :

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَافِعِ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا تَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... » ، الإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والأنعام : جمع نعم : وهي الإبل والبقر والغنم .
والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم . أننا خلقنا لهم مما عملته أيدينا ، وصنعتهم قدرتنا . أنعاما كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه .

وأستد - سبحانه - العمل إلى الأيدي ، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه في ذلك مشارك ، أو يعارفه

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩ . وراجع تفسير الألوسي ج ٢ ص ٤٧ .

معاون . كما يقول القائل : هذا الشيء فعلته بيدي وخدي ، للدلالة على تفرد فعله :

والتعبير بقوله - تعالى - : لهم ، للإشعار بأن خلق هذه الأنعام إنما حدث لمنفعتهم ومصالحتهم .

و دما ، في قوله دما عملت ، موصولة ، والعائد محذوف . أى عملته أدينا .

وقوله : فهم لها ما السكون ، بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم .

أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك في قوله : ودللناها لهم . . . ، أى : وجعلنا هذه الأنعام مذلة ومسخرة لهم ، بحيث أصبحت في أيديهم سهلة القيادة ، مطوعة لما يريدونه منها ، بقودونها فتتقاد للصغير والكبير . كما قال القائل :

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجهه ويحبسه على الخسف الجرب (١)
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نسكير (٢)

ففي هذه الجملة السكينة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم ، ولو شاء - سبحانه - لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها .

والفاء في قوله : فتنهاركوبهم ومنها يأكلون ، تفريع على ما تقدم وركوب بمعنى مركوب .

أى : وصيرنا هذه الأنعام مذلة ومسخرة لهم ، فتنها ما يستعملونه في

(١) الجرب : الحبل الذى يربط به البعير .

(٢) فلا غير لديه ولا نسكير : أى فلا غيره لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خفف .

وكوهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر ، ومنها ما يستعملونه في ما كلهم عن طريق ذبحه .

وفضلاً عن كل ذلك ، ، فإنهم « لهم » في تلك الأنعام « منافع » أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها في الحراثة وفي نقل الأثقال ولهم فيها - أيضاً - « مشارب » حيث يشربون من ألبانها .

والاستفهام في قوله : « أفلا يشكرون » ، للتحضيض على الشكر . أى : فهلا يشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، ويخلصون له العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجعودي من هذه النعم فقال : « واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون » .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر ، فقد تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها . وراجين أن تدفع عنهم ضراً عند التماس ذلك منها .

وقوله - تعالى - : « لا يستطيعون نصرهم » . ، دفع لما توهموه من نصرهم وثنى لما توقعوه من نفعهم .

أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين . لأنهم أجبر من أن ينصروا أنفسهم ، فضلاً عن نصرهم لغيرهم .

وقال - سبحانه - : « لا يستطيعون » ، بالواو والذون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل .

والضمير « هم » ، في قوله - تعالى - : « وهم لهم جند محضون » ، يعود إلى المشركين ، والضمير في قوله « لهم » ، يعود إلى الآلهة المزعومة .

أى : وهؤلاء الكفار - لجهااتهم وانغماسهم بآثامهم - قد صاروا في الدنيا

بمنزلة الجن الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع عنها . والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها .

ويرى بعضهم أن الضمير هم ، والآلهة ، والضمير في د لهم ، للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم - أى الآلهة - د لهم ، أى : للمشركين ، د جند محضرون ، أى : جند محضرون معهم إلى النار ، ليلقوا فيها كما يلقي الذين عبدوهم ، كما قال - تعالى - د أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليهم نارا وقودها الناس والحجارة .

والفاء في قوله - تعالى - : د فلا يحزنك قولهم ، للإفصاح . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من الجهالة والغفلة ، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تنال بأقوالهم .

وقوله - سبحانه - : د إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ، تعليل للنهي عن الحزن بسبب أقوالهم . أى لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوالهم . ، فإننا نعلم علماً تاماً ما يرونه من حقد عليك وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، ، ما قبهم على كل ذلك العقاب الذى يستحقونه .

- الآية الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شيء ، فقال - تعالى - :

« أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ، فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ

تَوْقِدُونَ (٨٠) أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ الْمَلَائِكَةَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات ، أن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي يده عظم رميم ، وهو يفتقه ويذريه في الهواء - ويقول يا محمد ، أنزع مني أن الله يبعث هذا ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : نعم ، يبعثك الله - تعالى - ، ثم يبعثك ، ثم يحضرك إلى النار . ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة . .

والمراد بالإنسان : جنسه . ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا . وأصل النطفة : الماء القليل الذي يبقى في الدلو أو القربة . وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقطرة .

والمراد بها هنا : المني الذي يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .
والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المميين الذي يخرج من الرجل فيصب في رحم المرأة . وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، أدار بالمبالغة في الخصومة والجدل الباطل ، وجاهر بذلك بجاهرة واضحة ، مع أنه يأصل خلقته .

قال الألوسي مالم يخصه : وقوله - تعالى - : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه

من نطفة ، كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث ، بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديق به .. والهمزة الإنكار والتعجب من أحوالهم وإيراد الإنسان مورد الضمير ، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان . والمراد بالإنسان الجنس . والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا .

وقوله : د فإذا هو خصيم مبين ، عطف على الجملة المنفية ، داخل في حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل : أو لم يرانا خلقناه من أخس الأشياء وأهمها ، فأظهر الخصومة في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بيّنة ... (١) .

وقوله - تعالى - : د وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، معطوف على الكلام المتقدم ، ودخل في حيز الإنكار .
أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلا هو في غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : - دون أن يفتن إلى أصل خلقته - . من يحيي العظام وهي رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى . فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل . من رم اللازم بمعنى بلى أو بمعنى مفعول . من رم المتعدي بمعنى أبلى . يقال : رمه إذا أبلاه ، فيستوى فيه المذكر والمؤنث .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم سمى قوله : د من يحيي العظام وهي رميم ، مثلا ؟

قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهى إنكار قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى ... مع أن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله - تعالى - بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى . ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ٥٣

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٠

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يجزئ السنة المنكرين للبعث فقال : « قل يحياها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيي هذه الأجساد البالية ، الله - تعالى - الذي أوجدها من العدم دون أن تكون شيئاً مذكوراً ، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه ، وهو - سبحانه - بكل شيء في هذا الوجود عليم علماً تاماً ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سواء أكان هذا الذي صغيراً أم كبيراً ، مجموعاً أم مفروقاً .

قال الشوكاني : وقد استدلل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحلله الحياة - أي أنها بعد الموت تكون نجسه - .

وقال الشافعي : لا تحلله الحياة ، وأن المراد بقوله : « من يحيي العظام » من يحيي أصحاب العظام ، على تقدير مضاف محذوف ، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ، (١) .

وقوله - تعالى - : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فإذا أنتم منه توقدون » دليل آخر على إمكانية البعث . وهو يدل على قوله - تعالى - قبل ذلك : « الذي أنشأها أول مرة »

والمراد بالهجر الأخضر : الشجر الندي الرطب ، كشجر المرخ والعفار ومما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر ، لتقادت منهما شرارة ناراً بقدرة الله - تعالى - .

قال ابن كثير : المراد بذلك سرح - أي : شجر - المرخ والعفار . يذيت

بأرض الحجاز ، فبأق من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فبأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء بسواء .

روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى المثل : لسكل شجر فار ، وإستمجد المرخ والعفار ، (١) .

أى : لسكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشيء على بعض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنكرين للبعث : يحى الأجساد البالية الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضل ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب نارا ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر قودون النار ، وتذفعون بها فى كثير من أحوال حياتكم .

وإذا فن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر - مع حمايته من المائدة المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخا آخر ، فقال : أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم .

والاستفهام - كسابقة - للإنكار والتعجب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . والضمير فى مثلهم ، يعود إلى المنكرين للبعث . والمعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض - وهما فى غاية العظام - قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : د بلى وهو الخلاق العليم ، جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير ما بعد النفي ، وتأكيده قدرته - سبحانه -

على الخلق والإعادة . لأن « بلى » حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منقياً .

أى : بلى لأنه لقادر - سبحانه - على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو - سبحانه - الخلاق ، أى : الكثير المخلوقات والعليم ، أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شيء .

ثم أكد - سبحانه - شمول قدرته لكل شيء . فقال : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

أى : إنما شأنه - سبحانه - فى إيجاد الشيء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجوداً فيكون ، أى : فهذا الشيء يكون ويوجد فى الحال ... قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له « كن » ، قوله فيكون

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتتزيهه - تعالى - عن كل نقص ، فقال « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

أى : فتزه الله - تعالى - الذى له ملك كل شيء . ملكاً تاماً ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل ما يقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى . فهو - سبحانه - لا يهجزه شيء ، ولا يخفى على علمه شيء ، ولا يحول دون قدرته شيء . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وبعد : فهذا تفسير محرز لسورة « يس » ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر : صباح الثلاثاء ٥ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٣ / ٧ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة يس»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٣
١	يس ...	١٠
١٣	واضرب لهم مثلا ...	١٩
٢٠	وجاء من أقصى المدينة ...	٢٤
٣٣	وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ...	٣٣
٤٥	وإذا قيل لهم اتقوا ...	٤٤
٥٥	إن أصحاب الجنة ...	٥٠
٦٥	اليوم نختم على أفواههم ...	٥٦
٦٩	وما علمناه الشعر ...	٦١
٧١	أو لم يروا أننا خلقنا ...	٦٣
٧٧	أو لم يروا الإنسان أنا خلقناه ...	٦٦

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الصَّافَّاتِ

دكتور
محمد شبيب طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الثالث والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للأولف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
« صدق الله العظيم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتهيد

١ - سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها كما ذكر صاحب الإنقان - بعد سورة د الأنعام ،^(١) .

ومعنى ذلك أن نزولها كان في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ، لأننا قد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أنه يغلب على الظن أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة^(٢) .

٢ - قال الألوسي : هي مكية . ولم يحكوا في ذلك خلافا . وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين . ومائة واثنان وثمانون آية عند غيرهم^(٣) وتعتبر هذه السورة - من حيث عدد الآيات - السورة الثالثة من بين السور المكية ، ولا يفوقها في ذلك سوى سورتي الأعراف والشعراء .

٣ - وسميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله - تعالى - : : والصافات صفاء ، . وقد سماها بعض العلماء بسورة د الذبيح ، ، وذلك لأن قصة الذبيح لم تأت في سور أخرى سواها .

٤ - وقد افتتحت سورة د الصافات بقسم من الله - تعالى - بجماعات من خلقه على أن الألوهية والربوبية الحققة إنما هي لله - تعالى - وحده ، ثم أقام

(١) راجع الإنقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ .

(٢) راجع مقدمته تفسير سورة الأنعام للمؤلف .

(٣) تفسير الألوسي ج ٢٣ ص ٦٤ .

- سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة على صدق هذه القضية ، منها خلقه
للسموات والأرض وما بينهما ١ ومنها تزيينه لسماء الدنيا بالكواكب .

قال - تعالى - : والصابغات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا .
إن إلهكم لواحد . رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق .
إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد ...

٥ - ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التي تذرع بها المشركون في
إنكارهم للبعث والحساب ، ورد عليها بما يحقها ، فقال - تعالى - : وقالوا إن
هذا إلا سحر مبين . أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا
الأولون . قل نعم وأنتم داخلون . فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم
ينظرون ، ...

٦ - وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء المشركين ، وتوبيخ
الملائكة لهم ، وإقبال بعضهم على بعض للتساؤل والتخاصم ... بعد كل ذلك
بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - : وما تجزون إلا ما كنتم
تعملون : إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم
مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من
معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، ...

٧ - ثم حكى - سبحانه - جانباً من المحاورات التي تدور بين أهل الجنة
وأهل النار ، وكيف أن أهل الجنة يتوجهون بالحمد والشكر لحالهم ، حيث
أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، ولم يجعلهم من أهل النار الذين يأكلون من
شجرة الزقوم ...

قال - تعالى - : إن هذا هو الفوز العظيم . لمفل هذا فليعمل العاملون .
أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنه للظالمين . إنها شجرة

تخرج في أصل الحميم ، طلعها كأنه رموس الشياطين . فإنهم لا تكون منها
فالتون منها البطون

٨ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة نوح مع قومه ، ومن
قصة إبراهيم مع قومه . ومع ابنة إسماعيل - عليهما السلام - .

ومن قصة موسى وهارون وإلياس ولوط ويونس - عليهم الصلاة
والسلام - .

٩ - ثم أخذت السورة الكريمة - في أواخرها - في توبيخ المشركين
الذين جعلوا بين الله - تعالى - وبين الملائكة نسباً ، ونزه - سبحانه - ذاته
عن ذلك . وهدد أولئك الكافرين بأشد ألوان العذاب بسبب كفرهم وأقوالهم
الباطلة .

وبين بأن عباده المؤمنين هم المنصورون ، وختم - سبحانه - السورة
الكريمة بقوله : سبحانه رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين .

١٠ - والمتأمل في هذه السورة الكريمة - بعد هذا العرض المجمل لآياتها -
يرأها بأنها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث
حق ، وعلى أن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ،
وذلك لكي تغرس العقيدة السليمة في النفوس . . . كما يراها تنتم بحكاية أقوال
المشركين وشبهاتهم . . . ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهدهم ويبطلها ،
كما يراها - كذلك - تسوق ألواناً من المحاورات التي تدور بين المشركين
فيما بينهم عندما يحيط بهم العذاب يوم القيامة ، وألواناً من المحاورات التي تدور
بينهم وبين أهل الجنة الذين نجواهم الله - تعالى - من النار وسعيرها .

كما يراها - أيضاً - تسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم . تارة
بشيء من التفصيل كما في قصة إبراهيم مع قومه . وتارة بشيء من التركيب
والإجمال كما في بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها . . .

وتمتاز بعرضها للمعاني والأحداث بأسلوب مؤثر. تزدى فيه قهر الفواصل
وكثرة المشاهد، والمواقف. مما يجعل القارىء لا ياتىها فى شوق إلى مانسوتة
من نتائج...

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الراجى عفوى ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ٨ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥/٧/٢٦ م

« التفسير »

قال الله - تعالى - :

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوْ أَحَدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) » .

والواو في قوله - تعالى - : « وَالصَّافَّاتِ » ، للقسم . وجوابه قوله : « إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوْ أَحَدٌ » .

و « الصَّافَّاتِ » ، من الصف ، وهو أن تجعل الشيء على خط مستقيم .
تقول : صفت القوم قاصطوا ، إذا أقنهم على خط مستقيم . سواء أكانوا في الصلاة ، أم في الحرب ، أم في غير ذلك .

والزاجرات : من الزجر ، وهو الدفع بقوة . تقول : زجرت الإبل زجرا - من باب قتل - إذا منعتها من الدخول في شيء ودفعتها إلى غيره .

والتاليات : من التلاوة ، بمعنى القراءة في تدبر وتأمل .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات : جماعة من الملائكة ، موصوفة بهذه الصفات ...

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله - تعالى - وطاعته ، أو الذين يصفون أجنحتهم في السماء انمطارا لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصي أو يزجرون السحاب إلى الجهات التي كلفهم الله - تعالى - بدفعه إليها ، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقر بها إليه - تعالى - وطاعة له .

وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون في قوله - تعالى - في الصورة نفسها :
« وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » .

(٦ - سورة الصافات)

كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وجعلت لنا ربها طهورا إذا لم نجد الماء ، (١) .

وفي حديث آخر رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يتمتعون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف ، (٢) .

وجاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به . كما في قوله - تعالى - في أوائل المرسلات : فالمفيات ذكرا . عذرا أو نذرا . .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : فالتاليات ذكرا ، هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله - تعالى - : فالمفيات ذكرا . عذرا أو نذرا ، (٣) ومنهم من يرى أن المراد بالصفات والزاجرات والتاليات هنا : العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات ، ويزجرون غيرهم عن المعاصي ، ويتلون كلام الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن المراد بالصفات : الطيور التي تصف أجنتها في الهواء وبالزاجرات والتاليات : جماعات الغزاة في سبيل الله ، الذين يزجرون أعداء الله - تعالى - ويكثرون من ذكره .

ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح ، لأن الآيات القرآنية ،

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد - ٢ ص ٦٣ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة - ٢ ص ٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣ .

والأحاديث النبوية التي سبقنا ما قبل ذلك تؤيده ، ويؤيده - أيضا - ما يحى بعد ذلك من أوصاف للملائكة كما في قوله - تعالى - : لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ... ، والمراد بالملأ الأعلى هنا : الملائكة ...

ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن مسعود وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد .

ولنما أقسم الله - تعالى - هنا بالملائكة ، لشرفهم ، وسمو منزلتهم وامتثالهم لأوامره - سبحانه - امتثالا تاما وله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنويفا بشأن المقسم به ، ولافتا لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع ...

ولفظ : الصافات ، مفعوله محذوف ، والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو أجنحتها طاعة وامتثالا لأمر الله - تعالى - .

والترتيب بالغاء في هذه الصفات ، على سبيل الترتي ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منعتها إلى الغير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخلي عن الرذائل ، والتعلى بالفضائل .

وقوله : صفا ، وزجرا ، وذكرنا ، مصادر مؤكدة لما قبلها .

وقوله - سبحانه - : : إن إلهكم لواحد ، جواب للقسم ، وهو المقسم عليه . أى : وحق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم - أيها الناس - لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في خلقه ...

وقوله : : رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، بدل من قوله : لواحد ، أو خير بعد خير لمبتدأ محذوف .

أى : إن إلهكم - أيها الناس - لواحد : هو - سبحانه - رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التي

تشرق منها الشمس في كل يوم على مدار العام ، إذ لها في كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها في كل يوم - أيضاً - مغرب تغرب فيه .

واكتفى هنا بذكر المشارق على المغارب ، لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ في النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب . وقد قال - سبحانه - في آية أخرى : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً »^(١) .

والمراد بهما هنا جنسهما ، فهما ضادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون مشرقاً - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التي هي كذلك .

وقال في سورة الرحمن : « رب المشرقين ورب المغربين ، أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربها أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما . وبذلك يبين أنه لا تعارض بين مجىء هذه الالفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية ، وتارة على سبيل الجمع .

قال بعض العلماء : قوله ، « رب المشارق ، أى : ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق فهو مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السموات الفسيحة . » وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك ، فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس ، كان هناك مشرق على هذا القطاع . وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية . . . وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن الكريم ، أخبركم الله - تعالى - بها في ذلك الزمان القديم . . . »^(٢) .

(١) - سورة المزمل الآية ٩ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٤٦ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر قدرته في خلقه لهذه السموات وكيف أنه - تعالى - قد زين السماء الدنيا بالكواكب . وحفظها من تسلي أي شيطان إليها فقال تعالى :

« إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) » .

وقوله - تعالى - « زينا » من الزين بمعنى التحسين والتجميل . والمراد بالسماء الدنيا : السماء التي هي أقرب سماء إلى الأرض . فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب .

والكواكب : جمع كوكب وهو النجم الذي يرى في السماء .

وقوله : « زينتنا الكواكب » فيه ثلاث قراءات سبعة فقد قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب . أي : بلا تنوين في لفظ « زينة » . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » ، وخفف لفظ الكواكب على أنه بدل منه . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » ، ونصب لفظ الكواكب ، على أنه مفعول لفعل محذوف أي : أعنى الكواكب .

والمعنى : لما بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التي ترونها بأعينكم - أيها الناس - بالكواكب ، لجعلناها مضئة بحيث تهتدون بها في سيركم من مكان إلى مكان :

كما قال - تعالى - في آية أخرى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين »

وبما لا شك أن منظر السماء وهي مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور ، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين في فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر ...

وقوله - سبحانه - : « وحفظا من كل شيطان مارد » ، بيان لما أحاط به - سبحانه - السماء الدنيا من حفظ ورعاية .

ولفظ « حفظا » منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله . أى : وحفظناها حفظا ، أو معطوف على محل « بزيئة » .

والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب . والمراد به هنا : المتمرد من الجن .

والموارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله - تعالى - المتعمرى من كل خير .

أى : إذا جعلنا السماء الدنيا مزيئة بالكواكب وضيائها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير ، خارج عن طاعتنا ورحمتنا .

وقوله - سبحانه - : « لا يسمعون إلى الملائ الأعلى » ، ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب ، جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ ، ولما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا لاستراق السمع منها .

ولفظ « يسمعون » بتشديد السين - وأصله يسمعون ، فأدغمت التاء في السين . والضمير للشياطين وقرأ الجمهور « لا يسمعون » ، بإسكان السين .

قال صاحب الكشف : « الضمير في « لا يسمعون » لكل شيطان ، لأنه في معنى الشياطين ، وقرئ « بالتخفيف والتشديد » . وأصله « يسمعون » ، « والنسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع » ...

فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟

قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك . والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك .. ، (١) .

والملا في الأصل : الجماعة يجتمعون على أمر فيملئون النفوس هيبة . والمراد بالملا الأعلى هنا : الملائكة الذين يسكنون السماء .

وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم في جهة العلو ، بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض .

وقوله : « ويقذفون » من القذف بمعنى الرجم والرمي . و « دحورا » مفعولا لأجله . أى : يقذفون لأجل الدحور ، وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دحره يدحرو دحرا ودحورا : إذا طرده وأبعده .

والواجب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وصب الشيء يصب وصبوا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله : وله الدين واصبا ، أى : دائما ثابتا :

والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ، وحفظناها - بقدرتنا ورعايتنا - من كل شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة في السماء ، لم تمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجمناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا - فوق كل ذلك - هذاب ذاتهم ثابت لا نهاية له .

وقوله : « إلا من خطف الخطافة .. » استثناء من الواو في « يسمعون » و « من » في محل بدل من الواو .

والخطف : الأخذ الشيء بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه . أى : لا يسمع الشياطين إلى الملا الأعلى ، إلا الشيطان الذى خطف

الخطافة من كلام الملائكة بسرعة وخفة، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر - دون ما يتعلق بالوحي - فإنه في هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه شهاب ثاقب ، أى : شعلة من النار تثقب الجو بضوئها فتهلك وتحرقة وتثقبه وتمزقه .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : : وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، (١) .

وبما يدل على أن استراقهم للسمع ، واختطافهم للخطافة ، إنما يكون في غير الوحي ، قوله - تعالى - : : إنهم عن السمع لمعزولون ، (٢) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : : كانت للشياطين مقاعد في السماء ، فكانوا يستمعون الوحي ، قال : : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة تسعا . قال : : فلما بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل الشيطان إذا قعد مقعده ، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، (٣) .

ثم أسر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ المنكرين للبعث والحساب ، وحكى جانباً من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية ، ورد عليهم رداً يزهق باطلهم . . . فقال - تعالى - :

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٥ .

إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَ لَمَبْعُوثُونَ (١٦)
 أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
 وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)
 هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) .

والقاء في قوله - تعالى - : « فاستفتهم ... » هي الفصيحة ، والاستفتاء :
 الاستخبار عن الشيء ومعرفة وجه الصواب فيه .

والمراد من الاستفهام في الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على
 شركهم وجهلهم ، وتعجب العقلاء من أحوالهم .

واللازب : أى : الملتصق ببعضه ببعض . يقال : لزب الشيء يلزب لزبا
 ولزوبا ، إذا تداخل بعضا في بعض ، والتصق ببعضه ببعض . والطين اللازب :
 هو الذى يلزق باليد - مثلا - إذا ما التقت به . قال النابغة الذبياني :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب
 أى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - من أن
 كل شيء في هذا الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأل هؤلاء المشركين
 : أم أشد خلقا ، أى : أم أقوى خلقا وأمتن بنية ، وأضخم أجسادا ...
 : أم من خلقنا ، من ملائكة غلاظ شداد ، ومن سموات طباقا ، ومن أرض
 ذات فجاج ...

لا شك أنهم لن يجدوا جوابا يردون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق
 الملائكة والسموات والأرض ، أشد من خلقنا .

وقوله - تعالى - : « إنا خلقناهم من طين لازب » ، إشارة إلى المادة الأولى
 التي خلقوا منها في ضمن خلق أبيهم آدم - عليه السلام - .
 أى : إنا خلقناهم من طين ملتصق ببعضه ببعض ، ومتداخل ببعضه في بعض .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقَت دليِلين واضحين على صحة البعث الذي أنكره المشركون .

أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة .. أعظم وأكبر منهم ... ومن كان قادرا على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرا على خلق الأقل والأصغر .

وقد ذكر - سبحانه - هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - :
« الخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، (١) .

وأما الدليل الثاني فهو قوله - تعالى - : « إنا خلقناهم من طين لازب » ، وذلك لأن من خلقهم أولا من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما .

إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الإبتداء . وقد قرر - سبحانه - هذه الحقيقة في آيات منها قوله - تعالى - : « وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال :
« بل عجبتم ويسخرون » .

قال الجمل : وقوله : « بل عجبتم » إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله : « فاستفتهم » ، أى : هم لا يقرون بل عجبتم . وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى : لا تستفتهم فإنهم معاندون ، بل أنظر إلى تفاوت حالك ... ، (٣) .

(١) سورة ظفر الآية ٥٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٣٢ .

أى : بل عجبت - أيها الرسول الكريم - ومن حَقَّك أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التي سقناها لهم على أن البعث حق .

وجملة « ويسخرون ، حالية . أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك من إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لترددها على مسامعهم صباح مساء .

قال الألوسي : « وقرأ حمزة والكسائي : « بل عجبت » - بضم ائتاء - ... وأولت هذه القراءة بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز على لعجبت من هذه الحال ...

ثم قال : والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل للسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو في الله - تعالى - بمعنى بليق لذاته - تعالى - ، وهو - سبحانه - أعلم به ، فلا يعيرون معناه ... (١) .

وقوله - تعالى - : « وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأى أية يستسخرون ، بيان لشدة تماديهم في الباطل ، وإصرارهم عليه .

أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون ، وإذا رأوا آية واضحة في دلالتها على الحق « يسخرون ، أى : يبالغون في السخرية وفي الاستهزاء بها ؛ يقال : استسخر القوم من الشيء ، إذا استدعى بعضهم بعضاً للاستهزاء به .

ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقرا الا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال - تعالى - : « وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، .

أى : وقالوا - على سبيل الجحود والعناد - ما هذا الذي أتانا به محمد

- صلى الله عليه وسلم - إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا في كونه كذلك .

« أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ،

أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة في الإنكار لما جاءهم به قولهم : أنذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا في قبورنا ، وصرفنا ترابا وعظاما ، أننا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعوثون أيضاً ؟

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطباع بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء . والتي من آثارها إبعادهم من العدم ...

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يخرس ألسنتهم فقال : « قل نعم وأنتم داخرون » .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سيبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعا « داخرون » أى : صاغرون مستسلمون ، لا يستطيعون التأخر أو التردد ... يقال : دخر الشخص يدخر - بفتح الحاء - دخورا ، إذ أذل وصغر وهان .

ثم بين - سبحانه - أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : « فإني هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » .

والزجرة واحدة من الزجر . يقال : زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شيء معين . والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام والفاء : هي الفصيحة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فإني بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة

واحدة يعيها لإسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم في ذهول ، وينتظرون في استسلام وذلة حكم الله - تعالى - فيهم .

والمراد بهذه الزجرة النفخة الثانية التي يقوم بها إسرافيل بأمر الله - تعالى - كما قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، (١) .

والتعير عن الضيعة بالزجرة ، للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتهم من لا يستطيعون مصيبة أمره .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال : « وقالوا يا ويلنا ، أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم في ذهول : « يا ويلنا ، أى : يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك .

وقوله : « هذا يوم الدين » ، يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ما كانوا يشكرونه ، قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم .

أى : قال بعضهم لبعض في ذعر وفرع : يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال ، الذى كنا ننكره في الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا .

وبصح أن يكون هو وما بعده ، وهو قوله - تعالى - : « هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون » ، من كلام الملائكة على سبيل التأييد لهم .

أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ما شئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذى كنتم تكذبون به في الدنيا ، وتستمزجون من يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم بسوء المصير إذا ما مرتم في طريق الكفر به ، والإنكار له .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصويراً

تقتصر من هوله الجلود، وحكى جانباً من حسراتهم خلال تساؤلهم فيما بينهم
فقال - تعالى - :

« احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ (٢٤)
مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ
الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (٣٠) خَفَى عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)
فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)
إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَارِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)
بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) » .

وقوله - تعالى - : « احشروا ، من الحشر بمعنى الجمع مع السوق . يقال :
حشر القائد جنده حشرا - من باب قتل - إذا جدهم . والمحشر : المكان الذي
يجتمع فيه الخلائق .

والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة
أخرى في العبادة . ومن الآيات التي وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك
والكفر ، قوله - تعالى - : « إن الشرك لظلم عظيم ، وقوله - سبحانه - :
« والكافرون هم الظالمون » .

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - فسر الظلم بالشرك في قوله - تعالى - : ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، .

والمراد ، بأزواجهم ، : أشباههم ، ونظراؤهم ، وأمثالهم في الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم : عمر بن الخطاب والنعيمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وعجاء ، وأبو العالية ...

وقيل المراد ، بأزواجهم ، : قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه . .

وقيل المراد بهم : نساؤهم اللاتي كن على دينهم ، بأن كن مشركات في الدنيا كأزواجهم ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا عشور - والعباد بالله - إلى جهمهم ، إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشياء والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشياء جاء كثيرا في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : : سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ، .

والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التي كانوا في الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان .

والامر من الله - تعالى - للدلائك في هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة .

أي : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين في الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم في الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم - أيضا - آلهتهم الباطلة التي عبدوها من دون الله - تعالى - ثم ألغوا بهم جميعا في جهمهم ، ليذوقوا سعيها وحرها .

وفي حشر الآلهة الباطلة مع عابديها ، زيادة تحسير وتخجيل لهؤلاء العابدين ،
لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وفسر أن ما كانوا يفعلونه في الدنيا .

والضمير في قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » ، يعود إلى المشركين
وأشباههم وأهلهم . وقوله : « فاهدوهم » ، من الهداية بمعنى الدلالة على الشيء
والإرشاد إليه .

أى : احشروهم جميعا جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ،
وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه .

والتعبير بالهداية والصراف فيه مافيه من التكميم بهم ، والتأنيب لهم ، فكانه
- سبحانه - يقول : بما أنهم لم يهتدوا في الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى
الصراف المستقيم ، فليهدوا في الآخرة إلى صراط الجحيم .

وقوله - سبحانه - : « وقفوهم إنهم مسئولون » ، زيادة في توبيخهم وإذلالهم ،
والموقف هنا : بمعنى الحبس .

قال القرطبي : « وقف الدابة أوقفها وقفا فوقفت هي وقفا .. أى :
احبسوهم . وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير ، أى :
قفوهم للحساب ثم سرقوهم إلى النار ... » (١) أى : واحبسوهم في موقف
الحساب ، لأنهم مسئولون عما كانوا يقتربونه في الدنيا من عقائد زائفة ،
وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة .

ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التي صرحت بأن المجرمين
يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم يسألون كما في قوله - تعالى - :
« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .

أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن في يوم القيامة مواقف متعددة ،

فقد يسألون في موقف ولا يسألون في آخر .. أو أن السؤال الممبغ هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفي هو سؤال الاستعلام والاستخبار ...

وقوله - تعالى - : « ما لكم لا تناصرون ، تقريع آخر لهم ، أى : ما الذى جعلكم فى هذا اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم - أيها الكافرون - ، مع أنكم فى الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصرون ؟ »

ثم أضرب - سبحانه - عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : « بل هم اليوم مستسلمون ، »

والاستسلام : أصله طلب السلامة . والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق . يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لمعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

ثم يحكى - سبحانه - ما يدور بينهم من مجالادلات يوم القيامة فيقول : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، »

ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا . يكون بين الأنبااع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء .

كما ندل عليه آيات منها قوله - تعالى - : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لو لا أنكم لكنا مؤمنين ، (١) . »

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : « قالوا إنكم كنتم تأتونا عن البين ، وللمفسرين فى تأويل معنى البين هنا اتجاهات منها :

(١) سورة سبأ آية ٢١ .

أن المراد باليمين هنا : الجهة التي هي جهة الخير واليمن : أى : قال للضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم في الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على مانحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة .. فأين مصداق ماقلتموه لنا وقد نزل بنا ما نزل من أهوال وآلام ؟

فالمقصود بالآية السكريمة بيان ما يقوله الاتباع للمتبعين على سبيل الحسرة والغدامة ، لأنهم خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب إتباعهم لهم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : اليمين لما كانت أشرف العنصرين وأمتنهما ، وكانوا يقيمون بها ، يصالحون ، يماسحون ، ويناولون ، ويتناولون ، ويذالون أكثر الأمور ..

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقول : أناه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته ... (١) .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التي هي القسم . وعن بمعنى اليباء .

أى : قالوا لهم : إنكم كنتم في الدنيا تأتوننا بالإيمان المغلظة على أنفسنا وأنتم على الحق فصدقناكم واتبعناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الإيمان المغلظة ؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم في الدنيا تجبروننا وتفسروننا على اتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء ...

والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أو هموا الضعفاء بأنهم على الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن لم اتبعوا ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهماً منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئاً من العذاب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بمخسة أجوبة : أولها : : قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، أى : قال الرؤساء للاتباع : نحن لم نقسب في كفركم في الدنيا . بل أنتم الذين أيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضاً . - فكفركم فابع من ذواتكم ، وليس من شيء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم في وقت من الأوقات .

فالجلة الكريمة لإضراب لإبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وثانيها : يتجل في قوله - تعالى- : : وما كان لنا عليكم من سلطان ، أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء في الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتُم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .

وثالثها : قوله - تعالى- : : بل كنتم قوماً طاعين ، أى : نحن لم يكن لنا عليكم سلطان ، بل أنتم الذين كنتم في الدنيا قوماً طاعين وضالين مثلنا . والطفيان مجاوزة الحد في كل شيء .

ورابعها : نراه في قوله - سبحانه - : : لخلق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، والفاء للتفريع على ما تقدم . من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء في الكفر .

أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلاً ، فكانت نقيجتنا جميعاً ، أن استهققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توهدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به - تعالى - .

وخامس هذه الأجوبة : بينه - سبحانه - في قوله - حكاية عنهم - :
 « فأغويونا كما لنا كنا غاوين » .

أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبت لنا باختياركم
 النفى على الرشد « لنا كنا غاوين » ، مثلكم ، فلا تلومونا ولو موا أنفسكم ، فنحن
 ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهمهم به من أنهم السبب فيما حل
 بهم من عذاب اليم يوم القيامة .

وهنا يبين - سبحانه - حكمه العادل في الجميع ، في الرؤساء والاتباع فيقول
 « فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون » .

أى : كما كانوا مشاركين في الدنيا في الغواية والضلالة ، فإنهم في الآخرة
 مشتركون جميعا في حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيه .

فالضمير في قوله « فإنهم » يعود للتائبين والمتبوعين ، لأنهم جميعا
 مستحقون للعذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب متى أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير
 السيء فقال : « لنا كذلك ففعل بالمجرمين » ، أى : مثل هذا العذاب الاليم ففعل
 بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا في العبادة ، « وآذوا رسلنا الذين جاءوا
 لحدايتهم وإرشادهم » .

« لأنهم كانوا » في الدنيا « إذا قيل لهم » على سبيل النصيحة والدعوة إلى
 الحق « لا إله إلا الله يستكبرون » عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون
 عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة
 الإيمان ...

« ويقولون » لمن نصحهم : « أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » .
 أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله

إلا الله ، يقولون له أتدعوننا إلى أن نفترك ما عليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون .

ويعنون بالشاعر المجنون - قبحهم الله - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله الله - تعالى - لهدايتهم .

ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » .

أى : ليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم - أيها الجاهلون - ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصداقاً لهم فى الدعوة إليه ، فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون ؟

« وإنكم » - أيها المشركون بسبب هذه المزاعم « لذائقوا ، فى هذا اليوم العذاب الاليم ، الذى يذليكم ويخزيكم ويجعلكم فى حزن دائم ... »

« وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجه للمؤلم . إلا بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا . »

وهكذا نجد الآيات السكرية قد بينت لنا بأللوب مؤثر بديع ، سوء عاقبة الكافرين ، بسبب إعراضهم عن الحق . وامتدح كبارهم عن الدخول فيه ، ووصفهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو برى منه .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين مصير الأشرار ومصير الأخيار - إيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة - أتبع - سبحانه - الحديث عن سوء عاقبة الكافرين ، بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - :

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَإِكَّةٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ

مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (٤٥) يَبِضْءُ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَهَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ
قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُمْ يَبِغْضُونَ مَسْكُونٌ (٤٩) .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « إلا عباد الله المخلصين ، استثناء منقطع
من ضمير « ذائقوا » ، وما بينهما اعتراض جوي . به مسارعة إلى تحقيق الحق .
ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهنم لا من جهة غيرهم أصلاً . فإلا
مؤولة بل يمكن ... »

فاللهي : إنكم - أيها المشركون - لذائقوا العذاب الأليم ، ولسكن عباد الله
المخلصين - ليسوا كذلك - أولئك لهم رزق معلوم ... ، (١) .

ولفظ « المخلصين » ، قرأه بعض القراء السبعة - بفتح اللام - ، أي : لكن
عباد الله - تعالى - الذين أخلصهم الله - تعالى - لطاعته وتوحيده
ليسوا كذلك .

وقرأه البعض الآخر بكسر اللام . أي : لكن عباد الله الذين أخلصوا
له العبادة والطاعة ، لا يذوقون حر النار كالمشركين .

واسم الإشارة في قوله : « أولئك لهم رزق معلوم » ، يعود إلى هؤلاء
العبادة المخلصين .

أي : أولئك العباد المتصفون بتلك الصفة الكريمة وهي الإخلاص ، لهم
رزق عظيم معلوم في قته ، كما قال - تعالى - : « ولهم رزقهم فيها بكره وعشاء » .
ومعلوم في خصائصه الكريمة وصفاته الحسنة ككونه لذيق الطعم ، حسن
المنظر . غير مقطوع ولا ممنوع . إلى غير ذلك من الصفات التي تجعله محل
الرغبة والاشتهاء ... »

وقوله - تعالى - : « فواكه وهم مكرمون ، يدل مما قبله ، أو خير لمبتدأ محذوف . أي هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه .

والمراد به - هذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التسلذذ والتفكه .
وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم في الجنة في غنى عن القوت الذي يحفظون به حياتهم ، وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله الآكلون .

وفضلاً عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شيء إلا ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله - تعالى - ورحمته .

ثم بين - سبحانه - مكانهم وهيئتهم فقال : « في جنات النعيم ، على سرر متقابلين » .

أي : هم في جنات ليس فيها إلا النعيم الدائم ، وهم في الوقت نفسه يجلسون جميعاً على سرر متقابلين ، بأن تكون وجوههم متقابلة لا متدبرة . فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين .

« يطاف عليهم بكأس من معين ، والكأس : هو الإناء الذي فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح . وقد يسمى الشراب ذاته كأساً ، فيقال : شربت كأساً ، وذلك من باب تسمية الشيء باسم محله .

و « معين ، اسم فاعل من معن وهو صفة الكأس . مأخوذ من عان الماء . إذا نبع وظهر على الأرض .

أي : يطاف على هؤلاء العباد المخاضين وهم في الجنة ، بكأس مليء بخمر لذة للشاربين ، فائمة من العيون ، وظاهرة الأبصار ، تجري في أنهار الجنة كما تجري الأنهار .

فالتعبير بقوله - تعالى - « بكأس من معين ، يشعر بكثرتها ، وقربها من يربدها ...

وقوله - تعالى - : « بيضاء لذة للشاربين ، صفتان للكأس باعتبار ما فيه .
أى هذه الخمر التى يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذيدة الطعم والرائحة
عند الشاربين .

« لا فيها غول ، أى : أذى أو مضرة . والغول . إهلاك الشيء - على
غرة وغفلة .

يقال : غاله بغوله غولا ، واغتاله اغتالا ، إذا قضى عليه بغته ، وأخذه
من حيث لا يشعر .

أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة
لخمر الدنيا .

« وهم عنها ينزفون ، و « عن ، هنا للسببية ، فهى بمعنى الياه . أى : ولا هم
بسبب شربها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال فى خمر الدنيا .

وأصل النزف : نزع الشيء من مكانه وإذهابه بالتدريج . يقال : نزف
فلان ماء البئر ينزفه - من باب ضرب - إذا نزحه شيئا فشيئا إلى نهايته . ويقال :
نزف الرجل - كعنى - إذا سكو حتى اختل عقله . وخصت هذه المفسدة بالذكر
مع عموم ما قبلها ، ليكونا من أعظم مفسد الخمر .

وقوله - تعالى - : « وعندهم قاصرات الطرف عين ، بيان لمتعة أخرى من
المتع التى أحلها الله - تعالى - لهم .

وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس . وعين : جمع عينا . وهى المرأة
الواسعة العين فى جمال . أى وفضلا عن ذلك . فقد متعنا هؤلاء العباد بمتع
أخرى ، وهى أننا جعلنا عندهم للمؤانسة نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن
لا يمدرنها إلى غيرهم . لشدة محبتهم لهم ، ومن صفات هؤلاء النساء - أيضا -
أنهن جميلات العيون .

« كأنهن ، أى : هؤلاء النسوة بيض مكنون ، أى : كأنهن كبيض النعام ، الذى كفن الريش فى العش ، فلم تمسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، فى صفاء البشرة ، وتقاء الجسد ... »

وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفاته يخالطه شىء من الصفرة وهو لون محبوب فى النساء عند العرب ولذا قالوا فى النساء الجميلات : بياضات الخدور .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين . بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذى تشرح له الصدور ، وتقربه العيون ، وتبهج له النفوس ...

ثم حكى - سبحانه - بعض المحاورات التى تدور بين عباده المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعدده - سبحانه - لهم من نعم مقيم ... فقال - تعالى - :

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطْمَئِنُونَ (٥٤) فَاطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَأْفِكِ إِن كُنتَ لَتُرِيدُنِي (٥٦) وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدِيَيْنِ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهَوَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ (٦٠) لَمَثَل هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) » .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : علام عطف قوله : « فأقبل بعضهم »

على بعض ... ؟ »

قلت : هو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « يطاف عليهم بكأس من معين » ، والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشاربين .
قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام
فيقبل بعضهم على بعض « يتساملون » عما جرى لهم وعليهم في الدنيا . إلا
أنه جىء به ماضيا على عادة الله في أخباره ... (١) .

أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ،
أقبل بعضهم على بعض ، يتساملون فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد
منهم يقول لإخوانه - من باب التحدث بنعمة الله - :

« إني كان لي قرين ، أرى : إني في الدنيا كان لي صديق ملازم لي ، ينهاني
عن الإيمان - بالبعث والحساب ، ويقول لي - بأسلوب التهمك والاستهزاء - :
« أتنتك لمن المصدقين ، أرى : أتنتك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك
بعثا وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا .. »

ثم يضيف إلى ذلك قوله : « أأنذا متنا » وانتهت حياتنا في هذه الدنيا ،
ووضعنا في قبورنا « وكنا ترابا وعظاما » ، أى : وصارت أجسادنا مثل التراب
ومثل العظام البالية ..

« أننا لمدينون » ، أى : أننا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة
أخرى ، ويجزبون بأعمالنا . فقوله - تعالى - « لمدينون » من الدين بمعنى
الجزاء ، ومنه قوله تعالى - « مالك يوم الدين » ، والاستفهام : للاستبعاد
والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب .

وهذا يعرض هذا المؤمن على إخرانه ، أن يشاركوه في الاضلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم : هل أنتم مطلعون ، أى : هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لرى جميعا حال ذلك القرين الذى حكيت لكم حاله ؟ والاستفهام للتخصيص ، أى : هيا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرين الكافر .

فاطلع ، ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار ، فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى سواء الجحيم ، أى : فى وسط النار . وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب .

قال الألوسى : واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد ، غير بعيد بأن يخلق الله - تعالى - فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .

ولعلمهم - إن أرادوا ذلك - رقفوا على الأعراف ، فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث ... ، (١) .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول : قال تا الله إن كنت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت المحضرين .

وقوله : د تا الله ، قسم فيه معنى التمجيد ، ود إن ، مخففة من الثقيلة . واللام فى قوله : د لتردين ، وهى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة

جواب القمم ، وزدين : أى تملكنى يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه .
وردى فلان - من باب رضى - إذا هلك .

ود المحضرين ، من الإحضار ، يقال : أحضر المجرم ليلقى جزاءه ،
وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع
الأكراه والقسر .

أى : قال الرجل المؤمن لقربه الملقى فى وسط جهنم : وحق الله - تعالى -
لقد كنت أياها القرين أن تملكنى بصدق إيمانى بالبعث والحساب
ولولا نعمة ربى على ، حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى الإيمان . . . لمكنت
اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولسافنى ملائكتك
العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، لحمد الله - تعالى - على
الإيمان والهداية .

وقوله - تعالى - : دأفأ نحن بميتين ، إلا موتنا الأولى وما نحن بمعدين ،
بيان لمسا بقرله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى
من كلامه مع قرينه .

وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .

والاستفهام للتقرير ، والقاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف
عليه محذوف .

والمعنى : نحن مخلدون فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد
موتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يضيعنا شئ من العذاب كما أصاب غيرنا ؟
إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم
الدائم بفضل الله ورحمته .

وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت .

قال القرطبي : دأفأ نحن بميتين إلا موتنا الأولى . . . : هو من

قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت . ويا أهل النار خلود بلا موت . . . (١) .

والإشارة في قوله - تعالى - : إن هذا هو الفوز العظيم ، لما سبق الإخبار به من نفي الموت والعذاب عن أهل الجنة . وهذا القول - أيضا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه في الجنة أى : إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه - يا أهل الجنة - هو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح . ثم يقول لهم - أيضا - : د لمثل هذا فليعمل العاملون ، أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ، والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا غير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على البون الشاسع . بين النعيم المقيم الذى يعيش فيه عباد الله المخلصين . وبين الشقاء الدائم الذى يعيش فيه الكافرون ، فقال - تعالى - :

« أَذَلِكَ خَيْرٌ مُّزَلًّا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَأَلْتَوْنَهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُرْجَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ مَاقَهُ الْمُنْذِرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) » .
واسم الإشارة ، ذلك ، فى قوله - تعالى - : « أَذَلِكَ خَيْرٌ مُّزَلًّا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ » ، يعود إلى النعيم الذى سبق الحديث عنه ، والذى يشمل الرزق المعلوم وما عطف عليه .

والاستغفار للتوبيع والتأنيب . والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام
ومكان ينزل به .

وذلك ، مبتداً ، وخير ، خبره ، ونزلاً : تمييز لخير ، والخيرية بالنسبة
لما اختاره الكفار على غيره . والجملة مقول لقول محذوف .

وشجرة الزقوم هي شجرة لا وجود لها في الدنيا ، وإنما يخلقها الله تعالى
في النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والمقارب . . .

وقيل : هي شجرة سامة متى مسست جسد أحد تورم ومات . وتوجد في
الأراضي المجاورة للصحراء .

والزقوم : من التزقم ، وهو ابتلاع الشيء الكريه ، بمشقة شديدة .
والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم
الذي ينزل به المؤمنون في الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التي يتبلغ بها الكافرون
وهم في النار ، فلا يجدون من ورائها إلا الغم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح
رائحتها وقيتها .

ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا
ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح . واختار الكافرون
ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ،
لسوء اختيارهم .

ثم بين - سبحانه - شيئاً عن هذه الشجرة فقال : إذا جعلناها فتنة للظالمين ،
أي : إذا جعلنا هذه الشجرة محنة وابتلاء وامتحاناً هؤلاء الكافرين الظالمين ،
لأنهم لما أخبرهم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بوجود هذه الشجرة
في النار ، كذبوه واستمروا به لحق عليهم عذاباً بسبب هذا التكذيب والاستمرار .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : إذا جعلناها فتنة للظالمين ، أي :
المشركين . وذلك أنهم قالوا : كيف تكون في النار شجرة ، مع أن النار
تحرق الشمس . ؟

وكان هذا القول جهلا منهم ، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والمقارب ... (١).

ثم بين - سبحانه - أصل هذه الشجرة ومنبتها فقال : د أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، أى : منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم ، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركانها .

ثم بين - سبحانه - ثمرها فقال : د طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، أى : ثمرها الذى يخرج منها ، وحملها الذى يتولد عنها ، فى تنأهى قبحة وكرهية ، رؤوس الشياطين التى هى أقبح ما يتصوره العقل ، وأبغض شئ يرد على الخاطر .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : د شبه حمل شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، للدلالة على تنأهيه فى الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مسكروه مستقبح فى طباع الناس ، لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير . فيقولون فى القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، أو كأنه رأس شيطان ، وإذا صوروه المصورون صورة على أقبح صورة .

كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا أن الصورة الحسنة ، قال الله - تعالى - : د ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم ، . وهذا تشبيه تخيلى .

وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر ... فجاء التشبيه بها ... (٢).

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٨٩ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٤٦ .

وقوله - تعالى - : « فإنهم لا يكون منها فبالثون منها البطون ، تفرع على ما تقدم من كونها فتنة لهم .

أى : هذا هو حال تلك الشجرة ، وهذا هو أصلها وثمرها ، وإن هؤلاء الكفار الذين يستهزئون بمن يحدثهم عنها لا يكون من ثمارها حتى تمتلىء بطونهم ، رغما عنهم ، وإذلالا لهم .

« ثم إن لهم عليها ، أى : ما ياكلونه منها « لشوبا من حميم ، أى : اشرايا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء ، كما قال - تعالى - : « وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم » .

فالشوب : الخلط . يقال : شاب فلان طعامه ، إذا خلطه بغيره .

والحميم : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . فطعامهم - والعياذ بالله - قد اجتمع فيه مرارة الزقوم ، وحرارة الماء ، وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام .

ثم بين - سبحانه - مصيرهم الدائم فقال : « ثم إن مرجعهم إلى الجحيم » أى : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك إلى دركات الجحيم لا إلى غيرها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء فقال - تعالى - : « إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم آثارهم يهرهون » .

وقوله : « ألفوا » من الإلف للشىء بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحده - وله .

وقوله : « يهرعون » من الإهراع بمعنى الإسراع الشديد ، أو الإسراع

الذى نصحبه رعدة وفزع . يقال : هرع وأهرع - بالبناء للجهول فيهما -
إذا استعج وأزعج . وأقل فلان يهرع - بهضم الياء - إذا جاء مسرعاً في غضب
أو ضعف أو خوف .

أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا
آباءهم مقيمين على الضلال ، فافقدوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى
آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى
طريق هلاكة .

فلا يتان الكريمان توبيخ شديد هؤلاء الكافرين ، لأنهم لم يكتشفوا بتقليد
آبائهم في الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك لإسراعاً لا تمهل معه ولا تدبر .

ثم بين - سبحانه - أحوال السابقين عليهم فقال : « ولقد ضل قبلهم
أكثر الأولين » .

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك - أيها الرسول الكريم -
أكثر الأقوام السابقين الذين أرسلنا إليهم لهدايتهم .

وفى التعبير بقوله : « أكثر » ، إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التى اتبعت الحق .

« ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، أى : ولقد أرسلنا في هؤلاء الأقوام السابقين
أنبياء كثيرين يذنبونها ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر
هؤلاء الأقوام لم يستجيبوا للحق .

« فانظر » - أيها الرسول الكريم - كيف كان عاقبة المُنذرين ، أى : فانظر
وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت
عاقبتهم أن دمرناهم تدميراً لا عباد الله المخلصين ، أى : دمرنا هؤلاء الأقوام
إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم

لتثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتسلية عما أصابه من قومه ،
وابتداء تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه
فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
السَّكَرِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) نِمْ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) » .

وقصة نوح - عليه السلام - قد وردت في القرآن الكريم ، في سور
متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ،
وسورة المؤمنون . .

وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التي أنعم بها الله - تعالى - على نبيه
نوح - عليه السلام - حيث أجاب له دعاءه ، ونجّاه وأهله من السَّكَرِ الْعَظِيمِ
وأهلك أعداءه المكذبين . .

واللام في قوله : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ . . . » واقعة في جواب قسم محذوف
والمراد بالدعاء الدعاء الذي تضرع به نوح - عليه السلام - إلى خالقه .
والمختص بالمدح في قوله : « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ، محذوف ، والثناء
فصيححة .

والمعنى : وتا الله لقد تضرع إلينا عبدنا نوح - عليه السلام - وطلب منا
أن ننصره على قومه الكافرين ، فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن
فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان .

أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان النبي - صلى الله عليه وسلم -
إذا صلى في بيتي فربّ هذه الآية ، قال : صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعي ،

وأقرب من بنى - أى طلب لإجابة الدعاء - فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت ، ونعم المسئول أنت ربنا ونعم النصير ، (١) .

والمراد بأهله فى قوله - تعالى - : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، الذين آمنوا معه . »

أى : « ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه - بفضلنا وإجساننا - من الكرب العظيم ، الذى حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين . »

« وجعلنا ذريته هم الباقين ، أى : « وجعلنا ذريته من بعدهم هم الذين بقوا وبقى نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله - تعالى - أهلك جميع الكافرين من قومه أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده . »

قال ابن كثير : « قوله - تعالى - : « وجعلنا ذريته هم الباقين » : قال ابن عباس : لم يبق إلا ذريته نوح . »

وقال قتادة : « الناس كلهم من ذرية نوح . »

وروى الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن سمرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » ، قال : « هم دسام ، وحام ، ويافث . »

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن سمرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم . » (٢) .

« وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ، أى : « وأبقينا عليه فى الأمم التى ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة »

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩ .

ألا وهم قوْلهم : سلام على نوح في العالمين ، أى : نحية وأمان ونناء جميل على نوح في العالمين .

وقوله : د إنا كذلك نجزي المحسنين ، لأنه من عبادنا المؤمنين . . . ، تعليل لما منحه - سبحانه - لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء .

أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذى جازينا به نوحا - عليه السلام - نجازى كل من كان محسنا فى أفعاله وأفعاله ، وإن عبيدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغوا درجة السلام فى إيمانهم وإحسانهم .

قال صاحب الكشاف : قوله : د وتركنا عليه فى الآخرين ، أى من الأمم هذه التكملة ، وهى : د سلام على نوح ، يعنى : يسلمون عليه تسليما ، ويدعون له . فإن قلت : فما معنى قوله : د فى العالمين ، .

قلت : معناه الدعاء بقبوت هذه النحية فيهم جميعا ، وأن لا يظلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلمون عليه من آخرهم .

حلل - سبحانه - مجازاة نوح بتلك التكرمة الصنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ، ليربك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله وفى الازدياد منه ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - القصة بقوله : د ثم أغرقنا الآخرين ، أى : لقد أضفنا إلى تلك النعم التى أعطيناها لنبينا نوح - عليه السلام - أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته .

ونلك سنقنا لا تتخلف ، أننا ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين .

وجاءت بعد قصة نوح - عليه السلام - قصة إبراهيم - عليه السلام - ،

وقد حكى الله تعالى - ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى بعض النعم
التي أنعمها - سبحانه - عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال - تعالى :

« وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)
إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَتُنْفِكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تَعْبُدُونَ (٨٦)
فَاظْنُكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ
أَلَا تَأْتُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْمِيزِ (٩٣)
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْعِفُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ (٩٩)
رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠١) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٢)
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٣) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (١٠٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٥) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٦)
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٧) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٨) كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (١٠٩) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١٠) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا
مِنَ الصَّالِحِينَ (١١١) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وظالمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٢) » .

والضمير في قوله : « وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » ، يعود على نوح - عليه السلام -

وشيعه الرجل: أعوانه وأنصاره وأتباعه . وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعه ، والجمع شيع مثل سدره وسدر .

قال القرطبي: والشيعه: الأهلان وهو مأخوذ من الصياع ، وهو الخطب الصغار الذي يؤخذ مع الكبار حتى يستوقد ... ، (١) .

والمعنى: وإن من شيعه نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه في الدعوة إلى الدين الحق . وفي الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة نبيه وشريعته ... وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره في دعوته التي جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات ، فهي متحدة في الأصول والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما هود وصالح - عليهما السلام - والظرف في قوله تعالى: «إذ جاء ربه بقلب سليم» متعلق بمحذوف تقديره اذكر أي: اذكر- أيها العاقل لاعتبر وتمتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالخسد والفن والخذية والرياء ...

والمراد بمجيئه ربه بقلبه: إخلاص قلبه لدعوة الحق ، وإستعداده لبذل نفسه وكل شيء يملكه في سبيل رضا ربه عز وجل .

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعي الخثيث في كل ما يرضيه قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلت: معناه أنه أخلص به قلبه ، وعرف ذلك منه ، فحضر به المجيء مثلاً لذلك .» (٢) .

وقوله: «إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، شروع في حكايته ما دار

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٨ .

بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هي ظرف لقوله د سليم ، أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقي السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شئ هذا الذي تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : : أنفكا آلهة دون الله تريدون ، ؟ والإفك : أسوأ الكذب . يقال أفك فلان يافك إفكا فهو أفوك ... إذا اشتد به . وهو مفعول به لقوله ، تريدون ، وقوله ، آلهة ، بدل منه . وجعلت الآلهة نفس الإفك على صيبل المبالغة .

أى : تريدون إفكا آلهة دون الله ؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم .

ثم حذرهم من السير في طريق الشرك فقال : : فما ظنكم برب العالمين ، . والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا في عبادتهم لغيره - تعالى - .

أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره ؟ لأنه لا شك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة ، وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

قال الألوسي : : قوله : : فما ظنكم برب العالمين ، أى : أى شئ ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لمكرنه ربا للعالمين ؟ أشكركم فيه حتى تركتم عبادته - سبحانه - بالكلية ، أو أعلمتم أى شئ هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه . أو أى شئ ظنكم بمقابله - عز وجل - حتى اجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه (١)

وعلى أية حال فالآية تدل دلالة واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادة غير الله - تعالى - ، وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل .

ويحمل القرآن الكريم هنا ردم عليه لتفاهته . وانتقل السورة الإشارة إلى ما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فنقول : فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم ، فتولوا عنه مدبرين

قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب . ويعتقدون تأثيرها في العالم . . . وتصادف أن حل أران عيد لهم . فدعوه إلى الخروج معهم كما هي عادتهم في ذلك العيد . . .

فتطلع إلى السماء ، وقلب نظره في نجومها ، ثم قال لهم معذرا عن الخروج معهم - ليخلو بالأصنام فيحطمها - : إني سقيم ، أي مريض مرضا يمنعني من مصاحبتكم ، فتولوا عنه مدبرين ، أي : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدهم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : ولما قال إبراهيم لقومه ذلك ، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أذف خروجهم إلى عيدهم ، فأحب أن يحتل بأهلتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين .

قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر في أمر : نظر في النجوم ، يعني قتادة : أنه نظر في السماء متفكرا فيما يليهم به فقال : إني سقيم ، أي : ضعيف . .

وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله ، قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله في سارة : هي أختي . .

ليس المراد بالكذب هنا الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا

ولإنما أطلق المكذب على هذا تجوز ، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء في الحديث : إن من المعارض لمتدوحة من المكذب ... وقيل : قوله : لى سقيم ، أى : بالنسبة لما يستقبل . يعنى مرض الموت . وقيل : أراد بقوله : لى سقيم ، أى : مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله - تعالى - . . . (١) .

ويبدو لنا أى نظر إبراهيم - عليه السلام - في النجوم ، وإنما هو نظر المؤمن المتأمل في ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم - وهم قوم يعظمون النجوم - ليقتنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريد من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : لى سقيم ، المقصود منه : لى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويرعجه ويسقمه ما أنتم فيه من هكوف على عبادة الأصنام ...

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام .

فكلام إبراهيم حق في نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون ...

ثم حكى - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، .

وأصل الروغ : الميل إلى الشيء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو فلان . إذا مال إليه لأمير يريده منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعاً إلى الأصنام بعد أن تركها للقوم وانصرفوا

إلى عيديم ، فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين
تلك الأطعمة التي قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك ؟ .

وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : « ألا تأكلين » ، لأن قومه أنزلوها
تلك المنزلة .

وقوله : « ما لكم لا تنطقون » زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، وفي إظهار
الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذي كان من آثاره ما بينه القرآن في قوله : « فراغ عليهم
ضربا باليمين ، أي : فمال عليهم ضاربا لإيهاهم بيده اليمنى ، حتى حطمهم .
كما قال - تعالى - في آية أخرى : « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه
يرجعون » .

وقال - سبحانه - : « ضربا باليمين » للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام -
لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل في تحطيمها أقوى جراحة بملسها
وهي يده اليمنى . وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التي حلفها حين قال :
« وفاقه لا يكذب أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى
قلبه من الهم والضيق الذي كان يجده حين رؤيتها ...

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن
هنا ما قالوه لإبراهيم عند ما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ،
مكتفيا بإبراز حالهم فيقول : « فاقبلوا إليه يزفون » .

أي : نحن رأوا آلهتهم بهذه الصورة ، أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطاء
ولهم جلبية وضوء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم ...

يقال : زف النعام يزف زفا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكانه يطير .
ولم يأت إبراهيم - عليه السلام - لهماج قومه ، ولما أقبلوا نحوه بسرعة

وغضب ، بل رد عليهم ردا منطلقا سليما ، فقال لهم : « أتعبدون ما تنحتون ، و الله خلقكم وما تعملون . »

أى : قال لهم موجعا ومؤثرا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتبرونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، وتتركون عبادة الله - تعالى - الذى خلقكم وخلق الذى تعملونه من الأصنام وغيرها .

قال القرطبي ما ملخصه : « قوله - تعالى - : « و الله خلقكم وما تعملون ، « ما » فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها ... »

وقيل إن « ما » استفهام ، ومعناه : التحقير لعمليهم . وقيل : هى نفي . أى : أنتم لا تعملون ذلك لكن الله خالفه والاحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا . والتقدير : و الله خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة ، أن الأفعال خلق الله - عز وجل - واكتساب للعباد .

وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله خالق كل صانع وصنعه ، » (١) .

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ، لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه - سبحانه - فى قوله : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، أى قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ، ثم املئوه بالنار المشتعلة ، ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلك . »

فالمراد بالجحيم : النار الشديدة التاجج . وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم . وهذا اللفظ مأخوذ من الحجمة - وهى شدة التاجج والانتقاد - يقال : جهم فلان النار - كنع - إذا أوقدها وأشعلها ، واللام فيه عرض عن المضاف إليه . أى : ألقوه فى جحيم ذلك البنيان الملىء بالنار .

وبنوا البنيان ، وأخضروه بالنار ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فإذا كانت النتيجة ؟ .

كانت كما قال - سبحانه - بعد ذلك : « فأرادوا به كيدا ، أى : شرا وهلاكاً عن طريق إحراقه بالنار ، فجعلناهم ، بقدرتنا التى لا يعجزها شيء ، الأسفلين ، أى : الأذلين المقهورين ، حيث أبطلنا كيدهم ، وحولنا النار إلى برد وسلام على عبداً لإبراهيم - عليه السلام - . »

وهكذا رعاية الله - تعالى - تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على القوم الكافرين .

ثم نسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانباً آخر من قصة إبراهيم - عليه السلام - هذا الجانب يتمثل فى هجرته من أجل نشر دعوة الحق ، وفى تضرعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فتقول : « وقال إني ذاهب إلى ربى سيدي ، رب هب لى من الصالحين . . . » .

أى : قال إبراهيم بعد أن نجاه الله - تعالى - من كيد أعدائه « إني ذاهب إلى ربى ، أى : إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل - سبحانه - بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى . »

قال القرطبى : « هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار قال : « إني ذاهب إلى ربى ، أى : مهاجر من بلد قوسى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه سيدين ، فيما نويت إلى الصواب . »

قال مقاتل : « هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة ، إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام . . . » (٢) .

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٩٦ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٩٧ .

والسين في قوله : سيهدين ، لتأكيد وقوع الهداية في المستقبل ، بناء على شدة توكده ، وعظيم أمله في تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته - سبحانه - .

ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير في هداية الله - تعالى - له ، أملاً آخر وهو منحه الذرية الصالحة ، فقال : رب هب لي من الصالحين .

أى : وأمدك ياربى بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لي ولدا هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك في قوله : فبشرناه بغلام حليم .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه ، فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق .

قال صاحب الكشف : « وقد انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر . وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً ، (١) .

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به . المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء في قوله - تعالى - : فلما بلغ معه السعى . . . ، فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام فى كنف أبيه فلما بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه .

قيل : كانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة .

« قال يابنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . »

أى : فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن ، قال الأب لابنه : يا بنى لئن رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك .

قال الألوسى ما ملخصه : ويحتمل أنه - عليه السلام - رأى فى منامه أنه فعل ذلك ... ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك ، لكنه لم يذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة ، رأيت فى المنام أنى فاج من هذه المحنة ...

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى البقعة ... وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التزوية فأخذ يفكر فى أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى بيوم النحر .

ولعل السر فى كونه مناماً لا بقطة ، أن تكون المبادرة إلى الإمتثال ، أدل على كمال الإنقياد والإخلاص ... (١) .

ولما شاوره بقوله : فانظر ماذا ترى ، مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه سواء رضى لإسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة لإعلام له بما رآه ، لئكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : قال أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، حكاية لما رد به لإسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على كعبة فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الإستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ، ولا تتردد فى ذلك ، وستجدنى - إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

وفي هذا الرد ماله من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به - سبحانه - في أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليه السلام - يلهمهم الله - تعالى - في جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم في أعلى درجات سمو النفس ، واليقين القلبي ، والكمال الخلقى .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الإبن وأبيه فقال : ولما أسلمنا وتله للجبين ، وأسلمنا : بمعنى استسلمنا وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .

وقوله : وتله ، أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرى على التل وهو الرمل السكتيف المرتفع ، ثم عمم في كل رى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين : أحد جانبي الجبهة ، والوجه جبينان ، والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والإبن لأمر الله - تعالى - ، وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه ... كان ما كان منا من رحمة بهما ، ومن كرم لهما ، ومن إعلاء لقدرهما ...

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلمنا وتله للجبين » وناديتاه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، ومحمدهما الله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما اكتسبنا في تضاعيفه من الثواب ؛ ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب ... » (١) .

وقد ذكروا هنا آثارا منها أن إسماعيل - عليه السلام - لما هم أبوه يذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا يتناثر عليها شيء من دمي فتراه أُمى فتحزن ، وأسرع من السكين على حلقي ليسكون أهون للدوت هلى ، فإذا أتيت أُمى فاقرا عليها السلام منى ... وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « وناديناه أن إبراهيم ، وقد صدقت الرؤيا ... » أى : وعندما صرع إبراهيم لابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا ... نادينا إبراهيم بقولنا : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك ...

قال الجمل : « فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا ، وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كانت تصديقها إلا لو حصل منه الذبح ؟

قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادهما لأمر الله ، (٢) .

وجملة : « إنا كذلك نجزي المحسنين » تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازي المحسنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

واسم الإشارة فى قوله : « إن هذا هو البلاء المبين » يعود إلى ما بتلى الله - تعالى - به نبيه إبراهيم وإسماعيل ...

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٤٨ .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، هو البلاء الواضح ، والإختبار الظاهر ، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السائمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : « وفديناه بذبح عظيم ، والذبح بمعنى المذبوح ، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ، كالمطحن بمعنى المطحون .

أى : وفدينا لإسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم في هيئته ، وفي قدره ، لأنه من عندنا . وليس من عند غيرنا . . .

قيل : إفتداه الله - تعالى - بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر .
« وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين .
إنه من عبادنا المؤمنين » .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبيينا إبراهيم ، أننا أبقينا ذكره الحسن في الأمم التي ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا الجزاء نجزي المحسنين ، لأنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين في إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - مظهر آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما بحسن وظالم لنفسه مبين » .

أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحل رسالتنا . وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا هداً كبيراً من الأنبياء من نسلها .

ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن في قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي ظالما واضحا بينا ، وسنجازي كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

هذا ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد في أصوله ، وأن كل واحد منهم قد سار على نهج سابق في الدعوة إلى واحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقد بين - سبحانه - في مطلع هذه القصة ، أن إبراهيم كان من شيعة نوح - عليهما السلام - أي : من أتباعه الذين ساروا على سنته في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده .

وقد أمر - عز وجل - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : **« أولئك الذين هدى الله فبهم أقتد ... »**

٢ - أن تعاطى الخيل الشرعية من أجل إزالة المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه السلام - لكي يقضى على الأصنام ، اعتذر لقومه عن الخروج معهم في يوم عيدهم ، وقال لهم : **« إني سقيم - بعد أن نظر في النجوم - »**

وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يحتل بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه أنها لا تصلح للألوهية ...

٣ - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى - بفضله وكرمه - عبادة المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء ... ونرى ذلك جليا في هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون لإبراهيم السكيد والإهلاك ، فأنجاه الله - تعالى - من مكرم ، كما قال - تعالى - : **« فإرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين »** .

٤ - أن على المؤمنين إذا لم يتمكنوا من نشر دعوة الحق في مكان معين ، أن ينتقل منه إلى مكان آخر متى كان قادرا على ذلك .

وهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فقد قال لقومه بعد أن يقس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : « أتى ذاهب إلى ربي سيهدين » .

« أن الدعاء مصدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى ... كان جديرا بالإجابة .

فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاه

كما حكى - سبحانه - ذلك في قوله : « رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بئلام حليم » .

ثم قال - سبحانه - بعد ذلك : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » .

٦ - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد ضربا أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وفي الاستسلام لأمر الله - تعالى - في الرضا بقضائه .

فكافأهما - عز وجل - على ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم .

قال - تعالى - : « وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين » .

سلاماً على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين » .

٧ - أن الذبيح الذي ورد ذكره في هذه القصة ، والذي اقتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهور العلماء ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتي :

(٦) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : « رب هب لي من

الصالحين ، فبشره - سبحانه - بغلام حلیم ، وهذا الغلام عند ما بلغ السن التي يمكنه معها مساعدة أبيه في أعماله .

قال له أبوه : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . . . ثم افتدى الله - تعالى - هذا الغلام بذبح عظيم .

ثم قال - تعالى - بعد كل ذلك : وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ، وهذا يدل على أن المبعثر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبعثر به الثاني وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلا في سورة هود ، وظروف هذه البشارة وملاساتها ، تختلف عن الظروف والملاسات التي وردت هنا في سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطي فقال :

وتأمل القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة في قوله - تعالى - : رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حلیم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . . .

فهذه الآية قاطعة في أن المبعثر به هو الذبيح .

ومرة في قوله - في سورة هود - : و امرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق . . .

فقد صرح فيها بأن المبعثر به إسحاق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ ، وكان ذلك في بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة لإيابه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم في آخر عمره .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله . فعلينا بذلك أنهما بشارتان في وقتين بفلايين ، أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقلعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح ، (١) .

٣ - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها .

ثم قال الإمام ابن القيم : « سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: هذا القول إنما هو ملتقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفي لفظ « وحيد » ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم ، (٢) . ومن العلماء الذين فعلوا القول في هذه المسألة ، الإمام ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : « وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك من طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة - أيضا - . وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » .

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : « إنا نبشرك بغلام عليم » وقال - تعالى - : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » أي : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته يعقوب ونسل .

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٥٧ .

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٥٣ .

وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل . فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ، وإسماعيل وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام ، (١) .

قال الألوسي - رحمه الله - بعد أن ساق أقوال العلماء في ذلك بالتفصيل : « والذبي أميل إليه أنه - أي الذبيح - إسماعيل - عليه السلام - ، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه ، وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتبع صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب ، (٢) . »

هذه بعض الأحكام والآداب التي يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التي أحكاها - سبحانه - عن نبيه إبراهيم - عليه السلام - في هذه السورة الكريمة وهناك أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر في هذه الآيات الكريمة .

• • •

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - ومما من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

« ولقد منّا على موسى وهارون (١١٣) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٤) ونصرناهم فكانوا من الغالبين (١١٥) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٦) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٧) وتركنا عليهما في الآخرين (١١٨) سلامٌ على موسى وهارون (١١٨) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢٠) إنا من عبادنا المؤمنين (١٢١) » .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٣ .

(٢) راجع تفسير الألوسي ٢٣ ص ١٣٦ .

وموسى : هو ابن عمران بن يصر بن ماهيم بن لاوى بن يعقوب بن
إسحاق ، وكانت ولادته فى حوالى القرن الثالث عشر ، ق م .

وهارون : أخو موسى ، قيل كان شقيقا له ، وقيل كان أخا له لأن ..
والمعنى : لقد أنعمنا على موسى - وهارون - عليهما السلام بنعمة النبوة ،
وبغيرها من النعم الأخرى .

والذى من بينها أننا نجيئناهما وقرمهما المؤمنين ، من استعياذ فرعون لإياهم ،
ومن ظلمه لهم .

« ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، أى ونصرنا موسى وهارون ومن آمن
بهما ، فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ،
بعد أن كانوا تحت أمرهم وقهرهم ... »

« وآتيناهما ، بعد ذلك ، الكتاب المبين ، أى : الكتاب المبين
الواضح وهو التوراة .

يقال : استبان الشيء ، إذا ظهر ووضح وضوحا تاما .

« وهديناهما لصراط المستقيم ، أى : وهديناهما وأرشدناهما - بفضلنا
وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه .

« وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون ، أى : وأبقينا
عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

« وإنا كذلك نجزي المحسنين ، أى : مثل هذا التكريم نجازى عبادنا
المحسنين ، لإنهما من عبادنا المؤمنين ، أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى
طاعتهم لنا .

• • •

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة إيلياس - عليه السلام - وهو أيضا من
ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

« وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٢) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٣) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٤) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٥) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٦) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٧) وَتَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٨) سَلَامٌ عَلَى إِلَ يَاسِينَ (١٢٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣١) » .

وإلياس - عليه السلام - هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون - عليه السلام - ، فهو ينتهى نسبه - أيضا - إلى إبراهيم وإسحاق .
ويعرف إلياس فى كتب الإسرائيليين باسم « إيليا ، وقد أرسله الله - تعالى - إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت فى عهد « آخاب ، أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق م .

والمعنى : « وإن إلياس لمن المرسلين ، الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقوله : « إذ قال لقومه أَلَا تَتَّقُونَ ، شروع فى بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف . والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه أَلَا تَتَّقُونَ الله ، وتخشون عذابه ونقمته . والاستفهام للحض على تقوى الله - تعالى - واجتناب ما يفضبه .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره - سبحانه - فقال : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، » .

والبعل : اسم الصنم الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل سميت باسمه مدينة بملك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة العين .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والجزر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلفكم ورزقكم ...

ولفظ الجلالة فى قوله : « الله ربكم ورب آبائكم الاولين » بدل من « أحسن الخالقين » .

أى : أتعبدون صنما صنعتوه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الاولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة « الله » - بالرفع - على أنه مبتدأ ، و « ربكم » خبره .

والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لأبائهم الاولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم ، بل - أيضاً - رب آبائكم الاولين ، الذين عن طريقهم أنتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - « فكذبوه » فإنهم لمحضرون ، بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراسهم عن دعوته .

أى : دغا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده . فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيرتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضاراً فيه ذلهم وهوانهم .

« إلا عباد الله المخلصين » ، فإنهم ناجون من هذا الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكميمنا وإحساننا .

« وتركنا عليه فى الآخرين » ، أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الآخرين « سلام على إلياسين » ، أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

« إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ، .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة لوط مع قومه ، فقال - تعالى - :

« وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٢) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمِينَ (١٣٣) إِلَّا عَجُوزَ آفِي الْغَابِرِينَ (١٣٤) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٥) وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٦) وَبِاللَّيْلِ أَفْلَا تَمَعِلُونَ (١٣٧) . »

ولوط - عليه السلام - هو ابن أخ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما في قوله - تعالى : « فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي . . . » .

وقد أرسل الله - تعالى - لوطاً إلى قرية سدوم - من قرى الشام - وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين - .
أى : « إن لوطاً ، - عليه السلام - « لمن المرسلين ، الذين أرسلناهم هداةً للناس ، إذ نجيناهم وأهلهم أجمعين ، أى : اذكر - أيها العاقل - وقت أن نجيناهم وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا .

« إلا عَجُوزاً في الغابرين ، والمراد بالعجوز : امرأته التي بقيت على كفرها وكانت تغشى أسرار زوجها .

أى : نجينا لوطاً والمؤمنين معه من أهله ، إلا عَجُوزاً بقيت في العذاب مع القوم الغابرين أى : مع الباقين في العذاب .

ثم دمرنا الآخرين ، أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقى على كفره من أهل لوط ، كما مر أنه التي أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين .

ثم وجهه - سبحانه - الخطاب لمشركي قريش فقال: « وإنكم تمرون عليهم مصحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟ »

أى : وإنكم يا أهل مكة تمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الصباح ، وتارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار .

وقوله « أفلا تعقلون » معطوف على مقدر . أى : أنشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحض على الاعتبار بأحوال الماضين ..

* * *

ثم ختم - سبحانه - هذه القصص ، بذكر جانب من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

« وَإِنْ يُونُسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٨) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٣٩) فَسَامَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤٠) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤١) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٢) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٣) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٤) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٥) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٦) فَآمَنُوا فَنَعَّمْنَا إِلَى حِينٍ (١٤٧) » .

ويونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال « ما ينبغي لعبدا أن يقول : أنا خير من يونس بن متى . . . » .

وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفي حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فاستمعوا عليه ، ففشا بينهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة

أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استعجى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا . ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشتوما ، فافقروا ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقي بنفسه في البحر ، فالتقمه الحوت ... ، (١) .

والمعنى : وإن يونس - عليه السلام - لمن المرسلين ، الذين اصطفييناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

« إذا أبق ، أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه . يقال : أبق العبد - كضرب ومنع - إذا هرب من سيده فهو أبق .

« إلى الفلك المشحون ، أى : هرب من قومه إلى الفلك المليء بالناس والأمتعة ، فسام ، أى : فقارع من في السفينة بالسهام ، يقال استهم القوم إذا اقترعوا فكان من المدحضين . »

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواه . يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

« فالتقمه الحوت وهو ملیم ، أى : بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقي بنفسه في البحر ، « فالتقمه الحوت ، أى : ابتلعه بسرعة ، يقال : لقم فلان الطعام - كسمع - والتقمه . إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقمه إذا ابتلعه على مهل :

وجملة " وهو ملهم ، حالية في محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال مايلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .

يقال : رجل ملهم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال مايلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألأم الرجل ، إذا أتى مايلام عليه ...

" فلو لا أنه كان من المسيحين . للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ، أى : فلو لا أن يونس - عليه السلام - كان من المسيحين لله - تعالى - المداومين على ذكره . لولا هذا التسبيح للبت يونس في بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فها تان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله - تعالى - وتسميحه .. سبب في تفريج الكرب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفي الحديث الشريف : " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال : " أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسيحين ، وأن تسميحه كان سبب نجاته . ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفعه صاحبه إذا عثر ...

وفي الحديث الشريف : " من استطاع منك أن تكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل ، فليجتهد العبد ، ويمرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاتته وفقره ، ويستترها عن خلق الله ، لكي يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه ... " (١) .

" فبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبد : الطرح . والعراء : الخلاء ..

أى : أن يونس - عليه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ في الإكثار من تسميحه ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاه ، وأمرنا الحوت بطرحه في الفضاء الواسع من الأرض .

وجملة وهو سقيم ، حالية . أى : ألقيناه بالأرض الفطاء حالة كونه
 عليلاً سقيماً ، لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .
 « وأنبأنا عليه شجرة من يقطين ، أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا
 فوقه شجرة من يقطين لكي تظل عليه ، وتمنع عنه الحر .
 واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقشاش
 والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .
 وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .
 « وأرسلنا إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا ففتحناهم إلى حين ، أى :
 وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورغيناه برعايتنا ،
 أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم ،
 فآمنوا جميعاً ، ففتحناهم ، بالحياة ، إلى حين ، انتهاء آجالهم .
 قال الإمام ابن كثير : « ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً ،
 أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به .
 وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا
 مائة ألف أو يزيدون ، (١) . »

هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله - تعالى - قريب
 من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة تصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل
 فيه التوبة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وفرج عنه كربته ، وأن التسبب يكون
 سبباً فى رفع البلاء

• • •

وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أسأل الله - تعالى - رسوله
 - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ وتأنيب ،

عما قالوه في شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم رداً يحفرس أنفسهم فقال - تعالى - :

« فاستفتهم الربُّكَ البناتُ ولهم البنون (١٤٨) أم خلقنا الملائكة إنا نأثم وهم شاهدونَ (١٤٩) ألا إنهم من إفسكهم ليقولونَ (١٥٠) وله الله وإنهم لكاذبونَ (١٥١) اصطفى البناتِ عَلَى البنينَ (١٥٢) ما لكم كيف تحكمونَ (١٥٣) أفلا تذكرونَ (١٥٤) أم لكم سلطانٌ مبينٌ (١٥٥) فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقينَ (١٥٦) وجعلوا بينه وبين الجنةِ نسباً ، ولقد علمت الجنةُ إنهم لمحضرونَ (١٥٧) سبحان الله ما يصفونَ (١٥٨) إلا عبادُ الله المخلصينَ (١٥٩) فإنكم وما تعبدونَ (١٦٠) ما أنتم عليه بفاتنينَ (١٦١) إلا من صالَ الجحيمَ (١٦٢) وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلومٌ (١٦٣) وإنا لنحنُ الصافونَ (١٦٤) وإنا لنحنُ المسبحونَ (١٦٥) وإن كانوا ليقولونَ (١٦٦) لو أن عندنا ذِكْرٌ من الأولينَ (١٦٧) لكنا عبادَ الله المخلصينَ (١٦٨) فكفروا به فسوف يعلمونَ (١٦٩) . »

وقوله - تعالى - : « فاستفتهم ... » معطوف على قوله - تعالى - : « في أوائل السورة » : « فاستفتهم أم أشد خلقاً أم من خلقنا .. » عطوف جملة على جملة . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستفتاء : الاستخبار والاستفهام وطلب الفتيا من المفتي .

أى : أسأل - أيها الرسول - هؤلاء المشركين سؤال تقرير وتأييد : « الربُّكَ البنات ولهم البنون ، أى : أسألكم بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم البنين ؟ إن قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة

وقاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق في أى عقل أن يجعلوا لله - تعالى - الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم الجنس الأعلى .
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . .

قال صاحب الكشف : قوله : فاستفتهم . . ، معطوف على مثله في أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة ، أمرهم - وله - صلى الله عليه وسلم - باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا : ثم ساق الكلام موصولا بهضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها ، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم الشديدة لهن . . .

ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر : أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .

والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جعلوا له أوضاع الجنسين له ، وأرفعهما لهم . . .

والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم . ولو قيل لأقلهم وأدنام : فيك أنثوة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النور ، ولا تقلبت حمايقه - أى : أجفان عينيه . . . ، (١) .

وقوله - سبحانه - : : د أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، تفريع آخر لهم على جهالاتهم وسفهمهم ، حيث أضرب - سبحانه - عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه فى التبكيت والتأنيب .

أى : إنهم زعموا أن لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث ؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يعرفون بما لا يعرفون .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشمدا واطغمرهم » - ستة - كتب شهادتهم ويسألون ، (١) .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم قال : « وهم شاهدون شخص علم المشاهدة ؟

قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم وتجهيل ... وذلك لأنهم كالم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر ... ، (٢) .

ثم أخبر - سبحانه - عن كذبهم فقال : « ألا إنهم من إفسكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون ، والإفك : أشنع الكذب وأقبحه . يقال : أفك فلان كضرب وعلم - إفسكا وإفسكا ، إذا كذب كذبا فاحشا .

أي : ألا إن هؤلاء الكافرين . من شدة كذبهم ، وشناعة جهلهم ليقولون زورا وبهتانا : « ولد الله ، أي : اتخذ الله ولدا » وإنهم لكاذبون ، في ذلك كذبا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، .

وافتنحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » ، لتأكيد قولهم ، وأنهم كانوا مصرين على هذا القول الذي لانهاية لبطلانه .

ثم كرر - سبحانه - توبيخهم وتقريعهم فقال : « اصطفى البنات على البنين ، والاصطفاء : الاختيار والانتقاء . والاستفهام الإنكار والنفي ، أي : هل اختار الله البنات على البنين في زعمهم ؟ كلا إن الله - تعالى - لم : يفعل شيئا من ذلك لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٦٣ .

« مالكم كيف تحكمون ، أى : أى شيء حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل ... »

وقوله : « أفلا تدكرون ، معطوف على كلام محذوف والتقدير : أنتم هؤلاء هذه الأمور الواضحة ، فلا تعقلون ولا تدكرون ولا تعتبرون ... »

وقوله - تعالى - : « أم لكم ساطان مبين فأنوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم ، إلى تحذيرهم وإثبات كذبهم . »

أى : بل ألكم حجة واضحة على صحة هذا القول الذى قلتموه من أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت عندكم هذه الحجة فأنوا بها إن كنتم صادقين فيما زعمتم .

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تعجيزهم وإثبات المزيد من جهالاتهم وأكاذيبهم ...

ثم حكى - سبحانه - زعما آخر من مزاعمهم فى شأن الملائكة فقال : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ... » ،

والمراد بالجنة هنا : الملائكة . سمع بذلك لاجتنانهم واستقارهم عن الآعين

أى : أن المشركين لم يكتفوا بما قالوا فى الآيات السابقة ، بل أضافوا إلى ذلك جريمة أخرى ، وهى أنهم جعلوا بين الله - تعالى - وبين الملائكة نسبا ولقد علمت الجنة - أى الملائكة - ، أنهم ، أى القائلون لهذه المقالة الباطلة لمحضرون ، أى : إلى العذاب يوم القيامة - لينذروا سوء عاقبه كذبهم .

قال القرطبي : أكثر أهل التفسير أن الجنة هاهنا الملائكة . عن مجاهد قال : قالوا - يعنى كهار قريش - الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر :

فن أمهاتهم ؟ قالوا : عذرات الجن ... ومعنى : نسباً ، : مصاهرة . وقال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكأن الملائكة من بينهم ... وقال الحسن : : أشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهو النسب الذي جعلوه ... (١) .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عما افتروه فقال : : سبحانه الله عما يصفون ، أى : نزه الله - تعالى - وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون . وقوله : : إلا عباد الله المخلصين ، استثناء - منقطوع من قوله : لمحضرون ، وما بينهما جملة معترضة لتزيه الله - تعالى - وتقدسه .

أى : والله لقد علمت الملائكة أن المشركين القائلين بهذا القول الفاسد لمحضرون إلى النار ، ويدعون إليها دعا ، لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ليسوا كذلك ، بل هم ناجون من عذاب جهنم ، لتزيتهم الخالق - عز وجل - عما لا يليق به .

ثم حقر - سبحانه - من شأن المشركين . ومن شأن آلهم المزعومة فقال : : فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفائنين . إلا مذهب الجحيم . وهذا الكلام يجوز أن يكون حكاية لما رده الملائكة على المشركين الذين قالوا الإفك والزور قبل ذلك ، ويجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً من الله - تعالى - على سبيل الاستخفاف والتهكم وآلهم .

والفاء في قوله : فإنكم ، واقعة في جواب شرط مقدر . ود الواو ، في قوله : وما تعبدون ، للتطف على اسم إن ، أو بمعنى مع . ود ما ، موصولة أو مصدرية . ود ما ، في قوله : : ما أنتم عليه بفائنين ، نافية . والضمير في : عليه ، يعود على الله - عز وجل - . والجار والمجرور متعلق : بفائنين ، والمراد

بافتن هنا : الإفساد ، من قولهم : فلان فتن على فلان خادمه ، إذا أفسده .
وجملة « ما أنتم عليه بفاتنين » خبر إن .

و « ذال » - بكسر اللام - اسم فاعل منقوص - كقاض - مضاف إلى
ما بعده . وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .

والمعنى : إذا أدركتم - أيها المشركون - ما قلناه لكم . فنفقوا أنكم أنتم
وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله - تعالى - لمكنكم تستطيعون
أن تضلوا من كان من أهل الجحيم مثلكم .

فالْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ ، الِاسْتِخْفَافُ بِالْمُشْرِكِينَ وَبِآلِهَتِهِمْ ، وَبَيَانُ
أَن مَنِ هَدَاهُ اللَّهُ ، تَعَالَى - لَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي إِغْوَائِهِ أَوْ إِضْلَالِهِ .

قال صاحب الكشف : والضمير في « عليه » لله - تعالى - . ومعناه : فإنكم
ومعبودكم ما أنتم وم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق في
هله أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .

فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم
واستهزائهم .

من قولك : فتن فلان على فلان أمرأته ، كما تقول : أفسدها وخيبها
عليه ... (١) .

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله - تعالى -
وبمداومتهم على عبادته وتسبيحه فقال : « وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن
الصافون . وإنا لنحن المسيحون » .

أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة لله - تعالى - وقالوا : وما منا
أحد إلا له مقام معلوم في عبادة الله - تعالى - وطاعته ، وإنا لنحن الصافون

أنفسنا في مواقف العبودية والطاعة لله - عز وجل - ، ولأننا لنحن المسبوعون والمزدهون له - تعالى - عن كل ما لا يليق به .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه : أحلت السماء وحق لها أن تظل - أى سمع لها صوت شديد - ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راع أو ساجد ثم قرأ : ولأننا نحن الصافون : ولأننا نحن المسبوعون ، (١) .

ثم أخبر - سبحانه - عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : وإن كانوا يقولون : لو أن عندنا ذكر من الأولين لكنا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون .

وإن ، في قوله ، وإن كانوا ، هي الخففة من الثقل ، واسمها ضمير محذوف .

والقائلون هم كفار مكة والفاء في قوله ، فكفروا به ، هي الفصيحة الدالة على محذوف مقدر .

والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم ، أنهم كانوا يقولون قبل مجيئ الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإيهم : لو أن عندنا ذكر من الأولين ، أى : لو أن عندنا كتاباً من كتب الأولين كالطوراة والإنجيل ، لكنا عباد الله المخلصين ، أى : لكنا بسبب وجود هذا الكتاب ، من عباد الله الذين يخلصون له العبادة والطاعة .

لجاءم محمد - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب المبين كما تمنوا وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ، فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر ، يوم يفهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٨ .

(٢) سورة النجى الآية ٥٥ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره ، وبمساعدة النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧٠) إِنَّهَا لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ (١٧١) وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ لَغَالِبُونَ (١٧٢) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٣) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٤) أَقْبِعْ عَذَابَنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٥) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٦) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٧) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٨) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٧٩) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨٠) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨١) » .

والمراد « بكلمتنا ، في قوله تعالى - : « ولقد سبقت كلمتنا ... » ، ما وعد الله - تعالى - بمرسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » (١) وقوله - سبحانه - « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ قَوِيَّ عَزِيزٌ » (٢) .

أى : واقع لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز ، لأنهم لهم المنصورون . .

على أعدائهم ، وإن جندنا لهم الغالبون ، لمن عاداهم وناوَاهم . وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم في بعض المواطن - كيوم أحد مثلاً - ، لأن هذه الهزيمة إنما هي لكون من الابتلاء الذي اقتضاه حكمة الله - تعالى - ليميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر في النهاية

وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، بعد أن جاهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكافرين ، ولم يفارق الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن المشركين ، وباصبر على أذاهم ، إلى الوقت الذي يأذن الله لك فيه بقتالهم فقال : فتول عنهم حتى حين ، أى : فأعرض عنهم إلى الوقت الذي يأذن الله لك فيه بقتالهم ، وأبصرهم فسوف يبصرون ، أى : وانظر لأبيهم وراقبهم عند ما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون ثم ذلك في دنياهم وفي آخرتهم .
والأمر بمشاهدة ذلك : لإشعار بأن نصره - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، أت لا ريب فيه حتى لا يكأنه واقع بين يديه ، ومشاهد أمامه .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « أفعدابنا يستعجلون ، للتوبيخ والتأنيب .
أى أبلغ الجمل وانفطاس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا .
عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم - : يا محمد أرنا العذاب الذى نخوفنا به فنزلت هذه الآية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند ما ينزل بهم هذا العذاب الذى استعجلوا نزوله فقال : فإذا نزل بساحتهم فساء صباحا المنذرين ،
والساحة فى الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكتفون فيها والمختص بالذم محذوف .

أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين . فبئس الصباح صباحهم : ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة ، وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه فى الغالب .

أخرج الشيخان عن أنس - رضى الله عنه - قال : صبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خبير ، فلما خرجوا بقتوسهم وساحيتهم ورأوا الجيش ، رجعوا

يقولون : محمد والله ، محمد الخسيس - أى : والجيش - فقال - صلى الله عليه وسلم :
الله أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . ٩٠٠٠ .
ثم كرر - سبحانه - تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتدرون
فقال : د وتول عنهم حتى حين : وأبصر فسوف يبصرون ، أى : وأهمل
عنهم حتى حين ، وأبصر ما توعدناهم به من عذاب أليم ، فسوف
يبصرون هم ذلك .

د سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ، أى تنزه وتقدس ربك - أيها
الرسول الكريم - عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته ،
وقوله د رب العزة ، بدل من د ربك ، أى : أى هو صاحب العزة والغلبة
والقوة التى لا يقف أمام قوتها شيء . والتى لا يملكها أحد سواه .

د وسلام على المرسلين ، أى : وسلام وأمان وتحية منا على المرسلين
د والحمد لله رب العالمين ، أى : والثناء الكامل لله - تعالى - رب العالمين جميعا
وخالقهم ورازقهم ، ومحبيهم ومبغضهم ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة الصافات . نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ،
ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

كتبه الراجى عفو ربه

الاربعا : ٢٠ من ذى القعدة ١٤٠٥ هـ

محمد سيد طنطاوى

١٩٨٤/٨/٧ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الصافات»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	
١	والصافات صفا ...	٧٧
٦	إننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ...	٨١
١١	فاستقمهم أم أشد خلقا ...	٨٥
٢٢	احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ...	٨٨
٤٠	إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم ...	٩٤
٥٠	فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ...	١٠١
٦٣	أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ...	١٠٥
٧٥	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ...	١٠٩
٨٣	وإن من شعبته لإبراهيم ...	١١٤
١١٣	ولقد مننا على موسى وهارون ...	١١٧
١٢٣	وإن إلياس لمن المرسلين ...	١٢٤
١٣٣	وإن لوطا لمن المرسلين ...	١٣٦
١٣٩	وإن يونس لمن المرسلين ...	١٣٨
١٤٩	فاستقمهم أربك للبنات ولهم البنون ...	١٣٩
١٧٠	ولقد سبقنا لمبادنا المرسلين ...	١٤٣
		١٥٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسیر
سُورَةُ صَا

دکتور
محمد رشید طنطاوی
مفتی جمہوریہ پاکستان

(الجزء الثالث والعشرون)

1948 - 1950

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

، صدق الله العظيم ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

١ - سورة « ص » ، هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « القمر » ، وهي من السور المكية الخالصة . ويقال لها سورة « داود » .

قال الألوسي : هي مكية - كما روى عن ابن عباس وغيره - وهي ثمان وثمانون آية في المصحف الكوفي . وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي وهي كالمتمة لسورة الصافات التي قبلها ، من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء ، كداود وسليمان .. (١) .

٢ - وقد افتتحت سورة « ص » ، بقسم من الله - تعالى - ، بالقرآن الكريم ، على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فيما يبلغه عن ربه .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المشركون فيما بينهم ، لإنكار نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولإنكار يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، ورد عليهم بما ثبت جهلهم وغفلتهم واستكبارهم عن قبول الحق ..

قال - تعالى - : « وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب .

أم عندم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليدفعوا في الأسباب

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه منهم من أذى وكيد ، لحكت له أن أقوام الرسل السابقين قد قابلوا رسلهم بالكذب ، وأمرته بالصبر على جهالاتهم ، وسأقت جانباً من قصة داود - عليه السلام - ، فذكرت بعض النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه ، كما ذكرت ما دار بينه وبين الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب . .

قال - تعالى : - كذبت قبلمهم قوم نوح وعاد وفرهون ذو الأوتاد . وعمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل لحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فراق . وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب . أصبح على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأبد إنه أواب ...

٤ - وبعد هذا الحديث الذي فيه شيء من التفصيل عن وجوه النعم التي أنعم بها - سبحانه - على عبده داود ، وعن لون من ألوان الامتحنات التي امتحنه - تعالى - بها ، وعن الإرشادات الحكيمة التي أرشده الله - عز وجل - إليها ...

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - أنواعاً من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وبين أن حكمته قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والفجار ...

قال - تعالى : - : أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب

٥ - ثم أتى - سبحانه - بعد ذلك على نبيه . سليمان - عليه السلام - وبين بعض النعم التي منحها له ، كما بين موقفه مما اختبره - تعالى - به ...

قال - تعالى - : ولقد فتنا فتنة سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب .
قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب .
فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء
وغواص ...

٦ - تم مدح - سبحانه - نبيه أيوب - عليه السلام - على صبره ، وعلى
كثرة تضرعه إلى ربه ، وكيف أنه - تعالى - قد كافأه على ذلك بما يستحقه . .
قال - تعالى - : واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب
وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب : ووهبنا له أهله ومثلهم
معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا
تحنث ، إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب ، .

٧ - ثم أثنى - سبحانه - على أنبيائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وإسماعيل
والبسع وذو الكفيل ، وبين ما أعده لهم ولأمثالهم من عبادة الأخيار كما بين
ما توعد به الفجار من عذاب أليم . .

قال - تعالى - : : هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة
لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم
قاصرات الطرف أزواج . هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا أرزقنا ما له
من نفاد ، هذا ، وإن للطاغين لشر مآب ، . .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بالحديث عن قصة آدم وإبليس
وكيف أن الملائكة جميعا سجدوا لآدم إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال
أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . فكانت عاقبته الطرد من
رحمة الله - تعالى - .

٩ - ومن هذا العرض الجميل لسورة ، ص ، نرى أنها قد اهتمت اهتماما
واضحا ، بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى صدق النبي
- صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ، كما اهتمت
(١١ - ص)

بمحاكاة شهادات المشركين ثم الرد عليها ، كما ذكرت جانباً من قصص بعض الأنبياء .
ليعتبر بقصصهم كل ذى عقل سليم ، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار
وسوء عاقبة الأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات : وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

د . محمد سيد طنطاوى

الخمس ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

٨ / ٨ / ١٩٨٥ م

« ص . وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الدِّينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ بِحُجَّتٍ (٣)
وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)
أَيَحْمِلُ الْإِلَٰهَةُ إِلَهُكُمْ وَاجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ
أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا
لِلَّيْلِ الْأَخْرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا
بِلَمْ فِي شَكٍّ مَنْ ذَكَرَى بِلِمْ لَمْ يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ وَنِ
الْأَجْزَابِ (١١) » .

سورة « ص » من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجى ،
وقد سبق أن بينا بشيء من التفصيل آراء العلماء في هذه المسألة ، عند تفسيرنا
لسور البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . ويونس ...
وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف
المقطعة قد وردت في بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين
تهدم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله

هاكم القرآن ترويه مؤامرا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ،
ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها
حروفكم .

فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤا مثله ، وادعوا من
شكتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو في الإتيان بعشر سور من مثله ،
أو بسورة واحدة من مثله .

فمجزؤا وانقلبوا خامسين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله
- تعالى - .

والواو في قوله - تعالى - : : والقرآن ذى الذكر ، للقسم . والمقسم به
القرآن الكريم .

وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أى :
صاحب شرف ونباهة .

ومنه قوله - تعالى - : : وإنا له لذكر لك ولقومك ، .

ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على
المراعى والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس في دينهم
ودنياهم ...

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن ، فيكون المعنى : وحق القرآن
الكريم ذى الشرف العظيم ، وذى التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس
دنياهم وآخرتهم ...

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذى أقدم
الله - تعالى - عليه في قوله : : والقرآن ذى الذكر ، .

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله - تعالى - : : إن ذلك

لخلق نخاصم أهل النار ، أو قوله - تعالى - : « إن هذا الرزقنا ماله من نفاد ، أو قوله - تعالى - كم أهلكتنا من قبلهم من قرن ... »

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا في تقديره ، فقال صاحب الكشف : التقدير : « والقرآن ذى الذكر ، إنه لمعجز . وقدره ابن عطية فقال : « والتقدير : « والقرآن ذى الذكر ، ليس الأمر كما يقول الكفار ... » (١) .

وقوله - تعالى - : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن إتباع الحق ، كما في قوله - تعالى - : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ، (٢) .

وليس المراد بها القهر والغلبة كما في قوله - تعالى - : « وقته العزة والرسولة والمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، (٣) .

وأصل الشقاق المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكان كل واحد منهما في شق غير الذي فيه الآخر . والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : « وحق القرآن الكريم ذى الشرف وهو القدر . إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبليغه عن ربك ، واست كما يقول أعداؤك في

عنه .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٨ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٦

(٣) سورة المنافقون الآية ٨

شأنك . بل الحق أن هؤلاء الكافرين في حية واستكبار عن قبول الهداية التي جئتهم بها من عند ربك ، وفي مخالفتهم ومعارضته لكل ما لا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام ، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة .

والتعبير بقى في قوله ، في عزة وشقاق ، الإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفة للحق قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظرفى بالمظروف .

ثم خوفهم - سبحانه - بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون صيرهم كصير المكذبين السابقين فقال : « كم أهلكتنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » .

« وكم ، هنا خبرية . ومعناها : الإخبار عن عدد كبير . وهى فى محل نصب على أنها مفعول به لأهلكتنا .

وصيغة الجمع فى أهلكتنا للتعظيم . و « ومن » فى قوله « ومن قبلهم » ، لا ابتداءً ، الغاية ، وفى قوله : « من قرن » ، مميزة لكم . والقرن : يطلق على الزمان الذى يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته - على الأرجح - مائة سنة والمراد به هنا أهل هذا الزمان .

والمراد بالنداء فى قوله تعالى - : فنادوا الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب .

و « ولات » هى لا المشبهة بليس - وهذا رأى سيبويه - ، فهى حرف نفى زيدت فيه التاء لتأكيد هذا النفي .

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس ، وأنها لا تعمل إلا فى المهن خاصة ، أو فى لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب .

والحين : ظرف مبهم يتخصص بالإضافة :

وقوله : مناص ، مصدر ميمي بمعنى الفرار والخلاص . يقال : ناص فلان من عدوه - من باب قال - فهو ينوص نوصا ومناصا ، إذا فر منه وهرب من لقائه .

أو بمعنى النجاة والفوت : يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه : والمراد بقوله - تعالى - : «أهلكتنا» الشروع في الإهلاك ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك «فنادوا» ، إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى .

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا قد علموا أننا أهلكتنا كثيرا من السابقين أمثالهم ، وأن هؤلاء السابقين عندما رأوا أمارات العذاب ومقدماته ، جأروا لإيماننا بالدعاء أن نكشفه عنهم ، واستغاثوا استغاثة جاءت في غير وقتها ، ولقد قلنا لهم عندما استغاثوا بنا عند فوات الأوان : «ولات حين مناص» .

أى : ليس الوقت الذى استغثتم بنا فيه وقت نجاة وفرار من العقاب ، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم ، بعد أن تم ادبكم في كفركم ، وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفروا بما كنا مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . . . (١)
وقوله - سبحانه - : «حق إذا أخذنا مطبقهم بالعذاب إذا هم يجأرون» . لا يجأرون اليوم إنكم منا لا تنصرون» (٢) .

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ و٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤ و٦٥ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من أكاذيب المشركين الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة لإله واحداً ، إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملائكة منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتهم إن هذا لشيء براد . . . » .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها أن جماعة من قريش اجتمعوا في نفر من مشيخة قريش ؛ فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب ، لنكلمه في شأن ابن أخيه . . . فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا ، فأ نصفنا من ابن أخيك ، فره فليتكف عن شتم آلهمنا . وندعه وإلهه .

فقال أبو طالب للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألك أن تكف عن شتم آلهم ويدعوك وإلهك . فقال - صلى الله عليه وسلم - : يا عم ، أفلا أدعوم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام ندعوم ؟ قال : أدعوم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويعلمون بها المعجم .

فقال أبو جهل من بين القوم : ما هى وأبيك ؟ لنمطينها لك وعشرة أمثالها . فقال - صلى الله عليه وسلم - : تقولون : لا إله إلا الله . . . فنفر أبو جهل وقال : سلنا غير هذا .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : لو جئتمنى بالشهدى - حتى تضموها فى يدي ، ما سألتكم غيرها . .

فقاموا غضاباً ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « وعجبوا ... » مأخوذ من العجب، وهو تغير في النفس من أمر لا ترتاح لإيئه، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من عصى مَنذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك . ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

و قال ، هؤلاء الكافرون ، عندما دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الدين الحق .

« هذا ساحر كذاب ، أى : قالوا هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .

وقال - سبحانه - : « وقال الكافرون ، بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم . وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو منزّه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالاً أخرى لا تقل عن غيرها في البطلان والفساد . فقالوا - كما حكى القرآن - : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، والاستفهام الإنكار . أى : أجعل عمداً - صلى الله عليه وسلم - الآلهة المتعددة ، إلهاً واحداً . وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة ؟

« إن هذا الشئ عجاب ، أى : إن هذا الذى طلبه منا ، ودعانا إليه ، شئ قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجازة ما يقبله العقل .

و « عجاب ، أبلغ من عجيب . لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول : هذا رجل طوال .

فلفظ « عجاب ، صيغة مبالغة سماعية ، وقد كاهها - سبحانه - عنهم ، الإشعار بأنهم كانوا يرون - لهمهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو شئ قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة .

وامم الإشارة يعود إلى جعله صلى الله عليه وسلم .. الالهة لها واحدا ،
لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالف تام لما ورثوه عن
آبائهم وأجدادهم من عبادة الأصنام .

ثم صور سبحانه حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق . تصورا
بديعا ، فقال : وانطلق الملائمة منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم .

أى : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد أن سمعوا
من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أغضبهم وخيب آمالهم .

انطلقوا يقولون : أن أمشوا في طريقكم التي كان عليها آباؤكم واصبروا
على عبادة آلهتكم مهما هو ن محمد - صلى الله عليه وسلم - من شأنها ، ومهما نبى
عن عبادتها .

وإن هذا لشيء يراد ، أى : إن هذا الذى يدعوا إليه محمد - صلى الله عليه
وسلم - من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة آلهتنا لشيء يراد من جهته هو ،
وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على
دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا .

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوم إليه النبى - صلى
الله عليه وسلم - من عبادة الله وحده .

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين
الذى نحن عليه لشيء يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، وما دام الأمر
كذلك فلن نترك مهما كرهنا فيه محمد - صلى الله عليه وسلم .

قال الألوسى : قوله : إن هذا لشيء يراد ، تعليل الأمر بالصبر . والإشارة
إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - وتصلبه في أمر التوحيد ،
ونفى ألوهية آلهتهم . . .

أى : إن هذا الشيء عظيم يراد من جهته - صلى الله عليه وسلم -

لمتناوذة وتتميزه . فاقطعوا أطعامكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم . . . وقيل : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مراره الصبر .

وقيل : إن هذا أى : دينكم يطلب لينزع منكم ويطرح ويراد لإبطاله . . (١) . ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . . . ، أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - في ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - في الملة الآخرة وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .

وعلى هذين القولين يكون قوله : في الملة الآخرة ، متعلقا بسمعنا . ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - كائننا في الملة التى تكون في آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الحكماء وأهل الكتاب .

وعلى هذا الرأى يكون قوله : في الملة الآخرة ، حالا من اسم الإشارة ، وليس متعلقا بسمعنا .

ثم أكدوا نفيتهم لعدم سماعهم لما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقولهم : : إن هذا إلا اختلاق . .

أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب ونحصر اختلاقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، أن يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا في نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى جال بينهم وبين الإيمان ،

و الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة ،
- كما حكى القرآن عنهم - : أنزل عليه الذكر من بيننا

الاستهزاء بالإنكار والنفي . أى : كيف يدعى محمد - صلى الله عليه وسلم -
أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظام وهو دوننا
ع ؟ إننا ننكر وننفي دعوة النبوة من بيننا .

ال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم
أشرفهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : : لو لا نزل هذا القرآن
جل من القريتين عظيم ، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغل به صدورهم
لقد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم ، (١) .

لقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبي - صلى الله عليه وسلم -
ت كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - : : وإذا
م آية قالوا لن تؤمن حتى نؤتي مثلاً لآلينا رسول الله ، الله أعلم حيث
رسالته

لقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - فعند ما سأله
، : أنظن محمداً على حق أم على باطل ؟ كان جوابه : : إن محمداً لعل
ولكن متى ~~كنا~~ لبني هاشم تبعاً . أى : متى كانت أسرنا تابعه .
هاشم ١١ .

في رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا
نا ، وحملوا إحمنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ،
كفهرسىء وهان ، قالوا : منا نبي يأنيه الوحى من السماء . فمتى ندرك
والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه .

وقوله - سبحانه - : : بل هم في شك من ذكرى ، لإضراب عن كلام يفهم من السياق . وتسلبه للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى .

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى في شاك - أي الرسول الكريم - وفي شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم في شك من هذا القرآن الذى أيدتكم به ، بدليل أنك تراهم يصنفونك تارة بالسحر ، وتارة بالسكاهة ، وتارة بالشعر . . . ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .

وقوله - سبحانه - : : بل لما يذوقوا عذاب ، لإضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى : لا تحزن - أي الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة . وأقوالهم الفاسدة . فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابه بعد ، فإذا ذوقه زال حسدهم وشكهم . وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لا يحوم حوله حق .

وفي التعبير بقوله دلسا ، إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول .

ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه - صلى الله عليه وسلم - للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تمككى فقال - تعالى - : : أم عندكم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، .

أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك . أي الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة من ديدم ويتصرفوا بها عنك . . .

وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز - الذي لا يغلبه غالب -
باب ، أى : الكثير العطاء لعباده .

والمراد بالعندية فى قوله ، عندهم ، : الملك والتصرف ، وتقديم الظرف
بعد ، لأنه محل الإنكار . وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير
إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، تشريف وتكريم له - صلى الله عليه
- .

وجىء بصفة العزيز ، للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وأهلهم
ترفع وتكبر ،

كما جىء بصفة الوهاب ، للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى -
يختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يحمل رسالته .

وقوله - عز وجل - : أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ... ،
يدلها أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشيء من خزائن الله
إلى .

أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم -
سوا ما لملكين شيئا - أى شيء - من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما
خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .

وقوله - سبحانه - : فليرتقوا فى الأسباب ، تعجيز لهم ، وتهكم بهم ،
بتخفاف بأقوالهم ومزاعمهم . والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل
إلى غيره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف . والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا
لم شيء من ملك السموات والأرض ، وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى
سلمهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ويدبروا أمره وينزلوا الوحي على
يختارونه للنبوة من أشرفهم وصناديدهم .

فالجملة للسكريمة قد اشتطت على نهايه التعجيز لهم ، والتمك بهم وبأفوالهم
حيث بين - سبحانه - أنهم أدعياء فيها يزعمون ، وأنهم يعرفون بما
لا يعرفون . . .

ثم بشر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالنصر عليهم فقال :
« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، .

ولفظ « جند » خير لمبتدأ محذوف . و « ما » ، مزيدة للتقاييل والتحقيق ،
نحو قولك : أكلت شيئاً ما . أى شيئاً قليلاً ، وقيل : هى للتكثير والتحويل
كقولهم : لأمر ما جندع قصير أنفه .

أى : لأمر عظيم . . . وعلى كلا المعنيين فالقصور أنهم لا وزن لهم بجانب
قدرة الله - تعالى - . .

و « هنالك » ، صفة لجنه ، أو ظرف للمهزوم . وهو إشارة إلى المكان
البعيد .

و « مهزوم » ، خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهزم : غمر الشيء اليابس
حتى يتحطم ويكسر .

يقال : تهزمت القرية ، بمعنى يبت . وتكسرت . وهزم الجيش ، بمعنى
غلب وكسر .

وللمعنى : هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم - لا تنوّم بأمرهم ، ولا
تكثر بجملوعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب
قوتنا الذى لا يقف أمامها شيء . ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون
أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .

فالآية السكرية بشاره للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - :
« سيهزم الجمع ويولون الدبر ، .

قال صاحب الكشف : قوله : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، يريد ما هم لإجيش من الكفار المتحزبين على رسل الله ، مهزوم مكسور عما قريب ، فلا يقال بما يقولون ، ولا تكثر لما به يهدون ، ودا ، وزيده ، وفيها معنى الاستعظام ... إلا على أنه على سبيل الاستزاء بهم . ودهنالك ، إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك ، (٢) .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حكمت أقوال المشركين ، وردت عليها رداً يكتبهم ويذهب باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

• • •

ثم ساق - سبحانه - جانباً مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكي يعتبر المشركون المعاصرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - وليكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) » .

فقوله - تعالى - : « كذبت قبلهم قوم نوح ... استثناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة . ولوعد المؤمنين بالنصر . وقأنيث قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة .

أى : ليس قومك - يا محمد - هم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب قوم نوح ، فكانت هاقبتهم الإغراق بالطوفان .

وسبقهم - أيضاً - إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هوداً ، فكانت هاقبتهم الإهلاك بالريح العقيم . التى ما أتت على شئ إلا جعلته كالرميم .

وقوله : « وفرعون ذو الأوتاد ، معطوف على ما قبله ، أى : وكذب - أيضاً - فرعون رسولنا موسى - عليه السلام -

وقوله : « ذو الأوتاد ، صفة لفرعون . والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يندق فى الأرض لتثبيت الشئ وتقويته .

والمراد بها هنا : المباني الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذين يثبتون ملكه كما تثبت الأوتاد البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد .

قال الألوسى ما ملخصه : والأصل لإطلاق ذى الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها ، فشبه هنا فرعون فى ثبات ملكه ... بيت ثابت ذى عماد وأوتاد ...

أو المراد بالأوتاد الجنود : لأنهم يقرون ملكه كما يقوى الوتد الشئ .
أو المراد بها المباني العظيمة الثابتة .

ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها . فقد قيل لأنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد متعددة ، ويتركه مشدوداً فيها حتى يموت ... (١) .

أى : وفرعون صاحب المباني العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك

(١) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٧٠ .

الوطيد... كذب رسولنا موسى - عليه السلام - ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه ومن معه جميعاً من جنوده الكافرين .

وكذب - أيضاً - قوم نمرود نبيهم صالحاً ، وقوم لوط نبيهم لوطاً ، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب . كذبوه كذلك - فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك هؤلاء المكذبين - كما قال - تعالى - : « فكلنا أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (١) » والإشارة في قوله - تعالى - : « أولئك الأحزاب » ، تعود إلى هؤلاء الأقوام المكذبين لرسولهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسولهم ، وانضم بعضهم إلى بعض في تكذيبهم ، ووقفوا جميعاً موقف المحارب هؤلاء الرسل الكرام .

وقوله - سبحانه - : « إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » ، استثنائي مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسولهم ، وبيان الأسباب التي أدت إلى عقاب المكذبين .

و « إن » ، هنا نافية ، ولا عمل لها لانتقاض النفي بإلا . و « إلا » أداة استثناء مفرغ من أهم الصفات أو الأحكام : وجملة « كذب الرسل » في محل رفع خبر « كل » .

أي : ليس هؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل . فكانت نتيجة هذا التكذيب أن حل بهم عقابي وثبت عليهم عذابي . الذي دمرهم تدميراً .

والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب بجميع الرسل لاقادعهم

واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود تكذيب كل حزب لمسوله .

وقد جاء تنكيدهم في الآية السابقة بالجملة الفعلية وكذبت قبلهم . . . وجاء في هذه الآية بالجملة الاسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومدادتهم عليه ، لإعراضهم عن دعوة الرسل لهم لإعراضا تاما .

وقوله - سبحانه - : وما ينظر هؤلاء إلى صيحة واحدة ما لهم من فواق ، بيان للعذاب المعد للمشركين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، بعد بيان العقاب الذي حل بالسابقين .

والمراد بالصيحة هنا : النفخة الثانية التي ينفخها لإسرافيل في الصور فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء :

وقيل المراد بها النفخة الأولى وضد هذا القول بأنهم ان يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوها .

وينظرون هنا بمعنى ينتظرون . وجعلهم - سبحانه - المنتظرين العذاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة - للاشعار بتحقيق وقوعه ، وأنهم صدد أفاقه ، فهم لذلك في حكم المنتظرين له .

أي : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين من قباهم ، إلا صيحة واحدة ، أي : نفخة واحدة ، ينفخها إسرافيل ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، وهذه النفخة ما لها من فواق ، أي : ليس لها من تواف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق فائة وهو الزمن ، الذي يكون بين الخلتين أو الزمن الذي يكون فيه رجوع اللبن في الضرع بعد الحلب .

والمقصود ببيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها ان تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شيء يتعلق بالبيت والجزاء .

قال الجبل في حاشيته ما ملخصه : قوله : « ما لها من فواق » يجوز أن يكون قوله « لها » رافعا لقوله « من فواق » على الفاعلية لاعتداده على النفي .
وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفعية صفة لصيغة ، ومن مزيدة . . .

والفواق - بفتح الفاء وضمها - الزمان الذي بين حلقتي الحالب ورضعي الراضع . والمعنى : ما لها من توقف قدر فواق ناقة . وفي الحديث : العبادة قدر فواق ناقة . . . (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم ، فقال - تعالى - : « وقالوا ربنا عجل لنا قسطا قبل يوم الحساب » .
والقسط : النصيب والقطعة من الشيء . مأخوذ من قط الشيء إذا قطعه وفصله عن غيره .

فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم .

أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون ياربنا عجل لنا قسطا دأى : عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب .

وتصدير دعائهم بندااء الله - تعالى - بصيغة الربوبية ، يشعر بشدة استعزائهم بهذا العذاب الذى توعدهم الله - تعالى - به ، على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا مع أن القائل هو البضر بن الحارث ، أو أبو جهل . . . لأنهم قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله . . .

وقيل المراد بقوله - تعالى - : «عجل لنا قطننا...» أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة . أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التى وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب فى الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه .

وعلى جميع الأقوال ، فالمراد ببيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور حشاه ، حيث استهزؤا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم فى الدنيا ؛ بعد أن سمعوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة ...

قال - تعالى - : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (١) .

وقال - سبحانه - : «ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ،» (٢) .

• • •

ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له - بشئ من التفصيل - قصص بعض الأنبياء - عليهم السلام - وبدأت بقصة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الملك والنبوة ، قال - تعالى - :

«اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)

(١) سورة الأنفال الآية ٢٣ .

(٢) سورة الحج الآية ٤٧ .

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبَّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تُسَوِّرُوا الْحَرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، خَصِمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْتُمُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَى نَعَائِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَفَنَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) .

والخطاب في قوله - تعالى - : « اصبر على ما يقولون ... » ، للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعداؤك فيك وفي دعوتك . لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر ... وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين ... وقالوا في شأن دعوتك إياهم إلى

وحدانية الله - تعالى - ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق ، ...

وقالوا غير ذلك . ما يدل على جهلهم وجمودهم للحق ، وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذي سلكه كل نبي من قبلك ...

وقال - سبحانه - ، أصبر على ما يقولون ، بصيغة المضارع ، لاستحضار الصعوبة الماضية . والإشعار بأن ما قالوه في الماضي سيجدونه في الحاضر وفي المستقبل . فعليه أن يمد نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل ، بينه وبينهم .

وقوله - تعالى - : « وأذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » ، معطوف على جملة (أصبر ...) .

وداود - عليه السلام - : هو ابن عيسى من سبط (يهوذا) بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم . وكانت ولادة داود في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وقد منحه الله - تعالى - النبوة والملك .

وقوله - تعالى - : « ذا الأيد » صفة لداود . والأيد : القوة . يقال : آد الرجل يأيده أيده وإياداه ، إذا قوى وأشدت عوده ، فهو أيده . ومنه قولهم في الدفا : أيدك الله . أي : قواك و (أواب) صيغة مبالغة من آب إذا رجع .

أي : أصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك حتى يحكم بينك وبينهم وإذا ذكر - انزداد ثباتاً وثقة - قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة في عبادتنا وطاعتنا وفي دحر أعدائنا .. (إنه أواب) أي : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود

- عليه السلام - فقال : (إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق ...) .

والعشى: الوقت الذي يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح .
والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أي سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى ...

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس . وهو يسبق للإشراق .

أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به ، فتسبح بتسبيحه في أوقات العشى والإشراق .

وقال - سبحانه - (معه) الإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به في ذلك .

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله - تعالى - وبقدسه ويزهه ، رددت معه ما يقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله - تعالى - ، إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - عز وجل - ، بدليل قوله - سبحانه - : تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، لأنه كان حليماً غفوراً (١) .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بإسان الحال ضعيف لأمور منها : المخالفة لما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحاً حقيقياً بإسان المقال ، ومنها : أن

تقييد التسبيح بكونه بالعش والإشراق . وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منها في كل وقت ، ولا يختص بكونه في هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتي العش والإشراق بالذكر . للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

وقوله - تعالى - : (والطيور محشورة ..) معلوف على الجبال وكلة محشورة : بمعنى مجموعة . وهي حال من الطير . والعامل قوله (سخرنا) .

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبيح مع داود عند تسيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتمثيل بقوله : محشورة ، يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى ليكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة كل له أبواب ، مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام في : له ، للتعليل والضمير يعود إلى داود - عليه السلام . .

أى : كل من الجبال والطير . من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح . ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : وشددنا ملكه ، أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند المتتابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة .. و آتيناه الحكمة ، أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

، وفصل الخطاب ، أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالخزم الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : « وهل أتاك نبأ الخضم إذ تسوروا المحراب ، .

والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطالع إلى معرفته النفس .

والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس . . .

والخضم : أى المتخاصمين أو الخصماء . وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى المخاصمة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه فى الأصل مصدرا صح إطلاقة على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث . . قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر .

أى : بجانبه . . .

والظرف فى قوله : « إذ تسوروا المحراب » متعلق بمحذوف . والتسور : اعتلاء السرور ، والصمود فوقه ، إذ صيغة التفعّل تفيد العلو والنهوض . كما يقال تسلم فلان الجبل ، إذا علا فوق سنائه .

والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبد وذكر الله - تعالى -

والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصور . الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدمهم . . .

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى عليك ، فما نحن بقصه عليك .

وقوله : « إذ دخلوا على داود ففرع منهم .. » بدل مما قبله . والفرع : انقباض في النفس يحدث للإنسان عند ترويع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، تخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد الإيمان وهو الباب ، ولأنهم أتوه في غير الوقت الذى حددته للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه في وقت عبادته ...

ومن شأن النفس البشرية أن تفرع عندما تفاجأ بحالة كمذه الحالة .

قال القرطبي : فإن قيل : لم فرع داود وهو نبي ، وقد قويت نفسه بالنبوة واطمأن بالوحي ، ووثقت بما آناه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات . وكان من الشجاعة في غاية المسكنة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذى ، ومنهما كان يخاف .

ألا ترى إلى موسى وهارون - عليهما السلام - كيف قالوا : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » - أى : فرعون - ، فقال الله لهما : « لا تخافا إني معكما أسمع وأرى » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفرع فقال : « قالوا لا تخف ، خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا نشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ... » .

والبغى : الجور والظلم ... وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .
والشعاط : مجاوزة الحق في كل شيء . يقال : شط فلان على فلان في
الحكم واشتط ... إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : دخصمان ، خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان . والجملة
استئناف معلل للنهي في قولهم : لا تخف .

أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم
بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوز به إلى غيره ، وأهدنا إلى سواء الصراط ، أى :
وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ثم أخذنا في شرح قضيتهم فقال أحدهما : إن هذا أخى له نسمع ونسمعون
نعمجة ولى نعمة واحدة ، فقال أكفليهما وعزنى في الخطاب .

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة في الدين أو في النسب أو فيهما وفي غيرهما
كالصحية والشركة .

والنعمجة : الأنثى من الضأن . وتطلق على أنثى البقر .

وقوله : أكفليهما ، أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون
تحت كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التى عندى ، ليتم عددها مائة .

وقوله : وعزنى في الخطاب ، أى : غلبنى في المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح
وأقوى منى .

يقال : فلان عز فلانا في الخطاب ، إذا غلبه . ومنه قولهم في المثل : من
عز غلب . أى : من غلب غيره سلبه حقه ،

أى : قال أحدهما لداود - عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم
أمامك أخى .

وهذا الأخ له تسع وتسعون نعمة ، أما أنا فلا يس لي سوى نعمة واحدة ، فطمع في نعمتي وقال لي : دأ كفلنيها ، أي : ملكنيها وتنازل لي عنها ، وعزني في الخطاب . .

أي : وغلبني في مخاطبته لي ، لأنه أقوى وأفصح مني .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وعدم اعتراضه على قوله ... أمام كل ذلك . لم يلبث أن قال داود في حكمه : دأ لقد ظلمك بسؤال نعمتك إلى نعاجه

واللام في قوله : دأ لقد ... ، جواب لقسم محذوف .

وإضافة «سؤال» إلى «نعمتك» من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والأفعال محذوف .

أي : بسؤاله ، كافي - قوله - تعالى - : دأ لیسألم الإنسان من دعاء الخير ، أي : من دعائه .

وقوله «نعاجه» متعلق بسؤال على تضمينه معنى الضم .

أي : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما أدعاه - والله إن كان ما نقوله حقاً - أبها المدعى - فإن أخاك في هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تنازل له عن نعمتك لكي يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

وإنما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضي لا يحكم إلا بعد سماع جهة الخصوم أو الخصمين ، حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام

المدعى عليه . لأنه مقرر ومعروف في كل الشرائع ، وحذف ما هو مقرر
ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود - عليه السلام - وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب -
أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه
الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : وإن كثيراً من الخطاء لا ينفى بعضهم على
بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقابل ما

أى : قال داود للمشتكى - على سبيل التسليته - : وإن كثيراً من الخطاء ،
أى الشركاء - جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .

لا ينفى بعضهم على بعض ، أى : لا يعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع
بعضهم فى مال الآخر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم لا يفعلون
ذلك لقوة إيمانهم ، ولعدم عن كل ما لا يرضى خالقهم . فالجمله الكريمة
منصوبة المحل عن الاستثناء ، لأن الكلام قبلها تام موجب .

وقوله : وقابل ما هم ببيان لفظة عهد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون
في أحكامهم .

ولفظه قليل ، خير مقدم . و ما ، مزيدة للإيهام وللتعجيب من قلتهم .
و دم ، مبتد مؤخر .

فيكأنه - سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعدلون الصالحات
ويحرمون على إعطاء كل ذى حق حقه . والجمله الكريمة اعتراض تذييل .

وهذا نرى أن داود - عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق
الحق ويبطل الباطل .

ثم بين - سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل
عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : وظن داود أنهما
فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتناء : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .

أى : وظن داود - عليه السلام - أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه . وأن ذلك لون من ابتلاء الله - تعالى - له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ؛ وخر راسكما ، أى : ساجدا لله - تعالى - وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منهما اغشاء وخضوع الله - عز وجل - د وأجاب ، أى : ورجع داود إلى الله - تعالى - بالتوبة وبالمدارمة على العبادة والطاعة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : فغفرنا له ذلك . . . ، يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين لإيابه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضر إليه فى خضوعة بينهما ليحكم فيما ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله - تعالى - له . فقوله - : تعالى - : فغفرنا له ذلك ، أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه . . . وإن له عندنا لوفى ، أى : لقربة منا ومكانة سامية ورحمة من مآب ، أى : وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنة .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمية ، والآداب القويمية ، التى وجهها - سبحانه - إلى كل حاكم فى شخص داود - عليه السلام - فقال - : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . . . والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه . فهو فعيل بمعنى فاعل . والتاء فيه للمبالغة .

أى : يا داود إنا جعلناك - بفضلنا ومنتنا - خليفة ونائبا عنا فى الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدكم إلى الصراط المستقيم .

والجملة المكرية مقولة أقول محذوف معطوفة على ما سبقنا . أى : فغفرنا
له ذلك ، وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . ويصح أن تكون
مستأنفة لبيان مظاهر الزلق والمكانة الحسنة التى وهبها - سبحانه - لداود ؟
حيث جعله خليفة فى الأرض .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى .. »
للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر . والهوى : ميل النفس إلى رغباتها
بدرن تحر للعدل والصواب .

أى : إذا كانت الأمور كما أخبرناك . فاحكم - يا داود - بين الناس بالحكم
الحق الذى أرشدك الله - تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان
والأحوال : ولا تتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أماراة بالسوء .
وقوله - سبحانه - : فيضلك عن سبيل الله ... ، بيان للمصير السوء الذى
يؤدى إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

وقوله ، فيضلك ، منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، على أنه جواب
للهمى السابق .

أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق
الحق ، وعن مخالفة شرع الله - تعالى - ودينه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : « إن الذين
يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » :

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم
للهمى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - . لأنهم تركوا
الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - سمو منزلة داود - عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه

الآيات ، بأن أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتذكر ما حدث لأخيه داود . ليسكون هذا التذكر تسليّة له عما أصابه من المشركين ، وهونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف - سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا في دينه ، ورجاءا إلى ما يرضى ربه ، وأنه - سبحانه - قد وهب له نعمًا عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - ، حيث قال - سبحانه - : . وإن له عندنا لزافي وحسن مآب ، ، وببيان أنه - تعالى - قد جملة خليفة في الأرض .

ومن الأحاديث التي وردت في فضله - عليه السلام - ما أخرجه البخاري في تاريخه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا ذكر داود ، وحدث عنه قال : . كان أعبد البشر . .

وأخرجه الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود ، .

٢ - أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس في شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التي حكاها القرآن الكريم ، فزع منهما داود - عليه السلام - وظن - أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث . .

فلما تبين لداود بعد ذلك ، أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه في مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أي ظن الاعتداء عليه - فغفر الله - تعالى - له . . .

والذي يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا في تأييد هذا المعنى

قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : «والذي أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية ، من أن المنسورين للحراب كانوا من الإنس . دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فرع منهم ظانا أنهم يفتالونه ، إذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومته ، وبرز منهم إثنان للتحاكم . . . وأن ما ظننه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه ، وخر ساجدا منيبا إلى الله - تعالى - فغفر له ذلك الظن ، ولذلك أشار بقوله : «فغفرنا له ذلك ، ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : «وكان داود أمما فتناء» ، ويعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم في شيء منها ، ضرورة أننا لوجودنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فاحكى الله - تعالى - في كتابه ، يمر على ما أراده - تعالى - ، وما حكى القصص عما فيه غرض من منصب النبوة ، طر حناه . . . » (١) .

٣ - ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبي حيان . هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذي تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ، ومع ثناء الله - تعالى - عليه وتمكينا له . . .

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا في نهاية النكارة ، وأفوا في غاية البطلان والفساد . . .

فتلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : «أن داود عليه السلام - كان يصلي في محرابه . . ثم تطلع من نافذة المصلى الذي كان يصلي فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألتها عن زوجها ، فأخبرته بأن زوجها ، اسمه «أوريا ، وأنه خرج مع الجيش الذي يحارب الإعداء . .

فأمر داود عليه السلام - قائد الجيش أن يجعله في المقدمة لكي يكون عرضة للقتل ... وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة ... (١) .

ونرى صاحب الكشف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله :
« فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أئمة المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء ... » .

نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصة : « أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل أوريا ، وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها .. أو أنه خطبها بعد أن خطبها دأوريا ، . فآثر أهلها داود على دأوريا ، ... » .

قال صاحب الكشف : كان أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبتهم ، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها فانفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له دأوريا ، .

فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهي أم سليمان - عليه السلام - وقيل : خطبها دأوريا ، ثم خطبها داود ، فآثر أهلها داود على دأوريا ، ... (٢) .

والذي نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها ، عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها ...
ينكرها النقل لأنها لم تثبت من طريق يعتمد به ، بل الثابت أنها مكذوبة ...

(١) راجع تفهيم ابن جرير - ٢٣ ص ٩٣ . والقرطبي - ١٥ ص ١٦١

(٢) راجع تفسير الكشف - ٤ ص ٨٠

قال ابن كثير : وقد ذكر المفسرون ما هنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المصنوع حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سند ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أنس ، ويزيد - وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ... (١) .

وقال السيوطي : القصة التي يحكونها في شأن المرأة وأنها أعجبت به ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجهما ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفي إسناده ابن طبيعة ، - وخالد موقوف - عن ابن مسعود ، عن يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف

وقال البقاعي : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . وقد أخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يعتمدون ذلك في حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه (٢) .

إذا فمذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن روايتها معروفة بالضعف ، وبالنقل عن الإسرائيليات .

ويروي أن الإمام عليا - رضي الله عنه - قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصص جلده مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء (٣) . وهي غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح في أول الآيات وفي آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمة بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتمل القتل زوجها ، بغير حق ، أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

(١) تفسير ابن كثير - ٧ ص ٥١

(٢) راجع تفسير القاسمي - ١١ ص ٥٠٨٨

(٣) راجع تفسير الكشاف - ٤ ص ٨١

إن هذه الأفعال يتزدهر عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء، هو داود - عليه السلام - ، الذي مدحه الله - تعالى - بالقوة في دينه ، وبكثرة الرجوع إلى ما يرضى الله - تعالى - ، وبأنه سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب ، وبأن له عند ربه رزاق حسن مآب ..

والخلاصة : أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة ، لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل ، بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقاً ، لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء ، الذين صانهم الله - تعالى - من ارتكاب ما يخذل الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : ما حكاه الله - تعالى - عن داود ، قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود .

وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك ، مختصمين في نجاج من الغم .

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله - تعالى - ، ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه .. لأن الله - تعالى - يقول : « وهل أتاك نبأ الخصم ، فقال هو : لم يكونوا خصمين ، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، ولا كان الآخر نعجة واحدة ولا قال له : أكلنيها .. » (١) .

٤ - هذا ، وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، منها : أن استغفار داود - عليه السلام - إنما كان سببه أنه قضى

لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : دلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة - التي جعلت داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : د قد ظلمك بسؤال نعيمته إلى نعاجي .. ، فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الخصم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل . (١) .

والذي نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود عليه السلام - الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأوليائه ، أن لا يحكم القاضي بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعاً ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام آخر .

قال صاحب الكشف : ، فإن قلت : كيف سارع داد إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه ؟ قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد إعراف صاحبه ، ولكنه لم يحكم في القرآن لأنه معلوم ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكل نعاجي مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبّة ... (٢) .

ومنهم من يرى ، أن استغفار داود عليه السلام - كان سببه : أن قوماً من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عايه لقصده فقتله وجدوا عنده أقواماً . فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فلم داود قصدهم ، وهزم على الانتقام منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٨٢

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٨٧

مما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الإتيان ، (١) .
وهذا القول - وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا أن الرأي الذي
سقناه سابقا ، والذي ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو
ظاهر عن معنى الآيات .

وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين إثنين من البشر ، وإستغفار داود
- عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتيا له ولإيذائه ، وأن هذا إبتلاؤه
من الله - تعالى - إبتلاء به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاؤا للاعتداء عليه
ولأنما جاؤا ليقضى بينهم في خصومة . فاستغفر ربه من ذلك الظن ، فغفر الله
- تعالى - له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، في تفسير هذه الآيات
الكريمة ، التي ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وتصا لا يؤيدها
عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتناقى مع عصمة الأنبياء
- عليهم الصلاة والسلام - الذين إختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل
رسالته ، وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم
الأخلاق ، وحميد الخصال .

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته
إقتضت عدم المساواة بين الأخيار والاشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله
- سبحانه - لتدبر آياته ، وللعمل بتوجيهاته - تعالى - :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُّوا

الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْمِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)
 كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِيَذَّبَ رُؤَا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا
 الْأَلْبَابِ (٢٩) .

والمراد بالباطل في قوله - تعالى - : وما خلقنا السموات والأرض
 وما بينهما باطلاً ، العيب واللغو واللعب وما يخالف الحق . والجملة الكريمة
 مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل .
 وقوله ، باطلاً ، صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله .

أى : وما خلقنا - بقدرتنا التي لا يعجزها شيء - السموات والأرض
 وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ... وما خلقنا ذلك خلقاً
 باطلاً لا حكمة فيه ، أو ما خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل
 والصواب .

؛ إنما خلقنا هذا الكون خلقاً مشتملاً على الحكيم الباهرة ، وعلى المصالح
 الجمّة ، والأسرار البليغة ، والمنافع التي لا يحصىها العدد ، والهيئات والكيفيات
 التي تهدي من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد .

ولاسم الإشارة في قوله - سبحانه - : ذلك ظن الذين كفروا . . .
 يعود إلى ما نفاه - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما بينهما على
 سبيل اللغو والعيب .

أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقاً مشتملاً على
 الحكيم الباهرة . . . ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا
 هذه المكنات من أجل الباطل واللغو واللعب . . . وسبب هذا الظن والاعتقاد

الفاسد منهم ، كفرهم بالحق ، وجحودهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هدايات وإرشادات .

وقوله - تعالى - : « فويل للذين كفروا من النار » بيان للعاقبة السيئة التي حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد ... قالفاء : لتفريع على ظنهم الباطل والويل : الهلاك والدمار :

و د من ، إبتدائية أو بيانية أو تعليلية .

أى : القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة ، هو ظن وإعتقاد الذين كفروا وحدهم ، وما دام هذا ظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار التي نهطها عليهم فتحرق أجسادهم ، ونجملهم يذوقون العذاب الممين .

وقال - سبحانه - « فويل للذين كفروا » ، بالإظهار في مقام الإضمار ، للإشعار بعملية صلة الموصول للحكم أى : أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم .

وقال - سبحانه - : « فويل للذين كفروا » ، ولم يقل للذين ظنوا الإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا ، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت إستحالة المساواة بين الأخيار والفجار ، فقال - تعالى - : « أم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » .

و د أم ، فى الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

والإضراب هنا إنتقالى من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثاً إلى تقرير إستحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين :

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك إقتضت حكمتنا
و-التنا... إستحالة المساواة أيضا- بين المتقين والفجار .

وذلك لأن المؤمنين المتقين ، قد قدموا لنا في دنياهم ما يرضينا ، فكافأناهم
على ذلك ما يرضيهم ، وبشعدهم وبشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة
خالدين في جنات النعيم .

أما المفسدون والفجار ، فقد قدموا في دنياهم ما يغضبنا ويسخطنا عليهم
فجاز بنام على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير .

وربك - أيها العاقل - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يظلم الناس
شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ،

فالمقصود بالآية الكريمة إعلان إستحالة التقوية في الآخرة بين المؤمنين
والمكافرين ، لأن التقوية بينهما ظلم ، وهو محال عليه - تعالى - ، وما كان
البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزى - سبحانه - الذين
أماؤا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ومن الآيات التي تشبه في معناها هذه الآية قوله - تعالى - : أم حسب
الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء
بقيامهم وبما هم ، ساء ما يحكمون ، (١)

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله - صلى الله
عليه وسلم - وبين حكمة إنزاله ، فقال : كُنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ . .

وقوله : كُنَّا أَنْزَلْنَاهُ ، خبر لمبتدأ محذوف . والمقصود به القرآن الكريم .

أى : هذا كتاب أنزلناه إليك ، بقدرتنا ورحمتنا - أيها الرسول الكريم
ومن صفاته أنه « مبارك ، أى : كثير الخيرات والبركات ...

وجعلناه كذلك ، ليبدروا آياته ، أى : ليتفكروا فيما اشتملت عليه -
آياته من أحكام حكيمة ، وآداب قديمة ، وتوجيهات جامعة لما يعدم في
دينام وآخرتهم ...

« وليذكر أولوا الألباب ، أى : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما جاء
فيه من قصص وعبر عن السابقين ، كما قال - سبحانه - : « لقد كان في قصصهم
عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ،
وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، (١) .

• • •

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من قصة سليمان - عليه السلام - فدحه لكثرة
رجومه إلى الله ، وذكر بعض النعم التي منحها إياه ، كما ذكر اختياره له ،
وكيف أن سليمان - عليه السلام - طلب من ربه المغفرة والملك ، فأعطاه
- سبحانه - ما طلبه . قال - تعالى - :

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهُمَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ
أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنِّ

بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً
 حَيْثُ أَصَابَ (٢٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَأْبٍ (٤٠) .

في هذه الآيات الكريمة مسائلتان ذكر بهن المفسرين فيهما كلاما
 غير مقبول .

أما المسألة الأولى فهي مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان
 والمقصود به .

وأما المسألة الثانية فهي مسألة المقصود بقوله - تعالى - : د ولقد
 فتننا سليمان

وسنسير في تفسير هذه الآيات على الرأي الذي نظمنا إلى صحته نفوسنا ،
 ثم نذكر بعده بعض الأقوال التي قبلت في هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق
 الرد منها ، فنقول - وبالله التوفيق - :

المختص بالمدح في قوله - تعالى - : د نعم العبد ، محذوف ، والمقصود
 به سليمان - عليه السلام - .

أى : ووهبنا - بفضلنا وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليهما
 السلام - ونعم العبد سليمان في دينه وفي خلقه وفي شكره لخالقه - تعالى - .

وجملة د لانه أبواب ، تعليل لهذا المدح من الله - تعالى - لسليمان
 - عليه السلام - أى : لانه رجاء إلى ما يرضى الله - تعالى - ما أخذ من أب
 الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها .

ود إذ في قوله : د إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، منصوب

بفعل تقديره : اذكر ، ود عليه ، متعلق بعرض . ود العشى ، يطلق على الزمان
السكان من زوال الشمس إلى آخر النهار . وقيل إلى ، طلوع الفجر .

والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذى يقف على ثلاثة أرجل
ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .

والجباد : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الر كض ، سواء
أكان ذكرا أم أنثى ، يقال : جاد الفرس بجود جودة فهو جواد ، إذا كان
سريع الجرى ، فاره المظهر . .

أى : اذكر - أيتها العاقل - ما كان من سليمان - عليه السلام - وقت أن
عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل . السريعة العدو . . .

قال صاحب السكشاف : « فإن قلت : ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون
لا يكاد يوجد فى الهجن ، وإنما هو فى - الخيل - العرب الخالص وقيل : وصفها
بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى
إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفقا
فى جريها . . . » (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول
الصافنات الجياد على سبيل الذكر لربه ، فقال - تعالى - : « فقال إني أحببت
حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ،

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما فى قوله - تعالى - : « وإنه
لحب الخير لشديد . . »

والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لمتاع

الخبر بها ، روى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة .

و د عن ، هنا تعليلية . والمراد بذكر ربى ، طاعته وعبادته والضمير في قوله د حتى توارت ، يعود إلى الخيل الصافات الجياد والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : لى أحببت استعراضه الصافات الجياد . وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية ردوها على ، أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافات الجياد على مرة أخرى ؛ لأزداد معرفته بها ، وفهما لأحوالها . . .

والفاء فى قوله - تعالى - : د فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ، فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق . و د طفق ، فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان . و د مسحاً ، مفعول مطلق لفعل محذوف . والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافات الجياد على ، فردوا عليه . فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجاباً بها ، وسروراً بما هى عليه من قوة . هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله - تعالى - .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه عن كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولكن كثيراً من المفسرين نهجوا نهجاً آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان - عليه السلام - جلس يوماً يستعرض خياله ، حتى غابت الشمس

دون أن يصلي العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التي شغلته استعراضيها
عن الصلاة ، فأخذ في ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، فربقه الله - تعالى - .

فهم يرون أن الضمير في قوله - تعالى - : « حتى توارث بالحجاب » يعود
إلى الشمس . أي : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله - تعالى - : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » الشروع
في ضرب سوقها وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

قال الجمل : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » أي : جعل بضرب سوقها
وأعناقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين ، (١) .

ولم يرتض الإمام الرازي - رحمه الله - هذا التفسير الذي عليه أكثر
المفسرين ، وإنما ارتضى أن الضمير في « توارث » يعود إلى الصافات الجياد
وأن المقصود بقوله - تعالى - : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » الإعجاب
بها والمسح عليها بيده حباً لها . . .

فقد قال ما ملخصه : « إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم ، كما أنه
كذلك في دين الإسلام ، ثم إن سليمان - عليه السلام - احتاج إلى الغزو .
فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنه لا أحبها لأجل الدنيا
وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله : « عن
ذكر ربى » .

ثم إنه - عليه السلام - أمر بإعدادها وتجهيزها حتى توارث بالحجاب أي :
غابت عن بصره .

ثم أمر الراضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق بمسح
سوقها وأعناقها .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب

والفرض من ذلك: الفشريف لها - لكونها من أعظم الأهلوان في دفع العدو ... وإظهار أنه خير بأحوال الخليل وأمر اضها وعبوبها فمكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ... (١) .

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم : وتأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة ... قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضییع الصلاة إلى نبي مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها ... وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها .

ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده ، رابها ، ولمكرامها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكره من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة ... (٢) .

والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر . وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها ... لا دلائل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم ...

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازي والإمام ابن حزم ، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى - : فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ، إنما هو تكرمها ...

وأن الضمير في قوله : : حتى توارت ، يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٩٢ فقد أفاضوا جاد في تفسير الآيات .

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥١٠١ .

ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى - : « وواقدا فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ... » .

وقوله : « فتنا » من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعلم جودته ...

قال الألوسى : « وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعا ، وفيه : « فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا ، .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين . وأن الملك قال له : قل إن شاء الله ، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ... والمراد بالجدد ذلك الشق الذى ولد له . ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه ليراه ، (١) .

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : « تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله ، على سبيل التنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل الله . ومعنى « فلم يقل ، أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه ، إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك : رب اغفرلى ... » .

وقوله : « لأطوفن الليلة .. » كناية عن الجماع . قالوا : ولعل المقصود طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولأمانع من أن يستغرق طوافه من عدة ليال . وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على معيشة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقيق ما طلبه .

(١) تفسير الألوسى ٢٣٨ ص ١٩٨ ،

وهذا الرأي في تفسيرنا هو الرأى الصواب في تفسير الآية الكريمة، لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت في الصحيحين وفي غيرها، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء، وسمو منزلتهم، فإن النسيان - الذي لا يترك شيئا من التكليف التي كلمهم الله - تعالى - بها جائز عليهم

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ... » ، أن الوحى مكث فترة لم ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، لأنه نسي أن يقول - عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيئكم على ما سألتننى عنه غدا .. (١) .

ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التي اختبر الله - تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : « وجائز أن تكون هذه الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .. »

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان ، كما يتلى الله أنبياءه ليواجههم ويرشدهم ، ويعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أُناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء ... ، (٢) .

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده في استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا ، وهناك أقوال أخرى ذكرناها في المقصود بفتنة سليمان وبالجد الذي ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهى أقوال سافطة ، تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم - السلام - .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٥٣

(٢) راجع تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٠٠

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان . عبارة عن شيطان تمثل له في صورة لإنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه . وقد ذلك الشيطان على كرسي سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقول بعضهم : إلى سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو موجود لإحدى زوجاته لتمثال أبيها الذي قتله سليمان في إحدى الحروب . وقد بقيت على هذه الحال هي وجوارها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه وله ولد شفاف عليه من الشياطين ، فأمر السحابة بحفظه وتغذيته . ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسي سليمان ، فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد عليه في حفظه ابنه . إلى غير ذلك من الآلهام الساقطة الباطلة ، التي تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وتنافى - أيضا - مع كل عقل سليم ، ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصص الذين يأتون بقصص ما أنزل الله بها من سلطان (١) .

قال أبو حيان - رحمه الله - : « نقل المفسرون في هذه الفتنة وفي إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها أي كتبهم ، وهي عمالا يحمل نقلا ، وهي إما من أوضاع اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان .

وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال فيه : لا طوفن الليلة على سبعين امرأة ... والجسد الملقى هو المولود شق رجل ... ، (٢) .

(١) راجع تفسير ابن جرير ٢٣٣ ص ١٠١ . والآلوسي ٢٣٤ ص ٢٠٠ وغيرهما

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٨ ص ٢٩٧ .

وقوله - سبحانه - : « قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ... » بيان لما قاله سليمان - عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .

أى : قال سليمان - عليه السلام - : يا رب اغفر لي ما فرط مني من ذنوب وزلات ...

« وهب لي ملكا ، عظيما لا ينبغي لأحد من بعدي ، أى : لا يحصل مثله لأحد من الناس من بعدي » إنك أنت ، يا إلهي ، الوهاب ، أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .

وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هي الأم عنده .

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : « دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة ... » (١) .

ولا يقال كيف طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة وما فيها من نعيم دائم .

لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله في الأرض ، والتأكد من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج . وتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو البغى .. وإنما طلبه لانتقوى به على تنفيذ شريعة الله - تعالى - في الأرض .

ولقد وضع الإمام القرطبي هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله - تعالى - . . . ؟

فالجواب : أن ذلك محمود عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - . وسباسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والحفاظة على رسومه وتمظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته . . . وحوشى سليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ، لأنه هو والأنبياء ، أزهى خلق الله فيها ، وإنما سأل ملكا كتبت له ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله : لا ينبغي لأحد من بعدى ، أى أن يسأله . فكان أنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . . . (١) . والفاء فى قوله - تعالى - : : فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . . . والتسخير : التذليل والإنقياد .

أى : دعانا - سليمان - عليه السلام - والنفس منا أن نعطيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه ، وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخصة لينية ، إلى حيث يريد أن تجرى .

وقوله : : تجرى ، حال من الريح . وقوله : بأمره ، من إضافة المصدر لفاعله . أى : بأمره لإياها .

ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : : وسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . . . ، لأن المقصود من الآيتين بيان أن الريح تجرى بأمر سليمان ، فهى تارة تكون لينية وتارة تكون عاصفة وفى كلتا الحالتين هى تسير بأمره ورغبته .

وقوله : : والشياطين كل بناء وغواص ، معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجري بأمره . . . وسخرنا له الشياطين . بأن جعلناهم منقادين لطاعته فمنهم من يقوم ببناء المباني العظيمة التى يطلمها سليمان منهم ، ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى لاشتملت عليها البحار .

وقوله - سبحانه - : : وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، معطوف على كل بناء داخل معه فى حكم البذل من الشياطين .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كانت منهم البناؤون ، وكان منهم الغواصون ، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .

فمقرنين مقرنين : : مقرروا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود . والأصفاد : جمع صفد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغل .

ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : : هذا عطاؤنا ، أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان - عليه السلام - وقلنا له : هذا عطاؤنا لك فامتن أو أمسك بغير حساب ، أى : فاعط من شئت منه . وأمسك عن شئت . فأنت غير محاسب منا لأعلى المطاء ولا على المنع .

ثم بين - سبحانه - ما أعدّه لسليمان - عليه السلام - فى الآخرة ، فقال : : وإن له عندنا ، أى فى الآخرة د لزانى ، لقربى وكرامة ، وحسن مأب ، أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أبواب - عليه السلام - فذكرت نداءه لربه ، وإستجابة الله - تعالى - له وما وهبه من نعم جـراء صبره ، فقال - تعالى - :

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
وَعَذَابٍ (٤١) اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)
وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣)
وَحُذِّ يَدِكَ صَفْئًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ
إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) .

قال الإمام الرازي : : اعلم أن قصة أيوب هي القصة الثالثة من القصص
المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا من أفاض الله عليه
أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان من خصه الله بأنواع البلاء . والمقصود
من جميع هذه القصص الاعتبار .

فكان الله - تعالى - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : أصبر على سفاهة
قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان ، وما كان
أكثر بلاء وعنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا
لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المسكاره ... (١) .

وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص برزاح ، وبتهى نسبه إلى إسحاق
ابن إبراهيم - عليهما السلام - وكانت بهته - على الراجح - بين موسى ويوسف
- عليهما السلام - .

وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد .. فابتلى في ماله وولده وجسده
وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافاه الله - تعالى - على صبره ، بأن أجاب
دعاه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ...

وقوله - سبحانه - : وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ... معطوف على قوله - تعالى -
قبل ذلك : وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ... ، .

ود النصب ، - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع - بضم النون والصاد
التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبني الأمر ، إذا شق عليه - وأتعبه ،
والعذاب : الآلام الشديدة التي يحس بها الإنسان في بدنه .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام -
حين دعا ربه - تعالى - فقال : يارب أنت تعلم أنى قد مضى الشيطان بالهموم
الشديدة ، وبالآلام المبرحة التي حلت بجسدى ، لجعلتنى فى نهاية التعب
والمرض .

وجمع - سبحانه - فى بيان ما أصابه بين لفظى النصب والعذاب ، للإشارة
إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات
التي كانت بين يديه ، وهو ما يشير إليه لفظ النصب والآلم الكثير الذى حل
بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ
العذاب .

ونصب مامسه من نصب وعذاب إلى الشيطان ، تأدياً منه مع ربه - عز وجل -
حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه - ، وإن كان المكل من خلق الله
- تعالى - .

وفى هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ
اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على
خالقه - عز وجل - شيئاً معيناً ، أو يطلب شيئاً معيناً .

قال صاحب الكشف : هـ الطف أيوب - عليه السلام - فى السؤال ،
حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ...

ولم يصرح بالمطلوب ، ويحكى أن عجوزاً تعرضت لسلطان بن عبد الملك
فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مشيت جرذاً - أى فئران - ببنى
على المعصى ۱۱

فقال لها : أظنفت في السؤال ، لا جرم لأجعلها نثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا ... (١) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الأنبياء : ، وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا في غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تنأثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق (٢) ...

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله - تعالى - عظم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التي تؤدي إلى ابتعاد الناس عنهم ، سوا أكانت أمراضا جسمية أم عصبية أم نفسية ...

والذي يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التي لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل في الصبر ، فكانت غاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

وقوله - سبحانه - : داركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول مخدوف معطوف على قوله نادى ، .

وقوله : داركض ، بمعنى الدفع والتحريك للشيء . يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .
والمغتسل : اسم للمكان الذي يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذي يغتسل به .

(١) تفسير الكشاف ٢ - ص ١٣٠

(٢) راجع على حبيب المثال تفسير الآلوسى ٢٣ - ص ٣٠٦ ، والقرطبي

وقوله : : هذا مقتسل ، مقرر لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء بما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه إلى الدواء ، بأن قلنا له : إركض برجلك أى : أضرب بها الأرض فضر بها فنبعت من تحت رجله عين من الماء ، قلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا لغسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ . بإذننا من كل داء .

ثم بين - سبحانه - أنه بفضله وكرمه لم يكف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى - :
« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . »

والآية السكرية معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق . أى : لاستجاب أيوب لتوجيهنا ، فغسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله . جمعناهم معه بعد أن كانوا متفرقين ، أو شفيانهم بعد أن كانوا مرضى . . . ووهبنا له مثلهم معهم ، أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفاعته من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله رحمة منا ، أى . من أجل رحمتنا به « وذكرى لأولى الألباب » أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجأوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الألوسي ما ملخصه : : قوله : « ووهبنا له أهله ، انجهر على أنه - تعالى - أحياله من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشقت منهم . وقيل - وإليه أمل - وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم .

العيش ، فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان . والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - مئة أخرى من المنن التي من بها على عبده أيوب فقال :
 وخذ بيدك ضعفًا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد
 إنه أواب . .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : « إركض ، أو على « وهبنا ،
 بتقدير : وقبنا له .

والضعف في اللغة : القبضة من الحشيش لاختلاط فيها الرطب باليابس .
 وقيل : هي قبضة من هيدان مختلفة بجمعها أصل واحد .
 والحنث : يطلق على الإثم وعلى الحلف في اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئاً
 وأن عدم الضرب يؤدي إلى حنثه في يمينه ، أي : إلى عدم وفائه فيما حلفه عليه
 فنهاه الله - تعالى - عن الحنث في يمينه ، وأوجد له المخرج الذي يترتب عليه
 البر في يمينه دون أن يتأذى المضروب بأي أذى يؤلمه .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب ، وسبب هذا الضرب ، روايات لعل
 أقربها إلى الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته في حاجة له ، فأبطأت عليه ،
 فأقيم أنه إذا برى من مرضه لا يضربها مائة ضربة ، وبعد شفائه رخص له
 ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهي المعبر عنها بالضعف - وبها مائة عود ، ثم
 يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة
 بزوجته التي كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه
 خير قيام . . .

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، بذلك تكون غير حاث في عيبتك .

هذا ، وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة ، أهمي خاصة بأيوب ، أم هي عامة للناس ؟

فقل بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذي جاء في الآية لأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده ، لأن الله - تعالى - لم يبين لنا في الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه الضرب ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما رضى به - تعالى - فقال : إنا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب .
أي : إنا وجدنا عبدا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو ، أنه كثب الرجوع إلينا في كل أحواله .

وبذلك نرى الآيات السكرية قد ساقنا لنا جانباً من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .

• • •

وبعد أن عرض - سبحانه - قصص سليمان وأيوب بشيء من التفصيل . أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال - تعالى -

(١) راجع تفسير القرطبي - ١٥ من ١١٢ ، وتفسير الآلوسي ج ٢٣ ص ٢٠٨

« واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي ،
وَالْأَبْصَارِ (٤٥) وَإِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا
لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) » .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ،
ويعقوب ، أصحاب القوة في الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية في
أمور الدين .

فلا يدي مجاز مرسل عن القوة . والأبصار جمع بصير بمعنى بصيرة على
سبيل المجاز - أيضا - ويصح أن يكون المراد به - وله : « أولى الأيدي
والأبصار ، أى : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر
الأيدي من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر لأن
من طريقها تكون العلوم النافعة .

قال صاحب الكشف : « قوله : « أولى الأيدي والأبصار » يريد : أولى
الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في الله
ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء فى حكم
الزمنى - أى المرضى - الذين لا يقدرّون على إعمال جوارحهم . والمسلوب
العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عيال الله ،
ولا من المستنصرين فى دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع
كونهم متمكنين منهما ... » (١) .

ثم بين - سبحانه - أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة ، فقال
تعالى : « وَإِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ... » .

ومعنى : « أخلصناهم » : خالصين لطاعتنا وعبادتنا . والباء فى قوله
« بخالصة » ، للسببية ، وخالصة اسم فاعل . والتنوين فيها للتفخيم ، وهى صفة
لمحذوف .

وذكرى الدار ، بيان لها بعد إبهامها للتفخيم . وعلمها النصب بإضمار
أعنى ، أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هى .

وذكرى ، مصدر مضاف لمفعوله ، وتعرف الدار للعهد . أى : الدار
الآخرة .

والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، خالصين
لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهيها ، لا تصافهم بخالصة من
كل مالا يرضينا ؛ وهى تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

وقرأ نافع « بخالصة » بدون تنوين على الإضافة لذكرى ، من إضافة
الصفة إلى الموصوف ، أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعافية .
أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

ثم أنفى عليهم - سبحانه - بثنا . آخر فقال : : ولهم عندنا لمن
المصطفين الأخيار .

أى : وإن هؤلاء العباد لهم عندنا من مصطفيناهم لحل رسالتنا ، واخترناهم
لتبليغ دعوتنا ، ومن العباد الأخيار . أى : الذين يفضلون على غيرهم فى المناقب
الحميدة ، والصفات الكريمة . جمع خير - بإسكان الياء - أفعال تفضيل .

ثم أنفى - سبحانه - على عدد آخر من عباده الصالحين فقال : : واذكر
إسماعيل وإسحق وذو الكفل وكل من الأخيار .

وإسماعيل هو ابن إبراهيم - عليهما السلام - ، وام يذكر فيما سبق مع أبيه
ومع أخيه إسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اهتماماً بشأنه ، وللإشارة إلى
عراقته فى الصبر وفى تحمل الشدائد .

واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على
بنى إسرائيل ، ثم منحه الله - تعالى - النبوة . وكانت وفاته في حوالى سنة ٨٤
ق م . ودفن بالسامرة .

وذا الكفل : قيل هو ابن أيوب . بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقبلاً
بالشام . والآكثريين على أنه نبى لذكره معهم .

وقيل : هو رجل صالح من بنى إسرائيل ، ولم يكن نبياً ، وسمى بذلك
لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوفى بذلك .

والتنوين فى قوله - تعالى - : وكل من الآخيار ، عوض عن المضاف
إليه . أى : وكل هؤلاء الأبدال الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل
والصلاح والصبر على الأذى .

* * *

ثم عقيبت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين
الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرنا جانباً عما يدور بين أهل
النار من مجادلات . . فقال - تعالى - :

« هَذَا ذِكْرُ » وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ
لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِأَكْبَهٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرْزُقْنَا مَالُهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ
لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حِمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ

مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَامرَجِبَابُكُمْ،
 أَنْتُمْ قَدْ نَمْتُمُوهُ لَنَا قَبْسَ الْقَرَارِ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ
 عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ
 الْأَشْرَارِ (٦٢) اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ
 لَحَقُّ تَخَاصُمٍ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « هذا ذكر » ، يعود إلى ما ذكره
 - سبحانه - في الآيات السابقة، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم. والذكر:
 الشرف والفصل .

أى : هذا الذى ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم ، وذكر جميل
 يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال الألوسى : « هذا » إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم
 « ذكر » ، أى : شرف لهم ... والمراد أن في ذكر قصصهم ... شرف
 عظيم لهم .

أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو القرآن ،
 وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقول الجاحظ في
 كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع في باب آخر .

ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر :
 هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر في مثل ذلك كثيرا ، وهليه
 « هذا وإن للطاغين لشر مآب ... » (١) .

وقوله - تعالى - : «وإن للمتقين لحسن مآب ، بيان لما أعد لهم - سبحانه - في الآخرة من عطاء جزيل ، وثواب عظيم .

والمآب : اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع . والمراد بالمتقين : كل من تحققت فيه صفة التقوى والخوف من الله - تعالى - ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله - تعالى - وإخبارهم لتبليغ رسالته .
أى : وإن المتقين في الآخرة لمنزل كريم يرجعون إليه في الآخرة ، فيجدون فيه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
ثم فصل - سبحانه - ما أعد لهم في الآخرة من تكريم فقال : « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » .

والعدن في اللغة : الإقامة الدائمة في المكان . يقال : عدن فلان بمكان كذا ، إذا أقام به إقامة دائمة . وجنات : بدل اشتيال من قوله : « حسن مآب » ،
أى : هؤلاء المتقون أكرم مقام في الدنيا بالذكر الحسن ، وتكريمهم في الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم ، والحفاوة بمقدمهم .
« متكئين فيها .. » ، أى : فى تلك الجنات . وانتصب لفظ « متكئين » على الحال من ضمير « لهم » ، والعامل فيه قوله « مفتحة » .

وقوله : « يدهون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » استئناف لبيان حالهم في الجنات ، أو حال - أيضا - من ضمير « لهم » .
أى : أن المتقين لهم جنات عظيمة . فأنحة لهم أبوابها على سبيل التكريم ، ويجلسون فيها جلسة الأمن المطمئنة المنعم ، حيث يتكئون ويستندون على الأرائك ، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة ، ومن الشراب الطيب ، فيلبى طلبهم في الحال .

ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب ، وما بينه - سبحانه - في قوله :
« وعندهم قاصرات الطرف أتراب » .

أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياء ، قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم ، ولشدة محبتهم لهم ، وهن متساويات فى السن والجمال والأخلاق الكريمة .

فمعنى أزاب : أنهن متساويات فى السن والجمال والشباب . مأخوذ من التراب ، لأن التراب يمسهن فى وقت واحد لانحداد مولدهن : أو من الترائب وهى عظام الصدر المتماثلة .

ثم بن - سبحانه - أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح فى الدنيا فقال : وهذا ما توعدون اليوم الحسب .

واللام فى قوله : اليوم ، للتعجيل ، أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعيم الجنات ، هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب .

ثم ختم - سبحانه - جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لا ينقطع ولا ينقص فقال : وإن هذا الرزقنا ماله من نفاد .

أى : إن هذا الذى ذكرناه لكم - أيها المتقون - من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم ، هو رزقنا الدائم لكم ، وليس له من نفاد أو انقطاع أو انتقاص . يقال نفد الشيء نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . أى غير مقطوع .

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم . جاء الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم - كما هى عادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب - فقال - تعالى - : : هذا ولئلا للطاغين أشرف مآب .

واسم الإشارة هنا خبر لمبتدأ محذوف . أى الأمر هذا . أو مبتدأ محذوف الخبر أى : هذا للمؤمنين .

وجملة ، وإن للطاغين لشر مآب ، معطوفة على جملة هذا على التقديرين .
 أى : الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - بالنسبة للمتقين ،
 أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود في الكفر والجحود والإعراض عن الحق ،
 فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

« جهنم يصلونها فبئس المهاد » أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنة التي
 فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بميرها ولهيها فبئس فيها
 ويفترشون نارها ، وبئس هي فراشا ومهادا .

« هذا فليذوقوه حميم وغساق » واسم الإشارة هنا رفوع على
 الابتداء ، وخبره قوله « حميم وغساق » ، وما بينهما اعتراض .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة . والغساق : صديد يسيل من
 أجساد أهل النار . مأخوذ من قولهم غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقانا
 إذا سال منه الصديد وما يشبهه .

أى : هذا هو عذابنا الذى أعدناه لهم ، يتمثل فى ماء بلغ الغسابة فى
 الحرارة ، وفى قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء
 كفرهم وجحودهم .

« وآخر من شكله أزواج » أى : ليس عذابهم مقصورا على الحميم والغساق ،
 بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه فى شكلها وفى فظاعتها وفى شدتها ،
 الحميم والغساق .

فقوله « وآخر » مبتدأ ، وقوله « من شكله » صفة ، وقوله « أزواج »
 خبره .

والآية الكريمة معطوفة على الآية التى قبلها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل

الندم والتمسعر والتفريع ، فقال : « هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرحبا بهم لأنهم صالوا النار » .

والفوج : اجمع الكثير من الناس ، والافتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . يقال : قحم فلان نفسه في الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية .

أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقى النار معهم ، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التفريع والتأنيب : « هذا فوج ، أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم في الضلال » .

« مقتحم معكم ، أى : داخل معكم النار كرها وعلى غير إختيار منه ، وإنما يساق إليها سوقا في ذلة ومهانة » .

وهنا يقول زعماء الكفر : لا مرحبا بهم لأنهم صالوا النار ، أى : لا مرحبا ولا أهلا بهؤلاء الداخلين في النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيها مثلنا ، وإن استطعموا أن يدفعوا شيئا من حرها عنا ...

فقوله « مرحبا ، مفعول به لفعل محذوف وجوبا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحبا بهم . والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكافأ رحبا بل ضيقا ، وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : « قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم ... » .

أى : قال الداخلون في النار وهم الاتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحبا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم .

« أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، أى : لا مرحبا بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين نسبتم لنا دخول النار معكم ، إذ دعوا مموفا في الدنيا إلى الكفر فأتبعناكم ، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم » .

فاجلجلة السكرية تحليل لأحقية الرؤساء بدخول النار ، ويقولها الاتباع على سبيل التشفي منهم .

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار . .

أى : ياربنا من كان سببا في نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذابا مضاعفا في النار ، لأننا لولا هؤلاء الرؤساء ولضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم .

وشبيه به هذه الآية قوله تعالى - حكاية عنهم : وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلونا السبيلا . ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا .

ثم حكى سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر ، عندما يدورون بأعينهم في النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا فقال : وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . . .

أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتمجيب وهم ملقون في النار ما لنا لا نرى معنا في جهنم رجالا من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم في الدنيا من الأراذل الأخساء ، أسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم .

قال القرطبي : قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - أبو جهل : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ، وأعجبا لأبي جهل يقول : مسكين أسلم ابنة عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو . قال :

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلى منه أسود مظلم ،^(١) ثم حكى القرآن ما سأله هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما تلفتوا في النار ،

فلم يجدوا أحدا من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال:
«أخذناهم سخرىا، أم زأغت عنهم الأبصار» .

أى : أنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين
الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا ، فقـالوا فيما بينهم : ما بالنا لا نرى
الرجال الذين كنا نسخر منهم في الدنيا ، ألم يدخلوا معنا النار ؟ أم دخلوها
ولكن أبصارنا لا ترام وزأغت عنهم ؟ .

فهم يتحصرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم في النار ،
وليس معهم من كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم فقراء المؤمنين .

قال صاحب الكشف : وقوله : «أخذناهم سخرىا» قرئ بلفظ الإخبار
على أنه صفة لقوله «رجالا» مثل قوله «كنا نعدم من الأشرار» . وقرئ
بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخرار منهم .

وقوله : «أم زأغت عنهم الأبصار» له وجهان من الاتصال : أحدهما :
أن يتصل بقوله : «مالنا» .

أى : مالنا لا ترام في النار ؟ كأنهم ليسوا فيها ، بل أزاغت عنهم أبصارنا
فلا ترام وهم فيها ؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن
يكونوا من أهل النار ، إلا أنهم خفي عليهم مكانهم .

الوجه الثانى : أن يتصل بأخذناهم سخرىا . . . على معنى أن الفعلين فعلنا
بهم : الاستسخرار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقيق ، وأن أبصارنا كانت تعمل
عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم . . . ، (١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : «لأن ذلك لحق تخاصم أهل النار»
يعود إلى التخاصم الذى حكى عنهم .

وقوله : «لحق» خبر إن . وقوله : «تخاصم» خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة
بيان لاسم الإشارة ، وفي الإبهام أولا والتبيين ثانيا ، زيد تقرير له .

أى إن ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من تخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم ... حق لاشك فيه ، وثابت ثبوتاً لا يختلف عليه عاقلان .

وبذلك نكون الآيات السكرية قد ساقنا بأبلغ بيان ما أعدده الله - تعالى - للمتقين من ثواب ، وما أعدده للطاغين من عقاب .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية ، بملقين رسوله - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يرد به على المشركين المعترضين على دعوته ، وبينان موقف إبليس من أمر الله - تعالى - له بالسجود لآدم . وبينان ما أعدده - سبحانه - لإبليس وجذده من عذاب . فقال - تعالى - :

« قل إنما أنا مُنذِرٌ، وما مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَتُتَمَعْنَهُ مَعْرُضُونَ (٦٨) مَا كَان لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقُومُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي

إِلَى يَوْمٍ يُعْمَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبَئِزَّكَ لَا فَوَينَهُمْ أَتَجْمِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَتَجْمِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَافِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : إنما وظيفتي الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتي .

واقصر على الإنذار مع أنه مبشر - أيضا - ، لأنه المناسب لردم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن ... الخ .
وقوله - سبحانه - : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، نفى لكل شريك مع الله - تعالى - في ذاته ، أو صفاته ، أو في خلقه لهذا الكون .

أي : ليس هناك من إله سوى الله - تعالى - في هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد ، القاهر فوق عباده ، الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شيء ، الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف ذاته في هاتين الآيتين بنفس صفات ؛ تليق بذاته وبيان أن الشرك به - سبحانه - في العبادة أو الطاعة ظلم عظيم ، وجهل فاضح .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بما قل أن يعرض عنه فقال : « قل هو نبي عظيم . أنتم عنه معرضون » .

أى : قل - يا محمد - هؤلاء المشركين : إن ما جئتمكم به من عند ربي من قرآن كريم ، ومن هدايات بها تسعدون في دنياكم وآخرتكم ، هو خير عظيم ، يجب أن تلقوا إليه أسماكم ، وأن تهيووا نفوسكم لقبوله . . . ولكنكم قابليتموه بالإعراض والصدود ، لفرط غفلتكم ، وشدة جهالتكم ، وتماديكم في كفركم .

فالأية الأولى دعوة هامة لهم لكي يقلعوا عن شرهم ، والأية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم .

ثم نفى - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه أن يكون عنده علم بشيء من أخبار الملائكة ، إلا عن طريق الوحي فقال - كما حكى القرآن عنه - : « ما كان لى من علم بالملائكة إلا ما يوحى إليهم » .

والمراد بالملائكة : عالم السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

قال القرطبي : « الملائكة الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدى . اختصموا في أمر آدم حين خلق ، فقالوا : « أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . . » وقال إبليس : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . وفى هذا بيان أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى . . . » (١) .

وقال ابن كثير : « وقوله : « ما كان لى من علم بالملائكة الأعلى إلا ما يوحى إليهم » أى : لولا الوحي من ابن كذا أدري باختلاف الملائكة الأعلى . يعنى فى شأن آدم ، وامتناع إبليس من السجود له ، وم حاجته ربه فى تفضيله عليه . . . » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٠ .

فآية تنفي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - علم شيء من أخبار الملائكة إلا عن طريق الوحي .

وجملة : إن يوحي إلى إلا إنما أنا نذير مبين ، معترضة بين إيراد اختصاصهم على سبيل الإجمال ، ثم إبراده في الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل .
و ، إن ، نافية . ونائب فاعل د يوحي ، ضمير تقديره هو . يـ . ود على المفهوم مما سبق . وهو شأن الملائكة الأعلى ، و إنما ، بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل .

أى : ليس لى من علم بما يدور في الملائكة الأعلى إلا عن طريق الوحي ، وهذا الوحي لا ينزل على إلا من أجل أنى رسول من عند الله - تعالى - أنذركم بما يسكلفني به إندارا واضحا بينا .

ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك فى قوله : « ما كان لى من علم بالملائكة الأعلى إذ يختصمون » ، فقال : إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

و « إذ » فى قوله : إذ قال ربك . . . ، بدل من قوله : إذ يختصمون ، ، لاشتمال ما فى خبرها على تفصيل تلك الخصومة . وقيل هى منصوبة بتقدير اذكر .

قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، ما يشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعا امتثلوا لأمر الله - تعالى - بإعداد إبليس .
والمراد بالبشر : آدم - عليه السلام - مأخوذ من مباشرة للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرية ، أى الجلد والهيئة .

أى : لم يكن لى من علم بالملائكة الأعلى وقت اختصاصهم ، حين قال الله - تعالى - للملائكة ومعهم إبليس : « إني خالق بشرا من طين ، هو آدم - عليه السلام - .

فإذا صورته على صورة "بشر"، وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التي هي من أمرى - ولا علم لأحد بها سواى - ، فاسجدوا له - بجود تحية وتكريم . ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خالق من طين ، وبين وصفه فى آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حام مسنون ، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة .

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته، للإشارة بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال - تعالى - : **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** .

والفاء فى قوله : **وَقَعُوا لَهُ** ... جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أى : فانسقطوا وخرروا له حالة كونكم ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة .

ثم بين - سبحانه - ما كان بعد ذلك فقال : **وَفَسَّجِدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** .

أى : امثل الملائكة لأمر الله - تعالى - فسجدوا جميعاً لآدم فى وقت واحد ، إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته ، وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله - تعالى - .

قال صاحب الكشف : **وَلَفْظُ كُلِّ** ، للاحاطة . وأجمعون : الاجتماع . فأفاداً ما أنهم سجدوا عن آخرهم ، ما بقى منهم ، لك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعاً فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات .

فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذى لا يسوغ - و السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا ياباه العقل ، إلا أن يعلم الله تعالى فيه مفسدة فينبى عنه ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال: « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ... »

وما في قوله « لما خلقت » مصدرية ، ويراد من المصدر وهو الخلق اسم المفعول . أى : المخلوق بيدي . أو موصولة ، وخلقت صلتها ، والعائد محذوف ، أى : للذي خلقته بيدي .

ومذهب السلف في مثل هذا التعبير ، أن اليد - مفردة أو غير مفردة - إذا وصف الله تعالى بها ذاته ، فهي صفة ثابتة له ، على الوجه الذي يليق بكمالها ، مع تزعمه - سبحانه - عن مشابته للحوادث . ومذهب الخلف : تأويل اليد بالقدرة أو النعمة . والتثنية في يدي ، للتأكيد الدال على مزيد القدرة في خلقه .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع : يا إبليس ما الذي منعك عن السجود لآدم الذي خلقته بيدي ؟
« وأستكبرت أم كنت من العالين ، أى : أمنعك عن السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق ؟ الاستفهام للتوبيخ والإنكار .

« قال أنا خير منه ، أى : قال لإبليس في الجواب على ربه تعالى : أنا خير من آدم .

« خلقتني من نار وخلقته من طين ، فهو - لعنه الله - يرى أن النار أفضل من الطين ، ولا يصح سجود الفاضل للمفضول .

ولا شك أن هذا التعليل من إبليس في نهاية سوء الأدب ، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضي صحة المدعى ، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل ، إذ النار يطفئها الطين ...

وقد رد - سبحانه - على هذا التناول من إبليس بقوله : « فأخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » .

والفاء في قوله « فأخرج » لقرئب الأمر بالطرد على ما حدث منه . والضمير في « منها » يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيهما .

أى : قال - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر : ما دمت يا إبليس قد عصيت أمرى ، فأخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تذكريم لك ، فإنك رجيم أى : مطرود من رحمتى . وإن عليك لعنتي وخصي إلى يوم القيامة ، فإذا ما جاء هذا اليوم ازدادت لعنتي عليك .

وقال رب فأنظرنى ، أى : فأمهلى « إلى يوم يعثون » ، أى : فأخرنى ولا تمتنى إلى يوم البعث ، لأنى لا يمكن من إغواء ذرية آدم .

« قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » ، أى : قال - سبحانه - قد أجبك لك ما تقتضيه حكمتى ، ردو أنى سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذى حددته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذى طلبه إبليس .

« قال ، أى : إبليس « فبمزنك » ، أى : فبحق سلطانك وقهرك لاغوينهم أجمعين ، أى : لاغوين بنى آدم جميعا بالمعاصى ، ولاضلنهم ولامنينهم ولاعبادك المخلصين ، فلا يتأثرون بإغوائى ، لأنى لاقدرة لى عليهم .

« قال فالحق والحق أقول . لا ملأن جهنم منك وعن تبعك ممنون أجمعين » ، وقوله « فالحق » مبتدأ محذوف الخبر أى : فالحق قسمى لا ملأن وقوله : « والحق أقول » ، لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقوم ، قسم عليه لإفادة الحصر .

والجمله من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والمقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية .

أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى وبمبنى -
ولا أقول إلا الحق - ، لأملاّن جهنم من جنسك يا إبليس ، وعن تبعك من
الناس جميعا ، لأن هذا جزاء من عصانى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم -
أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أهراض الدنيا
فقال : قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكافين . إن هو إلا ذكر
للعالمين . واتعلن نبأه بعد حين .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين وغيرهم : إني لا أسألكم
أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون
ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله
وصادق فيما أبلغه عنه .

وما هذا القرآن الذى جئتكم به من عند ربى ، إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف
عظيم لهما فى إتباع أوامره ونواهيه .
واتعلن - أيها الناس - صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت
محدد فى علم الله - تعالى - .

وبعد : فهذا تفسير لسورة ص ، نسأل الله تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .
كتبه الراجى عفوربه
محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - صباح الثلاثاء ٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٠/٨/١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة ص»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	١٥٩
١	ص والقرآن ذى الذكر ...	١٦٣
١٢	كذبت قباهم قوم نوح ...	١٧٦
١٧	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ...	١٨١
٢٧	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ...	١٩١
٣٠	ووهبنا لداود سليمان نعم المبد ...	٢٠٣
٤١	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه ...	٢٠٥
٤٥	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ...	٢٢١
٤٩	هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ...	٢١٣
٦٥	قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله ...	٢٣١

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الزَّمَرِ

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفت جمهورية مصر العربية

(الجزء الثالث والرابع العشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
« صدق الله العظيم »

المقدمة

١ - سورة الزمر ، هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف
أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثامنة والخمسون من السور المكية ، وكان
نزلها بعد سورة سبا .

وقد ذكر صاحب الإتيان أنها تسمى - أيضاً - بسورة «الغرف» ، لقوله
- تعالى - : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ... » .

٢ - ويرى المحققون أن السورة بكاملها مكية .

قال الألوسي . عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ولم يستثنى ، وأخرج النحاس
عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في
وحشى قاتل حمزة ، وهي قوله - تعالى - : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ... » .

٣ - وآياتها خمس وسبعون آية في المصحف المكوفي ، وثلاث وسبعون
في المصحف الشامي ، واثنان وسبعون في غيرهما ... (١) .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذي أنزل القرآن
بالحق على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « والذي خالق السموات والأرض بالحق
والذي خلق الناس جميعاً من نفس واحدة » ، قال - تعالى - : « تنزيل الكتاب من
الله العزيز الحكيم » ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصاً له الدين
ألا الله الدين الخالص ... » .

٥ - ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن حالة الإنسان عندما ينزل به الضر وعن الجزاء الحسن الذي أعدّه سبحانه للصّابرين ، وعن العقاب الاليم الذي أعدّه للخاسرين .

٦ - قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أولى المسلمين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين

٧ - ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته في هذا الكون من طريق إنزاله الماء من السماء ، وعن طريق إنزاله أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم . . .

قال - تعالى - : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما . إن في ذلك لذكرى لأولى الأبصار . . .

٨ - ثم دعا - سبحانه - الناس بعد ذلك إلى تدبر آيات القرآن ، المشتمل على الهدايات والإرشادات والأمثال ، وإلى اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي جاءهم بالصدق ، لأن هذا الاتباع يؤدي إلى تسكين شيطانهم ، ورفع درجاتهم عند ربهم . . .

قال - تعالى - : ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ، قرآننا هريبا غير ذي عوج لعلمهم يتقون

٩ - وبعد أن عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله

« تعالى » في قبضه للأرواح ، وفي كشفه الضر عن خلقه ... أتبت ذلك
بحاجة المشركين ، وبيان مأم عليه من ضلال ، وبيان أحوالهم عند ما يذكر
إله - تعالى - وحده ، وبيان سوء عاقبتهم ...

قال - تعالى - : « وإذا ذكر الله وحده اشمزت قلوب الذين لا يؤمنون
بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قل اللهم فاطر
السموات والأرض عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا
فيه يختلفون ... »

٩ - ثم ساق - سبحانه - لعباده ما يدل على سعة رحمته بهم ، ودعاهم إلى
الإجابة إليه ، من قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه الندم ...

قال - تعالى - : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيؤا إلى
ربكم وأسلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ... »

١٠ - ثم تحدثت السورة في أواخرها عن أحوال السعداء والاشقياء يوم
القيامة ، وعن أهوال هذا اليوم ...

قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض
إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ... »

وختمت ببيان ما أعدّه - سبحانه - للكافرين من شديد العقاب ، وما أعدّه
للمتقين من كريم الثواب ...

قال - تعالى - : « وسبق الذين انقروا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها
وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث
نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون
بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

١١ - هذا ، والمتأمل في سورة « الزمر » بعد هذا العرض المجمل لها ، يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتي :

(١) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، تارة عن طريق خلق السموات والأرض ، وتكوير الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الناس جميعاً من نفس واحدة ... وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد ، وتارة عن طريق توفى الأنفس حين موتها ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال ، كما في قوله - تعالى - : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلان سلما لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » .

(ب) تذكير الناس بأهوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب . وبعث ونشور ، وفرح يعلو وجره المتقين ، وكآبه تجمل وجوه الكافرين ... نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ، وينجي الله الذين اتقوا بمغافرتهم ، لا يحصهم سوء ولا هم يحزنون » .

وفي مثل قوله - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ... » . (ج) تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحجج والإجابات التي يرد بها على شبهات المشركين ، وعلى دعاوهم الباطلة ، فقد تكرر لفظ « قل » في هذه السورة كثيراً ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين » . « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ... » .

« قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون » . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » .

« قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » .
 (د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، بأسلوب
 يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكارى ، الذى حذف فيه الخبر للعلم به من
 سياق الكلام ..

ومن ذلك قوله - تعالى - : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا قائما يحذر
 الآخرة ويرجو رحمة ربه » ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، !
 وقوله - تعالى - : « أفن حق عليه كفة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » .
 وقوله - سبحانه - « أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه
 فويل للفاشية قلوبهم من ذكر الله » .

وقوله - عز وجل - : « أفن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » ، وقيل
 للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، .

هذه بعض المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد
 أخرى يدركها القارىء لهذه السورة الكريمة بتدبر وتفكير ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا .
 والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
 وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ ١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال تعالى :

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ خَلِصًا لَهُ الدِّينُ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ،
 وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى
 إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
 كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
 مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) » .

أفتحت سورة الزمر ، بالنفاذ على القرآن الكريم ، وبهذه مصدره .
 قال - تعالى - : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم ، قد نزل عليك - يا محمد - من لدن
 الله - تعالى - العزيز ، أى : الغالب على كل شئ . « الحكيم » ، فى كل تصرفاته
 وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولاً مفترى كما زعم الجاحدون الذين أنعم الله
 بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .

والذى يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - إذا ذكر تنزيل
 لكتابه ، أنبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجميلة .

فى أول سورة غافر نجد قوله - تعالى - : « وحم ، تنزيل الكتاب من
 العزيز العظيم » .

وفي أول سورة الجاثية نجد قوله - تعالى - : دحم ، تنزيل الكتاب من
الله العزيز الحكيم

وفي أول سورة الاحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .

وفي أول سورة فصلت نجد قوله - تعالى - : دحم تنزل من الرحمن
الرحيم

وفي صدر سورة يس ، نجد قوله - سبحانه - : د تنزيل العزيز الرحيم .
لتنذ قوما أنذر آباؤهم

ولا يخفى أن ذكره - سبحانه - لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل
هذا القرآن على قلب رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فيه مافيه من الثناء على
القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله - تعالى - وحده ؛ الذي له
الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى
العمل بهداياته ، فقال - تعالى - : د إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق

أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله - تعالى - الغالب على كل شئ .
والحكيم فى أقواله وأفعاله ، وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا
ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب
قبوله والعمل بكل مافيه . . .

قال الألوسى : د قوله - تعالى - : د إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق . . .
ولكونه نازلا بالحق ، وتوضئة لما يذكر بعد . . . أو شروع فى بيان
المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل . . . والباء متعلقة بالإنزال ،
وهى للسببية . أى : أنزلناه بسبب الحق . أى : لإثباته وإظهاره . أو بمحذوف
وقع حالا من المفعول وهى للملابسة . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .

والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتما .. (١) .

واقاء في قوله - تعالى - : فاعبد الله مخلصا له الدين ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود - عز وجل - والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله - تعالى - .

أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذا الكتاب بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تخاص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصا تاما ، لا يحوم حوله رياء أو تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله - تعالى - وحده .

قال الشوكاني : وفى الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها عن الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية ، كفى حديث : إنما الأعمال بالنيات .. ، وحديث : لا قول ولا عمل إلا بنية ، (٢) .

وجملة : ألا لله الدين الخالص ، مؤكدة ومقررة لمضمون ما قبلها من وجوب إفراة العبادة والطاعة لله - تعالى - وزادها تأكيداً وتقريراً لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح : ألا ، واشتمالها على أسلوب القصر .

أى : ألا إن لله - تعالى - وحده - وليس لأحد سواه - ، الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء ، والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته التى لا يعجزها شيء ...

ثم بين - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زافى ، إن الله يحكم بينهم ...

(١) تفسير الآلوسى - ٢٣ ص ٢٣٢ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٤٨ .

فالمراد بالموصول المشركون ، وعمله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله - تعالى - بعد ذلك : « إن الله يحكم بينهم » ، وجمله « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، فى محل نصب على الحال بتقدير القول . والاستثناء « فمخرج من أعم العلل » . والزلفى : اسم أقيم مقام المصدر الذى يتلاقى معه فى المعنى . والمأخوذ من قوله « ليقربونا » .

أى : لله - تعالى - وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينههم عن ذلك : « إنما ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكي تقربنا إلى الله قربى » ، ولتكون شقيقة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

« إن الله يحكم بينهم » ، أى : بين هؤلاء المشركين وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فيما هم فيه يختلفون ، من أمر التوحيد والشرك ، بأن يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب .

« إن الله - تعالى - لا يهدى » ، أى : لا يوفق للاهتداء للحق ، من هو كاذب كفار .

أى : من كانت دائمة الكذب على دين الله ، شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه .

ثم أبطل - سبحانه - كل تصور للشرك والشركاء ، بأن زعمه - تعالى - ذاته من إتخاذ الولد فقال : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأصطفى ما يشاء » ، سبحانه هو الله الواحد القهار .

أى : لو أراد الله - تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - أن يتخذ ولدا ، لأختار من خلقه ما يريد المصلون ، لم يكنه - سبحانه - لم يختار أحدا لم يكن

ولذلك ، قدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيز ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله .

• سبحانه هو الله الواحد القهار ، أى : تنزهه - عز وجل - عن شئ من ذلك ، فإنه هو الله الواحد فى ذاته وفى صفاته ، القهار لكل مخلوقاته .

قال الإمام ابن كثير : بين - تعالى - فى هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهالة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزيز وعيسى فقال : • لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأصطفى مما يخلق ما يشاء ، أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون .

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تبييضهم فيما إدعوه وزعموه ، كما قال : • لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، وكما قال : • قل إن كان للرحمن ولد فأما أول العايدين .

كل هذا من باب الشرط ، ويجهوز تطبيق الشرط على الاستعجال القصيدة المتكلم ، (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : • إرادة إتخاذ الولد هنا مجتعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات . وإتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القاطع فتستحيل إرادته . • وجعلها فى الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لاية تنفى إمكانها فضلا عن وقوعها . وقد هرف فى فصيح الكلام : تعليق الجمال على الجمال جوازا ووقوعا .

على أن الولاية تقتضى التجانس بين الوالد والولد . • إذ هو قاطبة منه ، وقد ثبت أن كل ما عداه - سبحانه - مخلوق له ، فيلزم عن حسب

العباد أن يكون المخلوق من جنس الخالق ، وهو يستلزم حدوث الخالق ،
أو قدم المخلوق ، وكلاهما محال ... (٤١) .

• • •

ثم أقام - سبحانه - المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التأمل في ملكوت السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق بني آدم من نفس واحدة ... فقال - تعالى - :

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ
النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ،
أَلَا هُوَ الْمَزِيدُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَامِ نَسَابًا أَزْوَاجٍ يَخْلَقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَافًا مِنْ بَشَرٍ خَلَقَ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ،
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَغْنَىٰ عَنْكُمْ
وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) » .

فقوله - تعالى - : « خلق السموات والأرض بالحق ، تفصيل لبعث
أعماله الدال على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

أي : الله وحده هو الذي أوجد هذه السموات وتلك الأرض ، إيجاباً

(١) سورة البيان ج ٢ ص ٢٤٩ لفيلة الشيخ محمد حسين مخلوف .

ملتبساً بالحق والحكمة والمصلحة التي تعود عليكم - أيها الناس - بالخير والمنفعة
ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد .

ثم ساق - سبحانه - دليلاً ثانياً على وحدانيته فقال : د يكور الليل على
النهار ، ويكور النهار على الليل ، .

والتكوير في اللغة : طرح الشيء بعضه على بعض . يقال : كور فلان
المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة . أى . انضمام بعض
أجزائها على بعض .

والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يكر على الآخر فيذهب ويحل محله ،
بطريقة متعاقبة محكمة لا اختلال معها واضطراب ..

قال صاحب الكشف : د والتكوير : اللف واللى . يقال : كور العمامة
على رأسه وكورها .

وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويبقى مكانه هذا ،
وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف اللباس على اللابس .
ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فغيبه في تغييبه
لباء بشيء ظاهر لف عليه ماغيه عن مطامح الابصار .

ومنها : أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، فغيبه ذلك بتتابع الكوار
العمامة بعضها على إثر بعض ... ، (١) .

وقال بعض العلماء مملخصه : د والتعبير بقوله د يكور ... ، تعبير عجيب ،
يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض
فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور

حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها الممكور يعمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكذا تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح ممكور ، فالنهار كان عليه ممكورا ، والليل يقبعه ممكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتمكور على الليل ، وهكذا حركة دائبة . يكرر سبحانه - الليل على النهار ويكرر النهار على الليل .

واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية ... (١) .

ثم ذكر - سبحانه - دليلاً ثالثاً على وحدانيته وقدرته فقال : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » .

والسخر : التذليل والإقياد والطاعة التامة . أى : وجعل - سبحانه - الشمس والقمر متقادين لأمره لإقياداً تاماً وكلاهما يجري فى مداره إلى الوقت المحدد فى علم الله تعالى - لنهاية دورانه ، وإنقطاع حركته .

وهما فى جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال - تعالى - : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله « ألا هو العزيز الغفار » . وفى تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونها ، وإلى وجوب التدبر فيما اشتملت عليه .
أى : ألا إن الله - تعالى - وحده هو الخالق لكل تلك المخلوقات ، وهو

(١) فى هلال القرآن ج ٢٢ ص ١٢٢ .

وحده المتصرف فيها ، والمهيمن عليها ، وهو وحده العزيز الغالب على كل ماسواه ، الكثير المخفرة لذنوب عباده التائبين إليه توبة نصوحا .

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته فقال : « خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها ... » .

أى : خلقكم - سبحانه - من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة ، زوجها وهى أمكم حواء .

قال الشوكاني : « والتعبير بالجمل دون الخلق مع العطف بتم . للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم ، أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة لأن آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه . وخلق حواء على الصفة المذكورة لم يجربه عادة ، لـ كونه - تعالى - لم يخلق أى من ضلع رجل غيرها (١) . »

وقال الجمل : « فإن قلت كيف عطف بتم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه ؟ أجيب بأن تم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد . أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة ، فتم عاطفة عليه لا على خلقكم فعندئذ خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ، تم شملت بزواج . أو هو معطوف على خلقكم ، لكن المراد بخلقهم ، خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعة لا على هذا الخلق الذى هم فيه الآن بالتوالد والتناسل ... » (٢) .

وقوله - تعالى - : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ... » بيان لبعض آخر من أفعاله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته . والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهى قوله : « وخلقكم ، » .

أى : وأنزل لكم من كل من الإبل والبقرة والغنم والمعز زوجين : ذكر وأنثى يتم بهما التناسل وبقاء النوع .

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٥٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٠ .

قالوا : وعبر - سبحانه - عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه - تعالى - خلق هذه الأنواع في الجنة ثم أنزلها ، فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة .
أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكانت الأنعام نازل من السماء ، لأن سبب سببها منزل منها . . . أو أن أنزل هنا بمعنى أنشا وأوجد ، أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء .

وقوله - تعالى - : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . . . » بيان لكيفية خلق ما خلقه من الأناس والآنعام بتلك الطريقة العجيبة . . .

أي أنه - تعالى - يخلقكم - أيها الناس - بقدرته في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نقطة إلى علقة إلى مضخة ، إلى عظام مكسوة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر . وهذه المراحل كلها تتم وأنتم في ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التي بداخل البطون وظلمات الغشاء الذي بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورعايته لخلقه .

وصدق الله إذ يقول : ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . .

ولمسم الإشارة في قوله - تعالى - : « ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون ، يعود إليه - سبحانه - باعتبار أفعاله السابقة . وتصرفون : من الصرف بمعنى الاعتماد عن الشيء إلى غيره . .

أي : ذلكم العظيم الشأن الذي ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله الذي له ملك كل شيء ، والذي لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا . . . مع توفر الأدلة على بطلان ذلك .

والمأمل في هاتين الآيتين براهما قد ذكرنا ألوانا من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . كخلق السموات والارض بالحق ، وتسوير الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ، ورعايتهم بلطفه وإحسانه في مراحل حياتهم ، وإيجاد الأنعام التي تنفعهم في شئونهم المختلفة .

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء إليه فقال : **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَى عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**

أى : **إِنْ تَكْفُرُوا** - أيها الناس - بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد الكفر ، فإن الله - تعالى - غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق أجمعين .

ومع ذلك فإنه - سبحانه - لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده **الكفر** ، أى : لا يحبهم منهم ولا يحمدهم لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التي يجازى بها المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم .

وإن تشكروا الله على نعمه - أيها الناس - بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة ، بأن يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره .

وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، أَى : وَلَا تَحْمِلْ نَفْسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلَ أُخْرَى ، وَلَا تَأْكُلْ نَفْسٌ تَجَازَى عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهَا فِي الدُّنْيَا .

ثم إلى ربكم مرجعكم ، يوم القيامة فينبشكم ، أى : فيخبركم بما كنتم تعملون ، في دنياكم ، ويجازى الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

لأنه ، - سبحانه - « عليم بذات الصدور » ، أى : عليم بما تخفيه الصدور من أسرار ، وبما تضرعه القلوب من أقوال وأفعال ... لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الجمل فى حاشيته : « قوله : « ولا يرضى لعباده الكفر » ، معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضى ، بأن يأذن فيه ، ويقر عليه ، ويثبت فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه ، وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شيء عنها .

أو المعنى : « ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر » ، وهم الذين قال الله - تعالى - فى شأنهم : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » ، فيكون الكلام عاما فى اللفظ خاصا فى المعنى ، كقوله - تعالى - : « عينا يشرب بها عباد الله » ، أى بعض العباد . . . (١) .

وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته ، وعلى أن من شكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن عاقبه هذا الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل ، أما من جحد نعم الله - تعالى - وأشرك معه فى العبادة غيره ، فإن عاقبة هذا الجحود ، تعود على الجاحد بالشر الوبيل ، وبالشقاء فى الدنيا والآخرة .

• • •

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته ، أتبع ذلك بالحديث عن طبيعة الإنسان فى حالتي السراء والضراء ، ونفى - سبحانه - المساواة بين المؤمنين والمكافرين ، والعلماء والجهلاء فقال - تعالى - : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَجَعَلَ اللَّهُ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) .

والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، بدليل قوله - تعالى - د وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله

والمراد بالضر : ما يصيب الإنسان من مصائب في نفسه أو ماله أو أهله .

أى : وإذا نزل بالإنسان ضر من مرض أو غيره من المكروه د دعا ربه منيبا إليه ، أى : أسرع إلى الله - تعالى - بالدعاء والإنابة والتضرع ، وترك الآلهة التي كان يدعوها في حالة الرخاء .

كما قال - تعالى - : د بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتمسكون ما تشركون ، .

وقوله - تعالى - : د ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . . . ، بيان لحالة هذا الإنسان بعد أن كشف الله - تعالى - عنه الضر .

وخوله من التخويل بمعنى الإعطاء مرة بعد أخرى ، ومنه الحديث الشريف : د كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتخولنا بالموعة مخافة السامة علينا ، أى : يتعهدنا بها وقتا بعد وقت .

و د ما ، في قوله د نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، موصولة مراد بها الضر أو مراد بها الباري - عز وجل - .

أى : هذا هو حال ذلك الإنسان عند نزول الضر به ، فإذا ما كشفنا عنه

ضره ، وأعطيناه نعماً عظيمة على سبيل التفضل منا . . . نسي الضر الذي كان يتضرع إلينا من قبل لنزيله عنه ، أو نسي الخالق - عز وجل - الذي كشف عنه بقدرته ذلك الضر .

ولم يكتف بهذا النسيان ، بل جعل لله - تعالى - أندادا ، أى : أمثالا وأشباها ونظائر يعيدها من دونه .

واللام في قوله - تعالى - : د ليضل عن سبيله ، للتعليل . أى فعل ما فعل من جعله شركاء لله - تعالى - في العبادة ، ليضل الناس بذلك الفعل عن سبيل الله وعن دينه الذي إرضاه لعباده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو د ليضل ، بفتح الياء . أى : ليزداد ضلالا على ضلاله .

وقوله - تعالى - : د قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ، بيان لسوء عاقبة هذا الإنسان المشرك .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهذا الإنسان الذي جعل لله شركاء في العبادة . . . قل له تمتع بكفرك تمتعا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنك من أصحاب النار الملازمين لها ، والخالدين فيها .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هذا الإنسان المشرك وبين الإنسان الملازم لطاعة ربه فقال : د أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخر ويرجو رحمة ربه . . .

وكلمة د أمن ، أصلها د أم ، التى بمعنى بل وهمزة الاستفهام . و د من ، التى هى اسم موصول وهى هنا مبتدأ وخبره محذوف . والقانت : من القنوت بمعنى ملازمة الطاعة والمواظبة عليها بخشوع وإخلاص .
وآناء الليل : ساعاته : والاستفهام الإنكار والنفي .

أى : بل أمن هو قائم ساعات الليل لعبادة الله - تعالى - ساجدا وقائما يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، كمن هو جاعل لله - تعالى - شركاء في العبادة ؟

عما لاشك أنهما لا يستويان في عرف أى عاقل ، وفي نظر أى ناظر .
ويصح أن نكون ، أم ، متصلة ، وقد حذف معادها ثقة بدلالة الكلام عليه ، فيكون المعنى :

أهذا الكافر الذى جعل لله أندادا ليضل عن سبيله أحسن حالا ، أم الذى هو ملازم للطاعات آتاه الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟
ووصف القنوت بأنه فى آتاء الليل ، لأن العبادة فى تلك الأوقات أقرب إلى القبول وقدم السجود على القيام ، لأن السجود أدخل فى معنى العبادة .

قال الألوسى ما ملخصه : وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وقيل فى عمار بن ياسر والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ، ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت ، وفيها دليل على فضائل الخوف والرجاء .

وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رجل وهو فى الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟ قال : أرجو وأخاف . فقال - صلى الله عليه وسلم - : لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذى يرجو ، وآمنه الذى يخاف ، (١) .

ثم نفى - سبحانه - أيضا المساواة بين العالم والجاهل فقال : دقل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادا :

لأنه لا يستوى عند الله - تعالى - المشرك والمؤمن ، ولا يستوى عنده - أيضا - الذين يعلون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم ، والذين لا يعلونه ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم ، ويعرضون عن كل من يدعوهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إنما يتذكر أولوا الألباب ، أى : إنما يعتبر ويتعظ بهذه التوجيهات والإرشادات ، أصحاب العقول السليمة والمدارك القويمة ... »

• • •

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر المؤمنين بأن يواظبوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأن يهاجروا إلى الأرض التى يتمكنون فيها من نشر دينه وإعلاء كلمته ، وأن ينذروا المشركين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وضلالهم ... فقال - تعالى - :

« قُلْ يَا هَبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يوفى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) » .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين الصادقين : داوموا على الخوف من ربكم ، وعلى صيانة أنفسكم من كل ما يفضيه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : « قل يا عبادى الذين آمنوا . . . » ، دون قوله : قل لعبادى الذين آمنوا . . . تكريم وتشريف لهم ، لأنه - سبحانه - أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يناديهم بهذا النداء الذى فيه ما فيه من التكريم لهم ، حيث أضافهم إلى ذاته - تعالى - ، وجعل وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما هى التبليغ عنه - عز وجل - .

قال الألوسى : قوله - تعالى - : « قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم » : أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة ، إثر تخصيص التذكير بأولى الآليات ، وفيه إيذان بأنهم هم .

أى : قل لهم قولى هذا بعينه ، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به ، فإن نقل عين أمر الله - تعالى - أدخل فى إيجاب الامتنال به . . . (١) .

وجملة « الذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » ، تمهيد لوجوب الامتنال لما أمروا به من تقوى الله - تعالى - والاستجابة لإرشاداته .

وقوله « الذين أحسنوا » ، متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وقوله « فى هذه الدنيا » ، متعلق بقوله : « أحسنوا » . وقوله « حسنة » ، مبتدأ مؤخر .

أى : الذين أحسنوا فى هذه الدنيا أقوالهم وأعمالهم حسنة عظيمة فى الآخرة ، ألا وهى جنة عرضها السموات والأرض .

وقوله - تعالى - : « وأرض الله واسعة » ، جملة معترضة لإزاحة ما عسى أن يتعللوا به من أعذار ، إذا ما حملهم البقاء فى أوطانهم على التفريط فى أداء حقوق الله .

قال صاحب الكشف: ومعنى: وأرض الله واسعة: أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة، وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوهم مع العجز، وتحولوا إلى بلاد آخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم... (١).

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إينا ترجعون .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الصابرين فقال: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، أي: إنما يوفى الصابرون على مفارقة الأوطان، وعلى تحمل الشدائد والمصائب في سبيل إعلاء كلمة الله... يوفون أجرهم العظيم على كل ذلك بغير حساب من الحاسبين. لأنهم لا يستطيعون معرفة ما أعد - سبحانه - ل هؤلاء الصابرين من عطاء جزيل، ومن ثواب عظيم، وإنما الذي يعرف ذلك هو الله - تعالى - وحده.

قال الإمام الشوكاني: أي: يوفيههم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب...

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه. وهي فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة، تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر ويؤزم نفسه

بزمائه ، وبقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيرا قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع . . . (١) .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين للناس ما أمره به خالقه فقال : **د قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** .

أى : **قل لهم يا محمد إني أمرت من قبل الله - عز وجل - أن أعبد عبادة خالصة لا مجال معها للشرك أو الرباء ، أو غير ذلك مما يتنافى مع الطاعة التامة الخالق - سبحانه -** .

و أمرت لأن أكون أول المسلمين ، أى : **أمرنى ربى بأن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا ، لئلى أكون على رأس المسلمين وجوهم له ، حتى يقتدى بى الناس فى إخلاصى وطاعى له - عز وجل -** .

قال تعالى - : **د قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** .

وقوله - سبحانه - : **د قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ، بيان لسوء عاقبة الشرك والمشركين .

أى : **وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إني أخاف إن عصيت ربي ، فلم أخلص له العبادة والطاعة ، عذاب يوم عظيم الأحوال ، شديد الحساب ، وهو يوم القيامة ، ولذلك فأنا لشدة خوفى من عذاب خالق ، أكثرهم إخلاصا له - عز وجل - ولمثالا لأمره ، ومحافظة على طاعته .**

د قل الله أعبد مخلصا له دينى ، أى : وقل لهم - أيضا - : الله - تعالى - وحده هو الذى أعبد عبادة لا يحوم حولها شرك ، ولا يخالطها شئ من الرباء أو التكلف .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن للناس بأساليب متنوعة ، أنه لن يتراجع عن طاعته التامة لربه ، وأن عليهم أن يتأسوا به في ذلك .

قال الجمل : د أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أولا - بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها ، وثانيا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم ، وثالثا : بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان . ورابعا : بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله - تعالى - وأخلص له الدين على أبلغ وجه وأكده ، إظهارا لتصلبه في الدين ، وحمايا لأطماعهم الفارغة ، وتهيدا لتهديدهم بقوله : فاعبدوا ما شئتم من دونه (١) .

فالامر في قوله - تعالى - : فاعبدوا ما شئتم من دونه للتهديد والتقريع والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : إذا كان الامر كما ذكرت لكم - أيها المشركون - من أنى أول المسلمين وجوهمهم لله - تعالى - وحده ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه - عز وجل - فسترون عما قريب سوء عاقبة شرركم وجحودكم لنعم الله - تعالى - .

وقوله : قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بيان لسوء عاقبة من أهرض عن دعوة الحق وقوله : الذين خسروا .. ، خبر إن .

أي : قل يا محمد ل هؤلاء المشركين : ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - وحده - كما زعمتم - وإنما الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بسبب إلقائهم في النار ، وحرمانهم من النعيم الذي أعد الله - تعالى - لعباده المؤمنين .

وقال - سبحانه - خسروا أنفسهم وأهليهم ، الإشعار بأن هؤلاء المشركين لم يخسروا أنفسهم فقط بسبب دخولهم النار ، وإنما خسروا فوق ذلك أهليهم لأنهم حيل بينهم وبين أهليهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .

وجملة : د ألا ذلك هو الخسران المبين ، مستأنفة تأكيد ما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه ، للإشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ الغاية والنهاية في بابه .

وقوله - سبحانه - : د لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . . . ، تفصيل لهذا الخسران بعد تهويله عن طريق الإيهام والإجمال .

والظلل : جمع ظلة ، وأصلها السحابة التي تظل ما تحتها ، والمراد بها هنا طبقات النار التي تكون من فوقهم ومن تحتهم . وأطلق عليها هذا الاسم من باب التوهم بهم ، إذ الأصل في الظلل أنها تقي من الحر ، بينما الظلل التي فوق المشركين وتحتهم محرقة .

أي : هؤلاء المشركين طبقات من النار من فوقهم ، وطبقات أخرى من النار من تحتهم ، فهم محاطون بها من كل جانب ، ولا يستطيعون التفعل منها .

قال الجبل في حاشيته : د فإن قلت : الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمي ما تحته بالظلة ؟

قلت : فيه وجوه : الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر . الثاني : أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار لأنها دركات . الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابة الفوقانية في الإضاءة والحرارة ، سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة ، (١) .

واسم الإشارة في قوله : ذلك الذي يخوف الله به عباده . . . ، يعود إلى العذاب الشديد الذي أعدّه - سبحانه - لأولئك المشركين .

أي : ذلك العذاب الشديد يخوف الله - تعالى - به عباده ، حتى يحذروا ما يوصل إليه ، ويجتنبوا كل قول أو فعل من شأنه أن يفضي إلى النار .

وقوله - تعالى - : يا عباد فاتقون ، نداء منه - تعالى - للناس يدل على رحمته بهم ، وفضله عليهم أي : عليكم يا عبادي أن تلتزموا طاعتي ، وتجتنبوا معصيتي ، لكي تنالوا رضائي وجنتي ، وتبتعدوا عن سخطي وناري .

وإلى هنا نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت الصابرين بالمعطاء الذي لا يعلم مقدار فضله إلا الله - تعالى - ، وأمرت بإخلاص العبادة لله - سبحانه - بأساليب متنوعة ، وحذرت المشركين من سوء المصير إذا ما استمروا في شركهم وكفرهم .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعدّه للخاسرين من عذاب أليم ، أتبع ذلك ببيان ما أعدّه للمتقين من نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَنُحِقُّ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنَ النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَفَعَدَّ اللَّهُ لِلَّذِينَ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ الْمِعَادَ (٢٠) » .

والطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله - تعالى - كالشيطان والاصنام

وما يشبههما ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في كل شيء . ويستعمل في الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

والاسم الموصول مبتدأ . وجملة « أن يعبدوها » بدل اشتمال من الطاغوت ، وجملة « لهم البشرى » هي الخبر .

والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير الله - تعالى - أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده - عز وجل - . أولئك الذين يفعلون ذلك ، لهم البشرى ، العظيمة في حياتهم . وعند ماتهم ، وحين يقفون بين يدي الله - تعالى - للحساب يوم القيامة .

وقوله - تعالى - : « فبشر عباد ، أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - عباد الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم ... »

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : « الذين يستمعون القول فيتعلمون أحسنه ... » .

والعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بالقول الذى يتعلمون أحسنه ، ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة . والمراد بالاحسن الواجب والافضل ، مع جواز الاخذ بالمندوب والحسن .

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الافضل ، كما قال - تعالى - « وإن تعفوا أقرب للتقوى ... » .

وكما قال - سبحانه - : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خیر للصابرین ، . »

فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا

ومنها : أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة ، فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره .

قال صاحب الكشف ماملخصه : قوله : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ... هم الذين اجتنبوا وأنبأوا لا غيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنباء على هذه الصفة ... وأراد أن يكونوا نقادا في الدين ، يميزون بين الحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب ... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثوابا عند الله ...

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ؛ نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ... وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن وتساوي ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه ... (١) .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة المذكورة .

وقوله - سبحانه - : أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولوا الألباب ، فناء آخر من الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة .

أى : أولئك الذين هدام - تعالى - إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القويمة ، والقلوب الطاهرة ، النقية ...

قال الألوسي : وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ، ولذا قيل :
شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ولا تسكن مثل غير قيد فانقادا -
واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله - تعالى - وقبول
النفوس لها (١) .

ثم بين - سبحانه - أن من أحاحت به خطيئته ، لن يستطيع أحد
إنقاذه من العذاب ، فقال - تعالى - : أفن حقت عليه كلمة العذاب ، أفأنت
تنقذ من في النار ، .

والاستفهام للنفي ، والتقدير : أفن وجب عليه العذاب بسبب إصراره
على كفره حتى النهاية ، أفستطيع أنت - أيها الرسول الكريم - أن تنقذه من
هذا المصير الآليم ؟ لا - أيها الرسول الكريم - إنك لا تستطيع ذلك ، لأن
من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار ، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان ،
لن نستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها .

وقوله - تعالى - : : لـكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف
مبنية ... ، بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم
كلمة العذاب ..

والغرف جمع غرفة ، وتطلق على الحجرة التي تكون مرتفعة عن الأرض -
أي : هذا حال الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتقوا ربهم
فيختلف اختلافا تاما عن غيرهم ، فإن الله - تعالى - قد أعد لهم - على سبيل
التكريم والتشريف - غرفا من فوقها غرف أخرى مبنية ..

ووصفت بذلك للإشارة إلى أنها معدة ومهيأة لنزولهم فيها ، قبل أن
يقدموا عليها ، زيادة في تكريمهم وحسن لقائهم .

وهذه الغرف جنتها ، تجري من تحتها الأنهار ، ليكون ذلك أدعى إلى زيادة سرورهم .

وقوله - تعالى - : « وعد الله لا يخلف الله الميعاد ، نذيل مؤكد لمضمون ما قبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية . ولفظ : « وعد ، مصدر منصوب بفعل مقدر .

أى : وعدم الله - تعالى - بذلك وعدا لا يخلفه ؛ لأنه - سبحانه - ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذى يعده لعباده .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس قيام ، (١) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها ، وتوعدت المصرين على كفرهم وجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا ، وقرب اضمحلال بهجتها ، كما بين حال من شرح الله صدره الإسلام فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لَأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَنُفِىَّ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
للتقريب .

والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذي يكون في باطن الأرض ، والذي يحمل الكثير من المياه الجارية أو المخزونة في جوف الأرض .
والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - أنزل من السحب المرتفعة في جو السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته في عيون ومسارب في الأرض ، هذه العيون والمسارب تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون في باطنها ، وكل ذلك من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر قدرته فقال : ثم يخرج به زراعا مختلفا ألوانه

أى : هذا الماء الذي أنزله - سبحانه - بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج بسبب هذا الماء زراعا مختلفا في ألوانه وفي أشكاله ، فنه ماهو أخضر ومنه ماهو أصفر ، ومنه ما ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته - عز وجل - .

والفعل يهيج ، مأخوذ من الهيج بمعنى اليبس والجفاف . يقال : هاج النبات هيجا وهياجا ، إذا يبس واصفر . أو مأخوذ من الهيج بمعنى شدة الحركة . يقال : هاج الشيء يهيج ، إذا ثار لمشقة أو ضرر ، ثم ، ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس ..

أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد أخضره ونضارته ، ثم يجعله - سبحانه - حطاما ، أى : فتاتلا متكسرا . يقال : حطم - من باب تعب - إذا تكسر وتفتت وتحطم .

« إن في ذلك ، الذى ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلبك ينابيع في الأرض ، ومن إخراج النبات المختلف الألوان بسببه ، وآيات ، عظيمة ، ولأولى الآليات ، .

أى : لأعجاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، التحذير من الانهماك في الحياة الدنيا ومتها ، حيث شبهها - سبحانه - في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبسود و ينضرا وناضرا . . . ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال .

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقبذرا ، .

ثم نفي - سبحانه - المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال ، فقال : « أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . . . » .

أى : أفن شرح الله - تعالى - صدره للإسلام ، وجعله مستعدا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظه ، وأصبح أسيرا للظلمات والأوهام . . .

لا شك أنهما لا يستويان في عقل أى عاقل . . .

فلاستفهام الإنكار والنفي ، ومن ، اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قر - تعالى - ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، عليه .

أى : فهلك وخزى لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى - ، الذى من شأنه أن تلين له القلوب ، ولكن هؤلاء الكافرين

إذا ما ذكر الله - تعالى - ، اشمازت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطماس
بصائرهم ، واستحوذ الشيطان عليهم .

ومنهم من جعل دمن ، في قوله دمن ذكر الله ، بمعنى عن . أى : فويل
للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته .

قال صاحب الكشاف : وقوله : دمن ذكر الله ، أى : من أجل ذكره ،
أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمازوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله
- تعالى - : فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وقرئ : عن ذكر الله .

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن في هذا ؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر
الله ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه . وإذا قلت :
عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ . عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاء من
العيمة . أى : من أجل عطشه . وسقاء من العيمة ، إذا أرواه حتى أبعدته عن
المعاش ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم
فقال : د أو ائلك في ضلال مبين .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال واضح عن
الضراط المستقيم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : د فن برد الله أن يهديه يشرح صدره
للإسلام ، ومن برد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ،
كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، (٢) .

• • •

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٢

(٢) - سورة الانعام . الآية ١٢٢

ثم مدح - سبحانه - كتابه مدحا يليق به ، وبين حال المؤمنين الصادقين غدر سماعه ، وسلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه . فقال - تعالى - :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مَتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) » .

وقوله - تعالى - : « مثنى » ، جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرير والإعادة ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثاني ، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة .

أى : الله - تعالى - نزل بفضله ورحمته عليك - يا محمد - أحسن الحديث « كتابا متشابها ، أى : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، وفى نظمه وإعجازه ، وفى صحة معانيه وأحكامه ، وفى صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ... » .

« مثنى ، أى : تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، كما تثنى وتكرر قراءتنا فلا تمل على كثرة التردد ، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة .

وسمى - سبحانه - كتابه حديثا ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه . فلفظه الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم .

ولفظه د كتابا ، بدل من قوله د أحسن الحديث ، . وقوله : د متشابهة مثاني ، صفتان للكتاب . . .

ووصف بهما وهو مفرد وهما جمع ، باعتبار اشتغالهما على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام . . .

أى : الله - تعالى - أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ . . . التى يشبه بعضها فى الإعجاز . . . والتى تثبت وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار . . .

ورحم الله صاحب الكشف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ماملخصه : وإيقاع اسم الله مبتدا ، وبناء د نزل ، عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيده لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبية على أنه وحى معبر مبان لسائر الأحاديث .

فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هى جملة لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفوس شتى عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات ، ليركزه فى قلوبهم ، كي يفرسه فى صدورهم . . . ، (١) .

وقوله - تعالى - : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تليين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . » .

استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم في نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه في ذاته .

وقوله « تقشعر » من الاقشعرار ، وهو الإنقباض الشديد للبدن . يقال : اقشعر جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز . . . وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله - تعالى - .

أى : أن هذا الكتاب العظيم عندما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر . . ثم تليين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرءوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة . قال الجمل : « فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ، ثم قرنت القلوب بها نائياً ؟

قلت : ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر ، فإذا ذكروا الله - تعالى - ، وذكروا رحمته وسعته ، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة ليناً في جلودهم . . (١) .

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء والخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء في رحمته ومغفرته ، إذ أن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والكـلوب كناية عن السرور والارتياح . وعدى الفعل « تليين » ، إلى « لتضمينه معنى تسكن وتطمئن » .

ومفعول « ذكر الله » محذوف للعام به ، أى : ثم تليين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ورحمته ونوابه وجنته .

قال ابن كثير ما ملخصه ، هؤلاء المؤمنون يخافون غيرهم من وجوه :
أحدها : أن سماع ، هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك لغات الآيات
الثاني : أنهم إذا نليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا . بأدب
وخشية ، ورجاء ومحبة ، وفهم وعلم ، ولم يكونوا كغيرهم - متشاغلين لاهين عنها .
الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها . . . ولم يكونوا يتصارخون
ويتكفون ما ليس فيهم . . .

قال قتادة عند قراءته لهذه الآية : هذا نعمت أولياء الله ، نعمتهم الله بأنهم
تقشروا جلودهم وتبكي أعينهم ، وأطئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعمهم
بذمهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من
الشیطان . . . (١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن
يضل الله فلا اله من هاد ، يعود إلى الكتاب الذي مررت أوصافه ، وأوصاف
القارئين له والمستمعين إليه .

أى ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات وأحكمها ، هدى
الله الذى يهدى بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم . ومن يضلله
- سبحانه - عن طريق الحق ، فلا اله من هاد يهديه إلى هذا الطريق القويم .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم ، وبين غيرهم
من قست قلوبهم ، وأحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال - تعالى - : أفن يلقى
بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون .
والإستفهام للتنفى والإنكار . وه من ، اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف .
أى : أفن كان يوم القيامة مصيره إلى النار المحرقة انى يتقيها ويحاول
دراها عن نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه . . . كمن يأتى يوم القيامة
وهو آمن مطمئن بعيد عن النار وسعيرها ؟

والآية الكريمة ما فيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت عادة الإنسان أن يتقى الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا ما اتقاها بوجهة الذي هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلا على أن ما نزل به في نهاية الفضاة والشدّة ،

وفي قوله - تعالى - : سوء العذاب ، مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء ، فإذا ما وُصف بعد ذلك بالسوء ، كان أشد في الفضاة والإهانة والألم .

وحلة : وقيل للظالمين . . . ، عطف على « يتقى » . . . ، أى : هذا هو مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التي هي أشرف أعضائهم ، وهذا الاتقاء ان يفيدهم شيئا ، بل ستغشاهم النار بلهبا ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون في الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

« كذب الذين من قبلهم ، من أُمم الكفر والضلال ، فأُتاهم العذاب ، المقدر لكل أمة من أُمم الكفر .

« من حيث لا يسمعون ، أى : من الجهة التي لا تخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم منها ، فيكون وقعهم عليهم أشد وأفظع .

« فأذاقهم الله الحزى في الحياة الدنيا ، أى : العذاب الذي يذلمهم ويحزبهم في الحياة الدنيا والعذاب الآخرة ، .

المعد لهم « أكبر ، كيفما وُجدوا لو كانوا يملكون ، أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى هذا العذاب المبين .

• • •

ثم كرر - سبحانه - مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلا للمشرك الذي يعبد آلهة كثيرة ، والدؤمن الذي يعبد لها واحدا ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت ، وأنهم جميعا سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال - تعالى - :

«وَأَقْدَ ضَرْبِنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مِثْلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (٢٧)
 قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرْبَ اللَّهِ مِثْلًا رَجُلًا
 فِيهِ شُرَكَاءُ مِثْلًا كَسُونِ ، وَرَجُلًا سَلَامًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا ؟
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠)
 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) .

واللام في قوله - تعالى - : «وَأَقْدَ ضَرْبِنَا لِلنَّاسِ ...» موطئة للقسم .
 أى : والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة في هذا القرآن العظيم ،
 من كل مثل يحتاج إليه الناس في أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به في دينهم
 ودينهم .

وقوله - تعالى - : «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ، تعليل لضرب المثل . أى فعلنا
 ذلك في كتابنا الذى هو أحسن الحديث ، كي يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا
 ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه .

فلعل منا بمعنى كى التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره
 - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : «قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ...» ، ثناء آخر منه
 - تعالى - على كتابه الكريم .

والجمله الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : «هَذَا الْقُرْآنُ ...» .

أى : هذا القرآن قرأنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب
 ولا تناقض ...

قال صاحب الكشف : قوله : « قرأنا هربيا » حال مؤكدة كقولك : جاءني زيد رجلا صالحا ، وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ، غير ذى عوج ، أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف .

فإن قلت : فهل قيل مستقيما ، أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان : إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : « ولم يجعل له عوجا » ، والثانية : أن لفظ العوج يختص بالمعاني دون الأعيان ... وقبل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب (١)
وقواه : « دلعلمهم يتقون ، علة أخرى لاشتغال القرآن على الأمثال المتكررة المتنوعة .

أى : كررنا الأمثال النافعة فى هذا القرآن للناس ، كي يتقوا الله - تعالى - . ويخشوا عقابه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن ، فقال : « ضرب الله مثلا ، رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ... » . وقوله « مثلا » مفعول ثان لضرب ، و « رجلا » مفعوله الأول . وآخر من المفعول الثانى للتشويق إليه ، وليتصل به ما هو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن .

وقوله « متشاكسون » من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق يقال : رجل شكس وشكس - بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرهما وفعله من باب كرم - إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق .

وقوله « سلما » بفتح السين واللام - مصدر وصف به على سبيل المبالغة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « سلما » : أى خالصا لسيدة ، دون أن ينازعه فيه منازع .

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد ملوك لجماعة متعبداسكين متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم . وهذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معيناً ، والثانى يطلب منه شيئاً يباين ما يطلبه الأول . والثالث يطلب منه ما يتناقض مع ما طلبه الأول والثانى ... وهو حائر بينهم جميعاً ، لا يدري أيطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث ؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التى تمزق أفكاره وقواه .

هذا هو المشرك فى حيرته وضلاله وإنتكاس حاله ...

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد ملوك أسيد واحد وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليه ، وفى راحة تامة من الحيرة والمتاعب التى إنغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء والمتشاكسون .

فالمقصود بهذين المثليين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق وما عليه العبد المؤمن من هدابة وإستقرار وإطمئنان . وإختار - سبحانه - الرجل لضرب المثليين ، لأنه أتم معرفة من غيره لما يتعبه ولما يربحه ، ولما يسعده ولما يشقيه .

قال صاحب الكشف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : « واضرب يا محمد لقومك مثلاً وقل لهم : ما تقولون فى رجل من المماليك قد إشتراك فيه شركاء ، بينهم إختلاف وتنازع : كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبون ، ويتماورونه فى من شق ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير فى أمره ، قد تشعبت الهموم قلبه ، وتوزعت أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته .

وفى آخر . قد سلم للمالك واحد وخلص له ، فهو معنق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن وأجل شأنًا ؟

والمراد تمثيل حال من ثبت آلهة شتى . . ويبقى متحيرا ضائعا لا يدري
أيهم يعبد ، وعن يطلب رزقه ؟ فهمه شعاع - بفتح الشين أى : متفرق - ،
وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إله واحد ، فهو قائم بما كلفه ، عارف
بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه فى عاجله ، مؤمل للثواب فى آجله ، (١).

والإستفهام فى قوله - تعالى - : هل يستويان مثلا ، الإنكار والإستبعاد .

أى : لا يستوى الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون ، والرجل الذى سلم
لرجل آخر ، فى رأى أى ناظر ، وفى عقل أى عاقل ، فالأول فى حيرة من أمره ،
والثانى على بينة من شأنه .

وساق - سبحانه - هذا المعنى فى صورة الإستفهام ، للإشعار بأن ذلك من
الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وانتصب لفظ « مثلا » ، على التمييز المحول عن الفاعل ، لأن الأصل هل
يستوى مثلهما وحالهما ؟

وجملة « الحمد لله » ، تقرير وتأكيد لما قبلها من نفي الاستواء والإستبعاد ،
وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص فى العبودية لله - تعالى - يستحق
منهم كل شكر وثناء على الله - عز وجل - حيث وفهم لذلك .

وقوله - تعالى - : « بل أكثرهم لا يعلمون » ، لإضراب وإنتقال من بيان
عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون
لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذى عينين بصيرهما ،
عقل يعقل به .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن الموت سينزل به
وبأعدائه الذين يتربصون به رب المنون ، وليكن فى الوقت الذى يشاؤه الله
- تعالى - فقال : « إنك ميت وإنهم ميتون » .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - سيلحقك الموت كما أنه سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجيل الموت الذى سيعم الخلق جميعا .

وجاء الحديث عن حلول الموت به - صلى الله عليه وسلم - وبأعدائه ، بألـوب التأكيد ، للإيدان بأنه لا معنى لإستبطائهم لموته - صلى الله عليه وسلم - ولا للشكائه به - صلى الله عليه وسلم - إذا ما نزل به الموت ، إذ لا يشمت الفانى فى الفانى مثله .

ثم بين - سبحانه - ما يكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون . »

أى : ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالفكم تختصمون ونحتكرون ، فتقيم عليهم - أيها الرسول الكريم - الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وم يعتذرون بالآباطيل والتعللات الكاذبة ، والاقوال الفاسدة ، وسيفتقم ربك من الظالم للظالم ، ومن المبطل للحق .

هذه وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال ما ملخصه : ثم أن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

روى ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة ؟ قال : إن الأمر إذا الشديد .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والذى نفسى بيده أنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا . »

وقال ابن عباس : يخضع الصادق - كاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهدى الضال ، والضعيف المستكبر ، (١)

• • •

ثم بين - سبحانه - أنه لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله - تعالى - ، وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأز من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه - سبحانه - سيكفر عنهم سيئاتهم . . . فقال - تعالى - :

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْحَسَنِينَ (٣٤) لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِمُزِيلِ ذِي الْقُرْآنِ (٣٧) » .

والفاء في قوله - تعالى - : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ . . . » لقرئب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفي .

أي مادام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أنك ستموت وهم سيموتون ، وأنكم جميعاً ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء . . . فلا أحد

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨٧

(٢) أوله الجزء الرابع والعشرون

أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن هبدوا من دونه آلهة أخرى ، ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالآمر الصدق وقت أن جثتهم به من عند ربك .

والتعبير بقوله : « وكذب بالصدق لإذ جاءه » يدل على أنهم يادروا بتكذيب ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه .

وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والاستفهام في قوله - تعالى - « أليس في جهنم مثوى للكافرين » ، للتقرير ، والمثوى : المسكان مأخوذ من قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به . يقال : ثوى يثوى ثراء ، كضى بمعنى مضى ...

أى : أليس في جهنم مكانا يكفي لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم ؟ بل أن فيها لمكانا يذلمهم ويذوقون فيه سوء العذاب .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » .

والمراد بالذى جاء بالصدق : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمراد بالذى صدق به : ما يشمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبي بكر الصديق وغيره من الصحابة .

قال الألوسي ما ملخصه : « قوله - تعالى - : « والذي جاء بالصدق وصدق به » ، الموصول عبارة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ... والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند في قولك : نزل الأمير موضع كذا ...

والجمع في قوله - تعالى - : « أولئك هم المتقون » ، باعتبار دخول الانباع

تبعاً : ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أعلاها ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له هؤلاء المتقين من نعم فقال : لهم ما يشاءون
عند ربهم

أى : لهؤلاء المتقين كل ما يشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم ، بسبب تصديقهم
للحق ، واتباعهم لما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - .

وفي قوله : د عند ربهم ، تكريم وتشريف لهم .
وقوله : د ذلك جزاء المحسنين ، أ : ذلك الذى ذكرناه من حصولهم على
ما يشتهونه ، جزاء من أحسنوا فى أفعالهم وأعمالهم .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم فقال :
د ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى
كانوا يعملون ، .

واللام فى قوله : د ليكفر . . . ، متعلقة بحذوف أى : أعطاهم - سبحانه -
ما أعطاهم من فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التى عملوها ، كالكفر
قبل الإسلام ، بأن يغفر لهم بذلك ولا يؤاخذهم عليه .
وإذا غفر الله - تعالى - لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم - بفضله
ورحمته ما هو دونه بالطريق الأولى .

د ويجزيهم أجرهم ، أى : ويعطيهم ثواب أعمالهم د بأحسن الذى كانوا
يعملون ، أى : يعطيهم فى مقابل عملهم الصالح فى الدنيا ، جنات فيها ما لا عين
رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وعلى هذا التفسير يكون قوله - تعالى - د أسوأ وأحسن ، أفضل منه ضيل ،
حيث كفر - سبحانه - عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم ، د هو أحسن
منها وهو الجنة . . .

وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله - تعالى - لعباده المتقين ، حيث عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل .

ومنهم من يرى أن قوله : أسوأ وأحسن ، بمعنى السيء والحسن ، فيكون أفعال التفضيل ليس على بابها . وعلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : وما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا ؟ وما معنى التفضيل فيهما ؟ قلت : أما الإضافة فإسمي من إضافة أفعال إلى الجملة التي يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه ، من غير تفضيل . كقولك : الأشج أعدل بنى مروان .

وأما التفضيل فأيدان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية . والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيها ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ ، وحسنهم بالأحسن ، (١) .

ثم بين - سبحانه - عصمته لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأبلغ وجه أنه فقال : « أليس الله بكاف عبده » ، ويخوفونك بالذين من دونه
وقراءة الجمهور : « عبده بالإفراد وقرأ حمزة والكسائي : « عباده » ، والاستفهام للتقرير .

قال القرطبي : « وذلك أنهم خوفوا النبي - صلى الله عليه وسلم - مضره الأوثان ، فقالوا له : أنتعب آلهتنا ؟ لئن لم تمته عن ذكرها لتصينك بالسوء . »
وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادتها : أحذرك منها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزى فحشم أنفها حتى كسرها ، ونحو يفهم لخالد نحو : « ف للنبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو الذي أرسله . ويدخل في الآية تخويفهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بكثرة جمعهم وقوتهم . . . » (٢) .

والمعنى : أليس الله - تعالى - يكاف عبده محمدا - صلى الله عليه وسلم - من كل سوء ؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من أعدائهم ؟ بلى إنه - سبحانه - لعاصم نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أعدائه ، ولناصر عباده المتقين على من ناوَاهم .

والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك - أي - الرسول الكريم - من أصنامهم التي يعبدونها من دونه - تعالى - ، مع أن هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن ترفع عن نفسها فضلا عن غيرها .

« ومن يضلل الله ، أي : من يضلل الله - تعالى - ، فإله من هاد ، يهديه إلى الصراط المستقيم .

« ومن يهد الله ، أي : ومن يهد الله - تعالى - إلى طريق الحق والصواب .
« فإله من مضل ، أي : فإله من أحد كائننا من كان يستطيع إضلاله .

« أليس الله بعزيز ذي انتقام ، بلى إنه - سبحانه - لعزیز إذ لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه مانع ، ولا ينافعه منازع . ولذو انتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع انتقامه منهم .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء المشركون من تفاهض بين أقوالهم وأفعالهم . وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يهددهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم . . . فقال - تعالى - :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

هَذَابٍ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) .

والمعنى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين من الذى خلق هذه السموات التى ترونها بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التى فوقها تعيشون ...

لئن سألتهم هذا السؤال ، لايملكون فى الإجابة عليه إلا أن يقولوا : خلقهم الله ، فلغضاء الجلالة فاعل لفعل محذوف .

وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم أنفسهم . لأنهم يمتزفون بأن الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ...

ولذا أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم مبكراً وموبخاً : قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله . إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضرره . أو أرادنى برحمته هل هن ممسكات رحمته ... ؟

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا الكون هو الله ، فأخبروني عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - سبحانه - : أنستطيع أن تدفع ضرا أرادته الله - تعالى -

بى ؟ أم تستطيع أن تمنع رحمته أو خيرا أعطاه الله لى ؟ كلا إنها لا تستطيع شيئا من ذلك ، وعبادتكم لها إنما هى نوع من السفه والحماقة .

وقال - سبحانه - : « هل هن . » بالتأنيث على سبيل التحقير لملك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث : كاللات ، والعزى ، ومناه ... الخ .

وقدم الضر لأن دفعه أم . وعلق - سبحانه - لإرادة الضر والرحمة بذاته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن أردنى الله بضر . . . » ، ليرد عليهم ردا يخرس السنتهم ، حيث خوفوه - صلى الله عليه وسلم - منها ، وزعموا أنه لو استمر في محيها فإياها ستؤذيه ..

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم فرض المسألة في نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوفوه مرة الأولتان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم - أولا بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أردنى خالق العالم الذى أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحة من صحة أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللائى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو بمسكات رحمته حتى إذا ألقيتم الحجر وقطعتم . حتى لا يجبروا ببنت شفة قال : « حسبي الله ، كافياً لمعرة أو فائكم عليه يتوكل المتوكلون ، وفيه نهكم . »

ويروى أنه - صلى الله عليه وسلم - سألهم فسكتوا ، فنزل : « قل : حسبي الله ... » (١) .

أى : « قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد عليهم وفى سخرية من آلهتهم : الله - تعالى - الخالق لكل شيء ، كافى فى جميع أمورى ، وعاصمى من كيدهم

وكيد من تنوهمون كيده، وعليه وحده لا على غيره يتوكل المتوكلون، لعلهم أن كل ما سواه تحت ملكوته وقدرته .

ثم أمره - سبحانه - مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهددهم فقال : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم .. » أى : « قل لهم للمرة الثالثة : اعملوا ما شئتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بآلهمكم .

والمكانة مصدر مكن - ككرم - ، يقال : مكن فلان من الشئ - مكانة ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى . والامر للتهديد والوعيد .

« لى عامل ، أى : لى ساقابل عملكم العىء بعمل أحسن من جانبي ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق .

« فسوف تعلمون ، من منا الذى سينجح فى عمله ، ومن منا الذى سيأتية هذاب يخزبه ويفضحه ويهينه فى الدنيا ، ومن منا الذى سيجل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . فالمراد بالعذاب المحزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة .

ولقد تحقق ما توقعه - سبحانه - به ، حيث أنزل عليهم عقابه فى بدر وفى غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، فقال - تعالى - : « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق .. »

أى : إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - القرآن لأجل منفعة الناس ومصالحهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

« فن لهتدى ، إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق المبين فهدايته تعود إلى نفسه ، ومن ضل ، عن الطريق المستقيم ، فإثم ضلاله ، إنما يعود على نفسه وحدها .

« وما أنت عليهم ، يا محمد ، بوكيل ، أى : بمكلف بهدايتهم ، وإلجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب . »

ثم ساق سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته فقال - تعالى - :
« الله يتوفى الأنفس حين موتها . . . » .

أى : الله - بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين لإنهاء آجالها بأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعاً كلياً ، ويسلب عن هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها ، بأن تصير أجساماً هامة لا إدراك لها ، ولا حركة فيها .

وقوله - تعالى - : « والى لم تمت فى منامها ، معطوف على الأنفس ، أى : يسلب الحياة عن الأنفس التى إنتهى أجلها سلباً ظاهراً وباطناً ويسلب الحياة عنها سلباً ظاهراً فقط فى حال نومها . إذ أنها فى حالة النوم تنبته الموتى من حيث عدم التمييز والتصرف . »

فآية الكريمة تشير إلى أن التوفى للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين : وفاة كبرى وتسكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم . كما قال - تعالى - وهو الذى يتوفاكم بالليل . . . ، أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى إنقطاع الإدراك والإحساس . . .

وقوله - تعالى - : « فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » ، يبين لحالة الأنفس التى إنتهى أجلها ، والتى لم ينته أجلها بعد .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين الموت ، أما الأنفس التى إنتهى أجلها فيمسك - سبحانه - أرواحها له ساكناً ما بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن وقت موتها ، فإن الله - تعالى - يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه - تعالى - فإذا ما إنتهى أجلها الذى حددته - سبحانه - لها خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجاً تاماً ، كما هو الشأن فى الحالة الأولى .

ولا شك أن الله - تعالى - الذي قدر على ذلك ، قادر أيضا - على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة .

فآية الكريمة مسوقة لبيان كمال قدرة الله - تعالى - وإيصال أن البعث حق ، وأنه يسير على قدرة الله التي لا يعجزها شيء .

ولا منافاة بين هذه الآية التي صرح بها أن الله - تعالى - هو الذي يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله - تعالى - : : قل يتوفاكم ملك الموت . . . ، وقوله - تعالى - : : وحتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، لأن المتوفى في الحقيقة هو الله - تعالى - وملك الموت إنما يقبض الأرواح بإذنه . سبحانه . وملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ، ينتزعون الأرواح بأمره ، المستمد من أمر الله - عز وجل - .

قال القرطبي : : فإذا قبض الله الروح في حالين ، في حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه في حال النوم فعناه أنه يغمره بما يحبه عن التصرف . فكأنه شيء مقبوض . وما يقبضه في حال الموت فهو بمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وإنفاده بالالوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيي ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه . . . (١) .

ولاسم الإشارة في قوله : : إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، يعود إلى المذكور من التوفى والإمساك والإرسال .

أي : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه ، وأخبرناهم به .

ثم نعى - سبحانه - على الكفار غفلتهم وعدم تفكيرهم فقال : : دأب اتخذوا من دون الله شفعا : قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يفعلون . .

ود أم ، هنا بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام الإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التي زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة .

والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكير والتدبر في دلائل وحدانيته وقدرته - سبحانه - ولم يلتفتوا إلى ما ينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - مرشدا ومنها : أنه ملون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها ؟ ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم أن الله - تعالى - هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : « قل لله الشفاعة جميعا ... »

أي : قل لهم : الله - تعالى - هو المالك للشفاعة كلها ، وآلهتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك ، بل أنتم وآلهتكم - أيها المشركون - ستكفرون وفودا لنار جهنم .

وهو - سبحانه - : « له ملك السموات والأرض ، ملكا تاما لا تصرف لأحد في شيء منهما معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه .

« ثم إليه ترجعون ، يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازي الذين أساءوا بما عملوا ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المشركين ، عندما يذكر - سبحانه - وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا في هذا اليوم ما في الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموا فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة .. فقال - تعالى - :

« وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ
 اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ
 بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
 وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ
 مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 ضَرْبُ دَعَانَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِثْلًا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ
 فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا
 أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ
 ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّصِبُ بِهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)
 أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

وقوله - تعالى : « استمأزت .. » أى : نفرت وانقضت وذعرت ،
 مأخوذ من التمز ، وهو نفور النفس بما تذكره .

قال الإمام الرازى : « لعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة المشركين
 وهو أنك إذا ذكرت الله وحده ... ظهرت آثار النفرة في وجوههم ...
 وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادة ، وهضون
 الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات ... » (١) .

أى : أنك - أيها الرسول الكريم - إذا ذكرت الله - تعالى - وحده ،

ونسبت لإيمه ما يليق به - سبحانه - من وحدانيته وقدره .. دون أن تذكر معه الأصنام ، اشتمارت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجهلاء ، أما إذا ذكرت الله - تعالى - معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويتهجون ..

والتعبير بالاشتمزاز والاستبشار ، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية في الأمرين ، فهم عند ذكر الله - تعالى - تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها غما وهما وانقباضا وذعرا ، وعند ذكر أصنامهم تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها - أيضا - بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم ...

وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية - أيضا - في الجهالة والسفاهة والغفلة ...

وهذا الذي ذكرته الآية الكريمة من اشتمزاز الكافرين عند ذكر الله - تعالى - واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس ...

فسكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله - تعالى - وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه .. انقبضت نفوسهم ، واكفهرت وجوههم ، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك ..

أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات وبالنظم التي هي مع صنع البشر .. استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ، ولو أعلی أديارهم فقورا . قال الألوسي : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف

الله - تعالى - بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطلبون من سماع حكايات كاذبة عنهم . . . وينقبضون من ذكر الله - تعالى - وحده - ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه - عز وجل - وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسوبة إلى ما يكره . . . (١).

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يلتجئ إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين ، وأن يفوض أمره إليه ، فقال - تعالى - دقل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . .

ولفظ : د اللهم ، أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء . عوض عنه بالميم المشددة التي في آخره .

ولفظ : فاطر وعالم ، منصوبان على النداء

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء المشركون من جهل وسفه ، يا الله ، يا خالق السموات والأرض وباعلم الغائب والمشاهد ، والخفي والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذي تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا ، فتجازى كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فاهدني إلى صراطك المستقيم ، وجنبني الشرك والمشركين .

فالمنصوص بالآية المكرمة تصليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما فعله المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم ، وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله - تعالى - وحده . لدفع كيد أعدائه .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ،
منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت
عائشة : بأى شيء كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفتتح صلاته إذا
قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : اللهم رب جبريل
وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة ، أنت
تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، هديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ،
إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (١) .

وقال صاحب الكشف : د بعل - بكسر العين أى : دهش وفزع رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - من شدة شكيمتهم في الكفر ، فقليل له : ادع الله بأسمائه
الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، ولا حيلة لغيرك
فيهم . وفيه وصف لحالهم ، وإعذار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسليية
له ، ووعيد لهم (٢) .

وبعد هذه التسليية من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، بين
- سبحانه - لهؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم . . . بين لهم
ما أعد لهم من سوء المصير فقال : د ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا
ومثله معه ، لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة

أى : أن العذاب المعد لهؤلاء المشركين شيء رهيب ، د ولو أن لهم جميع
ما في الأرض من خيرات ، ولهم - أيضا - مثل ذلك منضيا إليه ، لتقديمه فداء
لأنفسهم ، أملا في النجاة من سوء العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة .

فالآية السكرية وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتيسيس لهم من النجاة ليس
بعده تيسيس ، ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - :

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٩٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٢٢ .

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » (١) .

ثم هددم - سبحانه - بتهديد آخر فقال : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

أى : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا في الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن وارداً في حسابهم . قال صاحب الكشف : « وقوله - تعالى - « وبدا لهم من الله ... » وعيد لهم لا كنه لفظاً عنه وشدته ، وهو نظير قوله - تعالى - في الوعد : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ... » .

والمعنى : وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم .

وقيل : عملوا أعمالاً حسبوها خسرات ، فإذا هي سيئات .

وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء . ويل لأهل الرياء .

وجزع بعض الصالحين عند موته ، فستل عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لي من الله ما احتسبه ، ثم قرأ هذه الآية ، (٢) .

ثم تهديد ثالث يتمثل في قوله تعالى : « وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التي اكتسبوها في دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم . و « ما » موصولة أو مصدرية .

(١) سورة المائدة الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٢٣ .

أى: وظاهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم يوم القيامة ، الذى عملوه واكتسبوه فى الدنيا من رذائل وحاق بهم ، أى : وأحاط ونزل بهم ، العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى حياتهم ، وينهكون بهن كان يذمهم منه فى الدنيا .

وبعد هذا التصوير الرقيق لمصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تفاضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عن خلق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقهما هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره ، وتشتمز قلوبهم عند ذكره وحده .

وم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك فهم عند نزول الشدائد بهم ، يذنون تلك الآلهة ، ويتجهون بالدعاء إلى الله - تعالى - وحده بالدعاء .

لنستنتج إلى السورة الكريمة وهى تحكى أحوالهم فى السراء والضراء فنقول : فإذا مس الإنسان ضرر دعانا ، ثم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم عندى

والمراد بالإنسان هنا جنس الكافر ، بدليل سياق الآيات وسباقها ويصح أن يراد به جنس الإنسان عموماً ، ويدخل فيه الكفار دخولاً أولياً .

أى : فإذا أصاب الإنسان ضرر ، من مرض أو فقر أو نحوها ، دعانا قاعداً أو قائماً ، لمكى فكشف عنه ما نزل به من بلاء .

و ثم إذا حولناه نعمة منا . . . ، أى : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضرر وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره إلى غنى . . .

وقال ، هذا الإنسان الظالم الكفار إنما أوتيته على علم ، منى بوجوه المكاسب ، أو على علم منى بأنى سأعطى هذه النعمة ، بسبب استعدادى واجتهادى وتفوقى فى مباشرة الأسباب التى وصل إلى الغنى والجاه . . .

وقال - سبحانه - : « خولناه » لأن التحويل معناه العطاء بدون مقابل ، مع تكراره مرة بعد مرة .

وجاء الضمير في قوله « أوتيته » مذكرا مع أنه يعود إلى النعمة ، لأنها بمعنى الأنعام . أى : ثم إذا خولناه شيئا من الأنعام الذى تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم ونبوغ عندى .

وقوله - تعالى - « بل هى فتنة » رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد عما تفوه به .

أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه - كما زعم - وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا عليه ، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له . ليقين قوى الإيمان من ضعفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد .

ولكن أكثرهم لا يعلمون ، أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يقطن إليها إلا أن استنارت بصيرته ، وطهرت سريرته .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسبة عن قوله : « إذا ذكر الله وحده اشتمأت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ... » على معنى أنهم يشتمزون عن ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضرر دعا من اشتمأ من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآى اعتراض ... » (١) .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ للجاحدين السابقين ، ليحتربهم اللاحقون فقال : « قد فالها الذين من قبلهم فإغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

والضمير في قوله ، قالها ، يعود إلى ما حكاه - سبحانه - من هذا الإنسان الجاحد من قوله : إنما أريته على علم .

فهذه الكلمة قد قالها قارون عندما نصحه الناصحون ، فقد رد عليهم بقوله : إنما أريته على علم عندي ، فكانت نهايته . أن خسف الله به وبداره الأرض .

أى : قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك ، والذين يشبهونهم في البطر والكنود ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئاً ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها .

و فأصابهم سيئات ما كسبوا .. أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذى يستحقونه بسبب سيئاتهم التى اكتسبوها واقتروها في دنياهم .

فالكلام على حذف مضاف . أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم ، بأن أنزل الله - تعالى - بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى .

والذين ظلموا من هؤلاء ، أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - .

و سيصيبهم ، - أيضاً - سيئات ما كسبوا ، كما أصاب الذين من قبلهم .

و ما هم بمعجزين ، أى : وما هم بفاتنين أو هاربين من عذابنا .

و أولم يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ، أى : أعموهن التفكير والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مهيئته وحكمته - سبحانه - إذ سعة الرزق ليست دائماً على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلاً على غضبه .

« إن في ذلك ، الذي ذكرناه ، آيات ، واضحات ، لقوم يؤمنون ،
بالحق ويستجيرون له ، ويستقيمون بالهدايات التي نزل بها لهم .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكل
تصوير ، كما بينت ما أعد لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ،
وإعراضهم عن دعوة الحق .

• • •

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفلة ،
وأمرهم أن يتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت
والحساب ، فقال - تعالى :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ
اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَأَنِيبُوا
إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٥)
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَاتُّم لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ
فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ
هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ
فِي كُرَّةٍ فَاكُونَ مِنَ الْحَسَنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَتَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » .

روايات منها : مارواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، واعدت أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي وعياش ابن أبي ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاعة بنى غفار - أى : غدير بنى غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش بن هبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله - عز وجل - ، وآمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم - أيضا - يقولون هذا في أنفسهم ، فأنزل الله - عز وجل - في كتابه : : قر يا عبأدى الذين أسرفوا على أنفسهم ... إلى قوله - تعالى - أليس في جهنم مثوى للمتكبرين .

قال عمر : فمكتبتها بيدي ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيتها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت للجلست على بعيرى فلحققت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١) . والأمر في قوله - تعالى - : : قل يا عبأدى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ... ، موجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وإضافة العباد إلى الله - تعالى - للتشريف والتكريم .

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، وأظهر ما يكون إستعمالا في الإنفاق ، كما في قوله - تعالى - : : يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلموا واشربوا ولا تسرفوا

والمراد بالإسراف هنا : الإسراف في إنفاق المعاصي والسيئات ، والمحطاب للزمنين المذنبين . وعدى الفعل : أسرفوا ، بهلى ، لتضمنه معنى الجنابة . أى : جنوا على أنفسهم .

والقنوط : اليأس ، وفعله من بابى ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشيء ، أى بائس من ذلك ولا أمل له في تحقيق ما يريد .

والمعنى: قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم بارتكابهم للمعاصي ، قل لهم : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم .

وحملته ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، تعليلية . أي : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ، لأنه هو الذي تفضل بمحو الذنوب جميعها ، لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة .

د إنه - سبحانه - هو الغفور الرحيم ، أي : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضيلا منه وكرما . وإن ماتوا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيتته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضل وكرمه . أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا في الإسلام ، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام ، لأن الإسلام يجب ما قبله .

وإن ماتوا على كفرهم فإن يغفر الله - تعالى - لهم ، لقوله : د إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

قال الإمام الشوكاني : د واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لاشتياها على أعظم بشارة فإنه أولا : أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد نبشيرهم . ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي . . ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة . . . ثم جاء بما لا يبق بعده شك ولا يتخالج القاب عند سماعه ظن فقال : د إن الله يغفر الذنوب . . . ، فالأنف واللام قد صيرتا الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفرادها ، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائننا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك . ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله : جميعا ، فيا لها من بشارة تراح لها النفوس . . وما أحسن تعاليل هذا الكلام بقوله : د إنه هو الغفور الرحيم . . . (١) .

(١) راجع تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٧٤ .

وقال الجمل في حاشيته ماملخصه : وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة ، منها إقباله عليهم ، ونداؤهم ، ومنها : إضافته إليهم إضافة تشریف ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، في قوله : « من رحمة الله » ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها : إعادة الظاهر بلفظه في قوله : « إن الله يغفر ... » ، ومنها : إبراز الجملة من قوله : « إنه هو الغفور الرحيم » ، مؤكدة بأن ، والفصل ، وإعادة الصفتين اللتين تضمنهما الجملة السابقة

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى ... (١) .

وبعد أن فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما ... أتبع ذلك بمحضهم على التوبة والإجابة إليه ، حتى يزيد من فضله وإحسانه فقال : « وأنيبوا إلى ربكم وأسلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » . أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأرجعوا إليه بالتوبة والإجابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذي لا تستطيعون دفعه ، ثم لا تجدون من ينجيكم منه .

فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية لحثهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله - تعالى - بهم أكمل وأنم وأوسع ، فإن التوبة النصوح سبب في تحويل السيئات إلى حسنات .

كما قال - تعالى - : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٥

(٢) سورة الفرقان آية ٧٠

ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم وفواحيه فقال : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ... » .

أى : واتبعوا هذا القرآن الكريم ، الذى هو أحسن ما أنزله - سبحانه - إليكم ، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية ، ومن تشريعات حكيمة ، ومن آداب قويمه ...

فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات .. يودى إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وقوله : « من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ، متعلق بالامر بالاتباع ، وإرشاد إلى وجوب الامتثال بدون تأخير أو تسويف .
أى : سارعوا إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن ، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون قدمات ، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله .

فآية الكريمة تقرير وتأكيد لما قبلها ، من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح .

وقوله : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ... » ، في موضع المفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف .

أى : اتبعوا ما أمرناكم به ، واحذروا ما نهيناكم عنه ، كراهة أن تقولوا نفس يوم القيامة : يا حسرتا ، أى : يا دامتى ، على ما فرطت في جنب الله ، أى : بسبب تقصيرى وتقصيرى في طاعة الله ، وفى حقه - تعالى - .

وأصل الجنب والجانب : الجهة المحسوسة للشئ . وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز ، حيث شبهت بالجهة ، بجامع تعلق كل منهما - أى الجانب والطاعة - بصاحبه . إذ الطاعة لها تعلق بالله - تعالى - ، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم ذكرت نفسى ، ؟ قلت : لأن

المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

دعنا قومه حولى فجاءوا لنصره وفاديت قوما بالمسئاة غيبا
ورب بقيق لو هتفت بجوه أتانى كريم بنفض الرأس مغضبا

وهو يريد : أفوجا من المكرام بنصرونه ، لا كريما واحدا . . . (١).

وجملة : « وإن كنت لمن الساخرين ، فى محل نصب على الحال . أى : فرطت فى جنب الله وطاعته ، والحال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين بأتباع هذا الدين الحق .

قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة أخرى عما تقوله تلك النفس فقال : « أو تقول لو أن هدانى ، إلى طاعته واتباع دينه ، لساكنت من المتقين ، للشرك والمعاصى ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يغضبهم - سبحانه - ولا يرضيه .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة ثالثة لما فقال : « أو تقول ، هذه النفس حين ترى العذاب ، .

فى الآخرة « لو أن لى كرة ، أى : رجعة إلى الدنيا ، فأكون ، فيها من المؤمنين ، لأقواهم وأفعاهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العباد لله - تعالى - وأطيعه فى السر والعلن .

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة ، تصويراً مؤثراً بليغاً ، يحلل كل عاقل عل الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

وقوله - سبحانه - : « بلى قد جاءتك آياتي فكذبته بها واستكبرت وكنت من الكافرين ، رد منه - عز وجل - على هذا القائل : « لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، » وتكذيب له في هذه الدعوى .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .

أى : ليس الأمر كما ذكرت أيها التادم على ما فرط منه ، من أن الله لم يهدك إلى الطريق القويم ، بل الحق أن الله - تعالى - قد أرشدك إليه عن طريق إرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت في دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب في الآخرة ، بسبب أعمالك القبيحة في الدنيا .

قال الشوكاني : « وجاء - سبحانه - بخطاب المذكر في قوله : جاءتك ، وكذبت واستكبرت وكنت ، لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب : نفس واحد . أى : إنسان واحد ... » (١) .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يرد به على المشركين ، وعن أحوال الناس عند النفخ في الصور ... قال - تعالى - :

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا

بِعَفَاظِهِمْ ، لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَقْسَمُ بِاللَّهِ
تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)
بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ،
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَمِعَ مِنَ
السَّمَوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا
هُمُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ، وَوُضِعَ الْكِتَابُ
وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩)
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا حَمَلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) .

فَقُولُهُ - تَعَالَى - : : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمُ
مَسْوَدَةٌ . . . ، بَيَانٌ لِحَالَةِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَمَّا تَسْكُونُ عَلَيْهِ هَيْئَتُهُمْ مِنْ
خَيْرٍ وَهُوَ ان .

أَي : وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذَا نَظَرْتَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ - أَوْ - أَيُّهَا الْعَاقِلُ -
إِلَى وُجُوهِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ، بَانَ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ آلِهَةً أُخْرَى ،
أَوْ جَعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا . . . إِذَا نَظَرْتَ لِأَيُّهَا رَأَيْتَهَا مَسْوَدَةً كَمَا هِيَ ،
بِسَبَبِ مَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ ، وَمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَهْوَالٍ . . .

وَقُولُهُ : : وَجُوهُهُمُ مَسْوَدَةٌ ، جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ ، وَهِيَ فِي مَجْلٍ نَصَبٍ

على الحال من الذين كذبوا . . . والاستفهام في قوله : « أليس في جهنم مثوى
للمتكبرين ، للتقير . والمثوى : المكان والمقام . »

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله
- تعالى - : « وما كنت ثاويا في أهل مدين . . . »

أى : أليس في جهنم مكاما ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ؛ بسبب
تطاوهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله ؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون
العذاب الأليم .

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد إياله لحال الذين
كذبوا على الله . فقال : « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يحسمهم السوء
ولام يحزنون . »

ومفازتهم : اسم مصدر . أو مصدر ميمي . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر
به ؛ ونال سراحه منه .

أى : وينجى الله - تعالى - بفضلته ورحمته ، الذين اتقوا ، الشرك والمعاصي
من عذاب جهنم ، « بمفازتهم » أى : بسبب فوزهم برضا الله - تعالى - ورحمته ،
جزاء لإيمانهم وتقواهم . وقرأ حمزة والكسائي « بمفازاتهم » بالجمع . . .

ويصح أن تكون الباء في قوله : (بمفازتهم) للملابسة ، والجار والمجرور
متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا . أى : ينجيها حالة كونهم متلبسين
بمفازتهم .

وقوله : « لا يحسمهم السوء ولا يحزنون » يجوز أن يكون نفسيرا
لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يحسمهم السوء
الذى يصيب غيرهم من الكافرين والمعصاة ، ولا يحزنون على شيء تركوه
خلفهم في الدنيا .

ويجوز أن يكون حالا من الذين انقروا . أى : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم سوء ، أى : لا يمسهم شيء مما يكره لافى الحال ولا فى الاستقبال ، ولا هم يحزنون على ما كان منهم فى الماضى .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كرم المتقين ثمكرا عظيما ، حيث نجاهم من هذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما ينفهم فى كل زمان أو مكان .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمس سوء ، كان فارغ البال بحسب الحال ، عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الأوقات ...

وقد دلت الآية على أن المؤمنين لا يبالهم الخوف والرعب فى القيامة ، وتؤكد هذا بقوله : لا يحزنهم الفزع الأكبر ... (١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل :

أى : الله - تعالى - هو وحده الخالق لكل شيء فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - المتصرف فى كل شيء فى هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيئته .

له مقاليد السموات والأرض ، أى : له وحده مفاتيح خزائنها ، والمقاليد جمع مفلاذ ، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلزام . أى : أنه لا يملك أمر السموات والأرض ، ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره - تعالى - .

قال صاحب الكشف : قوله : له مقاليد السموات والأرض ، أى : هو مالك أمرهما وحافظهما .

لأن حافظ الخزان ومدير أمرها ، هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم :

فلان ألقيت إليه مفاتيح الملك، وهي المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل:
جمع مقلد... والكلمة أصلها فارسية .

فإن قلت : ما للكتاب العربي المبين وللفارسية ؟

قلت : التعريب أحاطا عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه مهملا ، (١)
ثم بين - سبحانه - مصدر الكافرين فقال : د والذين كفروا بآيات الله
أولئك هم الخاسرون ، أى : والذين كفروا بآيات الله التزبيلية والكونية الدالة
على وحدانيته ، أولئك هم البالغون أقصى الدرجات في الخسران .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : د وينجي الله
الذين اتقوا ، وما بينهما اعتراض للدلالة على هيمنة الله - تعالى - على شئون
خلقه... أى : وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم .. والذين كفروا بآيات الله
أولئك هم الكاملون في الخسران .

وهذه المقابلة فيها ما فيها من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب
الاليم للكافرين .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ
الكافرين على جهالاتهم ، فقال : د قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون..
وقد ذكروا في سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -
استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإهلك .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للمعطف على مقدر يقتضيه المقام ،
و د غير ، منصوب بقوله : د أعبد ، ، وأعبد معمول لتأمروني على تقدير
أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ
والتأنيب : أبعد أن شاهدتم ما شاهدتم من الآيات الدالة على وحدانية الله
- تعالى - ، وعلى صدق فيما أبلغه عنه ، أبعد كل ذلك تأمروني أن أعبد غير
الله - تعالى - أيها الجاهلون بكل ما يجب لله - تعالى - من تزيه وتقديس .

ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف المناسب الرد على ما طلبوه منه - صلى الله عليه وسلم ، من إشراك آلهم في العبادة .

ثم حذر - سبحانه - من الشرك أبلغ تحذير فقال : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ، لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

قال الجمل : « وقوله : « ولقد أوحى إليك ، هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله : لئن أشركت » .

هذه اللام - أيضاً - دالة على مقدر ، وقوله : « ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » ، كل من هذين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني . والثاني وجوابه جواب الأول . وأما جواب الشرط في قوله : « لئن أشركت » . ، فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم (١) .
وقوله : « أوحى » ، مسلط على « إليك » ، وعلى « الذين من قبلك » ، فيكون المعنى : « ولقد أوحى إليك - أيها الرسول الكريم - وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضاً ، لئن أشركت ، بالله - تعالى - على سبيل الفرض ، ليحبطن عملك » ، أي ليفسدن عملك فساداً تاماً ، ولتكونن من الخاسرين ، خسارة ليس بعدها خسارة في الدنيا والآخرة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : الموحى إليهم ، جماعة ، فكيف قال : لئن أشركت » ، على التوحيد ؟

قلت : معناه : « أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت ليحبطن عملك . كما تقول : فلان كسانا حلة . أي : كل واحد منا .

فإن قلت : كيف صرح الكلام مع علم الله - تعالى - أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟

قلت : هو على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها . (١) .
والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب فيه ما فيه من التنفير منه . ومن التوبيخ له ، لأنه إذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يفتخ في شيء منه - على سبيل الفرض - خبط عمله ، وكان من الخاسرين . فكيف بغيره من أفراد أمته ؟

وقوله - تعالى - : « بل الله فاعبدوكن من الشاكرين » أمر منه - تعالى - بالثبات على عبادة الله - تعالى - وحده ، وبالمداومة على شكره ، ونهى عن طاعة المشركين ولفظ الجلالة منصوب بقوله « فاعبد » والفاء جزئية في جواب شرط مقدر . . .

أى : لا تطع - أيها الرسول الكريم - المشركين فيما طلبوه منك ، بل اجعل عبادتك لله - تعالى - وحده ، وكن من الشاكرين له على نعمه التي لا تحصى .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله - تعالى - قد تجاوزوا حدودهم معه - عز وجل - ، ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال : « وما قدروا الله حق قدره » .

أى : أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره - تعالى - ، ما عظموه حق تعظيمه ، وما أعطوه ما يستحقه - سبحانه - من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة . . .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته ، وكمال قدرته فقال : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » . . .

والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض بالكف .
ومطويات أى : مجموعات تحت قدرته وملئكه : كما يجمع الكتاب المطوى ، والجملة
الكريمة حال من لفظه الجلالة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا
الله حق تعظيمه ، حيث أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى هى من مخلوقاته ،
والحال أنه - سبحانه - هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالهما
فى الدنيا ، وهو المتولى لتبديلهما أو إزالتها فى الآخرة . فالأرض كلها مع
عظامها وكثافتها تكون يوم القيامة فى قبضته وتحت قدرته ، كالشئ الذى
يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها وانساعها ، تكون
مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه ، كما يطوى الواحد منا الشئ الهين القليل
بيمينه . ومادام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره فى العبادة ؟

فالقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته - سبحانه -
وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطماس بصيرة حين أشركوا معه فى
العبادة غيره .

قال صاحب الكشف : « والغرض من هذا الكلام إذا أخذه كما هو
بجملته وبمجموعه ، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنهه جلاله لا غير ، من غير
ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ... » (١) .

وقال الألوسى : « والكلام فى هذه الآية عند كثير من الخلف ، تمثيل
لحال عظمته - تعالى - ونفاذ قدرته ... بحال من يكون له قبضة فيها الأرض
جميعا ، ويمين بها يطوى السموات . أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض
والسموات ، ويمين بها يطوى السموات ... »

والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - ...
إلا أنهم لا يقولون إن القبض مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز

عن القدرة بل يزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبته - تعالى - إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء خبر من الأحبار إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد ، إنا نجد الله يجعل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ هذه الآية ... (١) .

وقدم - سبحانه - الأرض على السموات لمباشرتها لها ، ومعرفتهم بحقيقتها .

وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا أيضا - لأن الدعاوى تنقطع فى ذلك اليوم . كما قال - تعالى - د والامر يومئذ لله . .

روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : د يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده النبي ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض . .

وقوله - تعالى - : د سبحانه وتعالى عما يشركون ، تنزيه له - تعالى - عما افتراه المفترون .

أى : تنزهه وتقدس الله - تعالى - عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين .

ثم بين - سبحانه - حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله
والصور : اسم للقرن الذي ينفخ فيه لإسرافيل بأمر الله - تعالى - وحقيقته لا يعلمها إلا هو - سبحانه - وقوله : فصعق ، من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذي يجعل الإنسان في حالة ذهول شديد حتى لا يكأته قد فارق الحياة . . .

أى : ونفخ في الصور بأمر الله - تعالى - النفخة الأولى ، ففخر ميتا كل من كان حيا في السموات أو في الأرض .

، إلا من شاء الله ، له الحياة من أهلكها قالوا : والمستثنى من الصعق جهيل وإسرافيل وميكائيل . ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعيين من استثناه الله - تعالى - من ذلك ، فالأولى تفويض من استثناه الله من الصعق إلى عبده - عز وجل - .

ثم نفخ فيه أخرى ، أى ثم نفخ في الصور نفخة أخرى ، وهى النفخة الثانية التى يكون بعدها البعث والنشور .

وإذا هم قيام ينظرون ، أى : فإذا بهؤلاء الذين صعدوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا سيفعل بهم أو ينتظرون على أى حال سيكون مصيرهم .

فآية الكريمة تفيد أن النفخ في الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة إليهم مرة أخرى .

والمراد بالأرض في قوله - تعالى - بعد ذلك : وأشرق الأرض بنور ربها . . . ، أرض المحشر .

وأصل الإشراق : الإضاءة . يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت : إذ طلعت .

قال ابن كثير : وقوله : « وأشرقت الأرض بنور ربها ، أى : أضاءت الأرض - يوم القيامة ، إذا تجلى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء » (١) .

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - « ووضع الكتاب » صحائف الأعمال التى تكون فى أيدى أصحابها .

فالمراد بالكتاب جنسه أى : أعطى كل واحد كتابه إما يمينه وإما شماله . وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذى فيه أعمال الخلق . وجرى بالنبيين والشهداء ، أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحيفته أعماله ، جرى بالنبيين لى يشهدوا على أنهم بلغوا ما كلفهم الله بقبليته لى لهم ، وجرى بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال - تعالى - « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . وقيل المراد بهم : من استشهدوا فى سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدالته فى جعل حكمة فقال : « وقضى بينهم بالحق » أى : وقضى - سبحانه - بين الجميع بقضائه العادل « وهم لا يظلمون » أى : نوع من الظالم .

« ووفيت كل نفس ما عملت » من خير أو شر « وهو أعلم بما يفعلون » أى : وهو - سبحانه - أعلم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه ، بل هو - تعالى - يعلم السر وأخفى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين ، وبيان مصير المتقين ، وبيان ما يقوله المتقون عندما يرون النعيم المقيم الذى أعدّه - سبحانه - لهم ، فقال - تعالى - :

« وسيقَ الذينَ كفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زمرًا ، حتَّى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها وقالَ لهمْ خزنتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وسيقَ الذينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إلى الْجَنَّةِ زُمَرًا حتَّى إذا جاءوها فُتِحَتْ أَبْوَابُها وقالَ لهمْ خزنتُها سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِّعْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وقالُوا الحمدُ لله الذي صدَّقَنَا وَعَدَهُ ، وَأَوْزَنَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى لِلْمَلَأِئِكَةِ حَافِيينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لله ربِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) » .

وقوله - تعالى - « وسيق ... » من السوق بمعنى الدفع ، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و « زمرًا » أى : جماعات متفرقة بعضها فى إثر بعض . جمع زمرة وهى الجماعة القليلة ، أى : وسيق الذين كفروا إلى نار جهنم جماعات جماعات ، وأفراجا أفواجا ...

« حتَّى إذا جاءوها فُتِحَتْ أَبْوَابُها » لتستقبلهم بحرها وسعيرها ، وكأنها قبل مجيئهم إليها كانت مغلقة كما تطلق أبواب السجون ، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها بسبب جرائمهم .

« وقال لهمْ خزنتُها ، على سبيل الزجر والتأنيب » ألم يأتكم رسل منكم ، أى : من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه لكم .

وهؤلاء الرسل « يتلون عليكم آيات ربكم ، المنزلة لمنفعتكم » وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، أى : ويخوفونكم من أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة .

« قالوا بلى ولا يمكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، أى : قالوا فى جوابهم على سائلهم : بلى قد أنا نالنا الرسل وبلغوا رسالة الله ، واسكننا لم نطعمهم ، لحقت كلمة العذاب علينا ، ووجبت علينا كلمة الله التى قال فيها : « لا ملائكة لهم من الجنة والناس أجمعين » .

وهنا رد عليهم السائلون بقولهم : ادخلوا أبواب جحيم خالدين فيها ، خلودا أبديا ، فبئس مثوى المتكبرين ، أى : فبئس المكان المعد للمتكبرين جحيم .
وبعد هـ - ذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البية - ان الذى يشرج الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال - تعالى - : « وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » ، أى : جماعات ..

قال الآلوسى : أى : جماعات مرتبة حسب ترتيب طبقاتهم فى الفضل .
وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أول زمرة تدخل الجنة من أمى على صورة القمر ليلة البدر .. » ، والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير - الإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب والالام ، واختير المشاكلة ... (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له هؤلاء المتقين من نعيم مقبم فقال : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .
والواو فى قوله « وفتحت » للحال ، والحالة حالية بتقدير قد ، وجواب « إذا » مقدر بعد قوله « خالدين » .

أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم ، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم من جميع المكابر ، طبتم من دنس

المعاصي ، فادخلوها خالدين ، أى : حتى إذا جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : « وحتى هنا هي التي تحكى بعدها الجبل . والجملة المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أن جزاءها محذوف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بمحذوفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد « خالدين » .

وقيل : حتى إذا جاءوها ، جاءوها وفتحت أبوابها . أى : مع فتح أبوابها (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المنتقون عند دخولهم الجنة على سبيل الشكر لله - تعالى - فقال : « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، بأن بعثنا من مرقدنا ، ومنحنا المزيد من عطاءه ونعمه » وأورثنا الأرض ، أى : أرض الجنة التي استقروا فيها .

« تنبأ من الجنة حيث نشاء ، أى : ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع
« فنعم أجر العاملين ، الجنة التي منحها - سبحانه - لعباده المتقين .
« ونرى الملائكة حافين من حول العرش أى : محذوفين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه . جمع حاف وهو المحذوق بالشئ . يقال : حفت بالشئ إذا أحطت به ، مأخوذ من الحفاف وهو الجانب للشئ .
« يسبحون بحمد ربهم ، أى : يمجدون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء .

« وقضى بينهم بالحق ، أى : وقضى - سبحانه - بين العباد بالحق الذي لا يحوم حوله باطل . « وقيل الحمد لله رب العالمين ، على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساقوا بآعمالوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « الزمر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم
كتبه الراجي عفوره
محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - صباح الثلاثاء ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ١٩٨٥/٩/١٢ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الزمر»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٢٤٥
١	تنزيل الكتاب من الله ...	٢٥٠
٥	خلق السموات والأرض بالحق ...	٢٥٥
٨	وإذا مس الإنسان ضرر ...	٢٦١
١٠	قل يا عباد الذين آمنوا ...	٢٦٥
١٧	والذين اجتنبوا الطاهرات ...	٢٧١
٢١	ألم تر أن الله أنزل من السماء ...	٢٧٥
٢٣	الله نزل أحسن الحديث ...	٢٧٩
٢٧	ولقد ضربنا للناس ...	٢٨٤
٣٢	فمن أظلم ممن كذب على الله ...	٢٨٩
٣٨	ولئن سألتهم من خلق ...	٢٩٣
٤٥	وإذا ذكر الله وحده ...	٢٩٩
٥٣	قل يا عبادى الذين أسرفوا ...	٣٠٨
٦٠	ويوم القيامة ترى ...	٣١٤
٧١	وسيق الذين كفروا ...	٣٢٥

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الشورى

دكتور
محمد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر

(الجزء الرابع والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للزلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

، صدق الله العظيم ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « غافر » ، هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة التاسعة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الزمر » .

ويبدو - والله أعلم - أن الحواميم ، كان نزولها على حسب ترتيبها في المصحف ، فقد ذكر صاحب الإنفاق عند حديثه عن المكي والمدني من القرآن ، وعن ترتيب السور على حسب النزول . . .

ذكر سورة الزمر ، ثم غافر ، ثم فصلت ، ثم الشعوري ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ^(١) .

٢ - والمحققون من العلماء على أن سورة « غافر » من السور المكية الخالصة ، وقد حكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، كما أن الإمام ابن كثير قال عنها بأنها مكية دون أن يستغنى منها شيئاً .

وقيل : كلها مكية لإلا قوله - تعالى - : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أنائم ، إن في صدورهم لإلا كبير مام بباغيه ... الآية » .

ولكن هذا القيل وغيره لم تنهض له حجة يعتمد عليها ، فالرأي الصحيح أنها جميعها مكية .

٣ - وهذه السورة تسمى - أيضاً - بسورة « المؤمن » ، لاشتغالها على قصة

(١) راجع الإنفاق في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧

مؤمن آل فرعون . كما تسمى بسورة الطول ، لقوله - تعالى - في أوائلها :
« غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ... » .

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي والشامي ، وأربع
وثمانون في الحجازي ، واثنان وثمانون في البصري ...

٤ - وسورة غافر ، هي أول السور السبعة التي تبدأ بقوله - تعالى - :
« حم ، والتي يطلق عليها لفظ « الحواميم » .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار في فضل هذه السور ، منها :
ماروى عن ابن مسعود أنه قال : « آل حم ، ديباج القرآن . » ومنها ماروى
عن ابن عباس أنه قال : « إن لكل شيء لبابا ، وللباب القرآن « آل حم ،
أو قال « الحواميم » (١) .

٥ - وقد افتتحت السورة السريعة بالثناء على الله - تعالى - ، وبسلبية
الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من أذى المشركين ومن جداهم ،
وبيان وظيفة الملائكة الذين يحملون عرشه - تعالى - ، وأن منها الاستغفار
للمؤمنين ، والدعاء لهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « ربنا وسعت كل
شيء رحمة وعلم ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم .
ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم
وذرياتهم لأنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ
فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم » .

٦ - ثم دعا - سبحانه - عباده إلى إخلاص الطاعة له وذكرهم بأحوال
يوم القيامة ، وأن الملك في هذا اليوم إنما هو الله - تعالى - وحده .

قال - تعالى - : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، رفيع
الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم
التلاق . يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

٧ - وبعد أن وبعث - سبحانه - الغافلين على عدم إعتبارهم بسوء عاقبة من سبقهم من الكافرين ، أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون ، وحكى ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة من محاورات . .

كما حكى ما وجهه الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه من نصائح حكيمة ، منها قوله - كما حكى القرآن عنه - : وقال الذى آمن : يا قوم لى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وحمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم لى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما ليكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فإله من هاد .

٨ - وبعد أن ساق - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة التى وجهها ذلك الرجل المؤمن الذى يكتم إيمانه إلى قومه . . أتبع ذلك بحكاية جانب من المحاورات التى تدور بين الضعفاء والمتكبرين بعد أن ألقى بهم جميعا فى النار .

كما حكى - سبحانه - ما يقولونه لحزنة جهنم على سبيل الاستعطاف والتذال فقال : وقال الذين فى النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا أو مادعوا الكافرين إلا فى ضلال . .

٩ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، لى يشكروه عليها ، ومن تلك النعم : إيجاد الليل والنهار ، وجعله الأرض قرارا والسماء بناء ، وتصويره للناس فى أحسن تقويم ، وتحليله لهم الطيبات ، وخلقهم لهم فى أطوار متعددة .

قال - تعالى - : هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نقطة ، ثم من علقة ،

ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . .

١٠ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ، فوجتهم على جهالاتهم وعنادهم ، وهددتهم بسوء المصير ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يصير على أذام ، وذكرته بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، وأذرت مشركي مكة بأن مصيرهم سيكون كصير المشركين من قبلهم ، إذا ما استمروا في طغيانهم وكفرهم ، وأنهم لن ينفعهم الإيمان عند حلول العذاب بهم .

قال - تعالى - : فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفروا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون . .

١١ - هذا ، والمتدبر في سورة « غافر » ، بعد هذا العرض المجمل لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته كما يراها قد ساقَت ألوانا من القسلبية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من قومه ، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولا تبعاه ، كما في قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

كما يراها قد فصلت الحديث عن تكريم الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، تارة عن طريق إستغفار الملائكة لهم ، وتضرعهم إلى جبالهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم .

قال - تعالى - : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . . . »

ونارة عن طريق وعدم بإجابة دعائهم ، كما في قوله - تعالى - : وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين . .

كما يراها قد إهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين ، بأسلوب يغرس الخوف في القلوب ، ويبعث على التأمل والتدبر .

كما في قوله - تعالى - : كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم ، وممت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذهم ، فكيف كان عقاب . .

وكما في قوله - تعالى - : أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثار في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق .

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر في إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وفي تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر ، وفي تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم ، نراه متمثلاً في تلك النصائح الغالية التي وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه ، والتي حكاه القرآن في قوله : وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم ببعض الذي يهدى من هو مسرف كذب . . .

نسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بتوجيهات القرآن الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

١٣/٩/١٩٨٥ م

عشاء الجمعة : ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

التفسير

قال الله - تعالى - : « حَم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ ، وَقَابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّلَوِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلِيهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَا يَنْفِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، فَأَخَذْتَهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) » .

سورة « غافر » من السور التي افتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله - تعالى - : « حَم » .

وقد ذكرنا آراء العلماء في تلك الحروف المقطعة بشيء من التفصيل ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد جئ بهما في افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين نهدام القرآن .

فكانه - سبحانه - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترويه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون

منها حروفكم ، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فمجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقوله - تعالى - : « تنزيل الكتاب من الله » جملة من مبتدأ وخبره أى : هذا الكتاب منزل عليك - أيها الرسول الكريم - من الله - تعالى - وحده ، وليس من عند أحد غيره .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بثماني صفات تليق بذاته فقال : « العزيز » أى : الغالب لكل من سواه من العز بمعنى القوة والغلبة . يقال : عز فلان يعز - من باب تعب - فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم : أرض مزاز إذا كانت صلبة قوية .

« العليم » أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شيء منها . « غافر الذنب » أى : سائر الذنوب عباده ، ومزيل لأثرها عنهم بفضله ورحمته . فلفظ « غافر » من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال : غفر الله - تعالى - ذنب فلان غفرا ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره وعفا عنه .

ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته ، مأخوذ من ذنب الشيء ، أى : نهايته . « وقابل التوب » والتوب مصدر بمعنى الرجوع من الذنب والتوبة منه . يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبا إذا رجع عنه .

أى : أنه - سبحانه - يغفر ذنوب عباده ، ويقبل توبتهم ، فضلاما وكرما . قال صاحب الكشاف : « ما بال الواو في قوله « وقابل التوب » ؟ قلت : فيها نكتة جليلة ، وهى إقادة الجمع للذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له حاة من الطاعات وأن يجعلها عماء للذنوب ، كأنه لم ينسب . كأنه قال : جامع المغفرة والقبول ... » (١) .

« شديد العقاب ، أى : لمن أشرك به ، وأعرض عن الحق الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذى الطول ، ، أى : ذى الفضل والثواب والإعلاء على من يشاء من عباده .. »

والطول : السعة والغنى والزيادة ، يقال : فلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطول فى الجسم لأنه زيادة فيه ، قال - تعالى - : « ومن لم يستطع منكم طولا ... » ، أى : غنى وسعة .

« لا إله إلا هو ، أى : لا إله بحق وصدق إلا هو - سبحانه - .

« إليه المصير ، أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا .

قال القرطبي : روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع فى هذا القرب . فقال عمر لـ « كاتبه » : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله الذى لا إله إلا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، نعم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . » إلى قوله - تعالى - : « إليه المصير . » ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً . ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرأه ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يهرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر ذلك قال : « هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحداً قد ذل ذلك فسدوده ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أمواتاً للسلطان عليه . (١) .

ثم هون - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من شأن الكافرين ،
وأخبرهم بأنهم ألقوه من أن يغتربهم فقال : « ما يجادل في آيات الله إلا الذين
كفروا ، فلا يغرك تقلبهم في البلاد . »

والمراد بالجدال هنا : الجدل بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول
إلى الحق فمحمود .

وقوله : « فلا يغرك .. » جواب لشرط محذوف . والتقلب : التنقل
من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .

أي : ما يجادل في آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق
التكذيب بها والعلمن فيها

إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغرك - أيها
الرسول الكريم - تقلبهم في البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات
الرابحة ، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون
من الاستدراج ، وعماقريب ستؤول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون
فيهم حسرة

« كذبت قبلهم ، أي : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا
به الحق » قوم نوح ، الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم .

« والأحزاب من بعدهم ، أي : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا
من بعد قوم نوح ، قد تخزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كإفعل
قوم عاد مع نبيهم هود ، ولما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل
مدين مع نبيهم شعيب

« الضمير في قوله - تعالى - « من بعدهم » يعود إلى قوم نوح ، وأفرادهم
- سبحانه - بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف
سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يزد دعاءهم إلا اعتوا وظفورا .

وقوله - تعالى - : دومت كل أمة رسولهم لياخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . بيان لما فعله هؤلاء الأقوام الظالمون مع أنبيائهم الذين جاءوا لهدايتهم .

أى : أن هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالكذب لأنبيائهم بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلت بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذى جاء به من عند ربه وتبطله .

والتعبير بقوله : د لياخذوه ، يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إزاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء .

وقوله - تعالى - : د فأخذتهم فكيف كان عقاب ، بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم بالباطل .

أى : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا أن يمحوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميراً ، فكيف كان عقابي لهم ؟ لقد كان عقاباً مدمراً ، جعلهم أثراً بعد عين ، وترك آثاراً ما كنهم تشهد بهلاكهم وإستئصالهم . . .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تختلف فقال : د وكذلك حق كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار . .

أى : وكما حق كلمة ربك - أيها الرسول الكريم - ووجب بإهلاك الأمم الماضية التى كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقوداً للنار . فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قسومك ، إذا ما استمروا فى تكذيبهم لك ، ولم يعودوا إلى طريق الحق .

فآيات الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحذير لمشركي قريش من الاستمرار في غيهم .

ثم بين - سبحانه - مظاهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكرههم ، فذكر أن حملة عرشه من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقال - تعالى - :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) » .

والمراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله - تعالى - ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح في تحديد عددهم .

والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مملئين مسبحين بحمدين لله - تعالى - كما قال - تعالى - : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . . . » .

وعرش الله - تعالى - كما قال الراغب - لما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - .

وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في إحدى عشر آية .

والاسم الموصول في قوله - تعالى - : « يحملون العرش ، مبتدأ . وخبره قوله : « يسبحون »

والجملة الكريمة مستأنفة ومهذوقة لتسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم أقرب الملائكة إلى الله - تعالى - يضمنون إلى تسبيحهم لذاته - سبحانه - ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاماً طويلاً في صفة هؤلاء الملائكة وفي صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضيقه وقلة فائدته .

أى : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لدرشنا ، والحافون به من صفاتهم أنهم « يسبحون بحمدهم » ، أى : يزهون الله - تعالى - عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به .

« يؤمنون به » - تعالى - إيماناً تاماً لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : « يؤمنون به » ، ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون ؟

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله - تعالى - : « ثم كان من الذين آمنوا ، فأبان بذلك فضل الإيمان » (١) .

ويستغفرون للذين آمنوا ، أى : أنهم بحاجات تسبيحهم وحمدهم لهم ، ولإيمانهم به ، يتضرعون إليه - سبحانه - أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .

وفي هذا الاستغفار .. منهم للمؤمنين ، إشعار بحببتهم لهم ، وعنايتهم بنسأهم ، لأنهم مثلهم في الإيمان بوحدة الله - تعالى - . وفي وجوب إخلاص العبادة و« طاعته » .

ثم حكى - سبحانه - كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، » .

والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول في محل نصب على الحال من فاعل « يستغفرون » ، وقوله « رحمة وعلما » منصوبان على التمييز .

أى : أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : يا ربنا يا من وسعت رحمتك ووسع عليك كل شيء ، تقبل دعاءنا ...

« فاغفر » بمقتضى سعة رحمتك وعليك « للذين تابوا » ، إليك توبة صادقة نصوحا « واتبعوا سبيلك » ، الحق ، وصراطك المستقيم .

« وقهم عذاب الجحيم » ، أى : وصنهم يا ربنا واحفظهم من الوقوع في جهنم لأن عذابها كرب عظيم .

يا ربنا وأدخلهم جنات عدن ، أى : وأدخلهم جناتك دخولا دائما لا ينقطع معه . يقال : عدن فلان بالمكان يعدن عدنا ، إذ لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمى الشيء الخزون في باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها .

« ولقى وعدتهم » ، فضلا منك وكرما .

وأدخلهم « من صالح » ، لدخولها بسبب إيمانهم وعملهم الطيب « من آباتهم وأزواجهم وذرياتهم » لأنك أنت ، يا مولانا ، العزيز ، أى : الغالب لكل شيء « الحكيم » ، فى كل تصرفاتك وأفعالك .

فالمراد بالصلاح فى قوله - تعالى - : « ومن صالح من آباتهم » : من كان منهم مؤمنا باقه ، وعمل عملا صالحا . ودعوا لهم بذلك ، ليتم سرورهم وفرحهم إذ وجود الآباء والأزواج والذرية مع الإنسان فى الجنة ، يزيد سروره ولا تفسده .

« وقهم ، ياربنا ، السيئات ، أى : احفظهم ياربنا من ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التى تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن خطاياهم .
« ومن تق السيئات يومئذ ، أى : فى يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت » فقد رحمة ، أى : فقد رحمة برحمتك الواسعة من كل سوء .

« وذلك ، الذى تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة ، ومن وقايتهم سوء .
« هو الفوز العظيم ، الذى لا يضارعه فوز ، والظفر الكبير الذى لا يقاربه ظفر ، والأمل الذى لا مطمع وراءه لطامع .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

و كمادة القرآن الكريم فى قرن الزغاب أو المكس : جاء الحديث بعد ذلك عن الكافرين ، مبينا لإقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير . كما دعا الملائكة للمؤمنين . . فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَرْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) » .

والمقت : أشد أنواع البغض والغضب ، يقال : مقته مقتا ، إذا غضب عليه غضبا شديدا ، ومنه قوله - تعالى - : « ولا تقر بوا الزنا إن كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . . »

والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم الملائكة خزنة النار ، أو المؤمنون . وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت .

أى: إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان الندامة والحسرة والمقت. لإيثارها الكفر على الإيمان .
بعد كل ذلك ، ينادون ، بأن يقال لهم: إن مقت الله - تعالى - لكم بسبب إصراركم على الكفر حتى ملكتم ... أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكرهيتكم لها .

قال الألوسى مالمخصه : وقوله ، ينادون ، المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون لعظاما لحسرتهم : ولقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ، وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول ، كأنه قيل : ينادون عقولا لهم : لقت ... ومقت ، مصدرها إلى الإسم الجليل ، إضافة المصدر لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثانى إلى ضمير الخطاب ... ، (١) .

وقوله - سبحانه - : إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، لتلبل لمقت الله أى : لغضب الله - تعالى - عليكم ، أشد من غضبك على أنفسكم الأمانة بالسوء وذلك لأنكم جاءكم دعوة الحق على السنة وسلككم ، فأعرضتم عنها ، وصممتم على الكفر والفسوق والعصيان ، حتى أدرككم الموت ، وما أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه فى الدنيا .

ثم يحكى - سبحانه - ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم - سبحانه - عقابه العادل فيقول : قالوا ربنا أمتنا إثنين وإحييتنا إثنين

وأرادوا بالموتة الأولى : خلقهم من مادة لا روح فيها وهم فى بطون أمهاتهم ، وأرادوا بالثانية : قبض أرواحهم عند انقضاء آجالهم .
وأرادوا بالحياة الأولى : نفخ أرواحهم فى أجسادهم وهى فى الأرحام ، وأرادوا بالثانية لإعادتهم إلى الحياة يوم البعث ، للحساب والجزاء .
وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ... ، (٢) .

(١) - تفسير الألوسى ج ٤ ص ٥٠ .

(٢) - سورة البقرة الآية ٢٨ .

« فاعترفنا بذنوبنا ، أى : أنت يا ربنا الذى - بقدرتك وحدها - أمتنا
إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وهما نحن قد اعترفنا بذنوبنا التى
وقعت منا فى الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم ... »

« فهل إلى خروج من سبيل ، أى : فهل بعد هذا الاعتراف ، فى الإمكان
أن نخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك حق الإيمان ،
ونعمل غير الذى كنا نعمل .. »

فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير ، وأنهم يتمنون
العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التنى والتلف جاء بعد
فوات الأوان .

قال ابن كثير مالم يخلصه : هذه الآية كقوله - تعالى - : « كيف تكفرون
بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ... » وهذا هو الصواب الذى
لا شك فيه ولا مرية .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخطبوا ، ثم أميتوا
ثم أحيوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم
فى الأرحام ، ثم أماتهم يوم القيامة .

وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالنا ثلاث إحياءات وإماتات .
والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى
الله ، كما قال - تعالى - « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ،
ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فاعمل صالحا إنا موقنون ... » (١) .

ثم بين - سبحانه - أن تدللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من هذاب

سببه لإعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا ، فقال : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحمك لله العلي الكبير ، » .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل - ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، وما دام هذا حالكم في الدنيا ، فاحسبوا في النار ولا تؤمنوا في الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحمك لله وحده دون غيره ، وهو - سبحانه - الذى حكم عليكم بما حكم ...

وهو - سبحانه - ، العلي ، أى : المتعالى عن أن يكون له مائل في ذاته أو صفاته ، الكبير ، أى : العظيم الذى هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد .

جمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوضعين ، للدلالة على كبريائه وعظمته .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بميادة ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار . فقال - تعالى - :

« هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب » (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى

عَلَىٰ اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لَمَنَ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ، اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) الْيَوْمَ
تَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)
وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ، إِنَّ
اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَرًا فِي الْأَرْضِ
فَأَخَذَ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَ اللَّهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) .

والمقصود بآياته - عز وجل - في قوله : هو الذي يريكم آياته . . .
الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، كخلقهِ للشمس والقمر ، والليل والنهار ،
والبهار والأنهار ، والسماء والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ،
والأشجار الكبيرة والصغيرة . . . إلى غير ذلك من آياته التي لا تحصى في
هذا الوجود . . .

أى : هو - سبحانه - الذي يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ،
لنزدادوا - أي المؤمنون - إيماناً على إيمانكم ، وثباتاً على ثباتكم ، وبقيناً
على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد القهار .

وقد ساق - سبحانه - في كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته
وقدرته ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار آيات
لأولي الأبصار » (١) .

وقوله - عز وجل : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم
من فضله ... » (٢) .

وقوله - تعالى - : « إن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السموات
والأرض ، آيات لقوم يتقون » (٣) .

والمراد بالرزق في قوله : « وينزل من السماء رزقا » : الأمطار التي تنزل من
السماء على الأرض ، فتحياها بعد موتها ، بأن تحولها من أرض جدداء يابسة ،
إلى أرض خضراء يشتى الزروع والثمار .

وأطلق - سبحانه - على المطر رزقا ، لأنه سبب فيه ، وأفرده بالذكور مع
كونه من جملة الآيات التي يريها - تعالى - لعباده ، لتفردة بعنوان كونه من آثار
رحمته ، وجلائل نعمه ، الموجبة لشكره - عز وجل - ، ولوجوب إخلاص
العبادة له .

وقوله - تعالى - : « وما يتذكر إلا من ينيب » ، بيان لمن هو أهل الانتفاع
بهذه الآيات .

أي : « وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى
الطاعة ، ومن الكفر إلى الإيمان ، وعن العناد والجحود ، إلى التفكير والتدبر
بقلب سليم .

فقوله : « ينيب » من الإنابة ، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصي ، إلى
الإيمان والطاعة .

(١) - سورة آل عمران الآية ١٩٠

(٢) - سورة الروم الآية ٢٣

(٣) - سورة يونس الآية ٦

والفاء في قوله - تعالى - : « فادعوا الله مخلصين له الدين ... » ، للإفصاح
 عن شرط مقدر . أي : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شيء في هذا
 الوجود يدل على وحدانية الله - تعالى - فأخلصوا له العبادة والطاعة ، ولو كره
 المشركون ، منكم ذلك - أيها المؤمنون - فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم ، وامضوا
 في طريق الحق ، ودعواهم يموتوا بغيظهم . .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله
 - تعالى - ، ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء .

ومن الأحاديث التي أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ،
 ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، عن أبي الزبير محمد بن مسلم
 المديني قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله
 إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول
 ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ،
 وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، قال :
 « وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يهلل بهن دبر كل صلاة ، (١) .

ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين في
 إخلاص العبادة له ، فيقول : « رفيع الدرجات ذو العرش ... » أي : هو - تعالى -
 وحده صاحب الرفعة والمقام العالي ، وهو وحده صاحب العرش العظيم ، الذي
 لا يعلم مقدار عظمته إلا هو ...

قال الألوسي وقوله : « رفيع الدرجات ، رفيع صفة مشبهة أضيفت إلى
 فاعلمها من رفع الشيء إذا علا ... » والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن
 يبلغوا العرش ، أي : رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه ...
 ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه - عز شأنه - كما أن قوله

- تعالى - ذو العرش ، كناية عن ملكه - جل جلاله - . . . (١) .

والمراد بالروح في قوله - تعالى - : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » : الوحي الذي يوحى به على أنبيائه ، وأمين هذا الوحي جبريل عليه السلام . .

أى : هو وحده - سبحانه - الذى يلقى الوحي حالة كون هذا الوحي ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين . فقوله : « من أمره » متعلق بمحذوف حال من الروح .

وسمى الوحي روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء . وقوله - تعالى - : « لينذر يوم التلاق » بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره - سبحانه - من عباده - لإلقاء الوحي عليه .

والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس على إعلام إنذارا .

والمراد بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق ، لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون . . . للكل يتلاقى في ساحة المحشر ليقضى الله - تعالى - فيهم بقضائه العادل .

أى : يلقى - سبحانه - بوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة ، إذا ما استمروا في كفرهم وعصيانهم لخالفهم ، ثم صور - سبحانه - أحوال الناس في هذا اليوم العصيب ، فقال : « يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . . . » .

وهذه الجملة السكرية بدل من قوله « يوم التلاق » ، أى : يلقى - سبحانه - على من يشاء من عباده ، لكي ينذر الناس من أحوال ذلك اليوم الذى تلتقى فيه الخلائق ، والذى يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى عنهم شيء على الله - تعالى - .

واقه - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أمرهم لا في هذا اليوم ولا في غيره ،
ولكنه - سبحانه - ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه في هذا اليوم ، لأنهم
- لجهلهم - كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم يستطيعون التسبب عنه ، كما أشار
- سبحانه - إلى ذلك في قوله - تعالى - : « ألا إنهم يفتنون صدورهم ليستخفوا
منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم
بذات الصدور . »

ورحم الله صاحب الكشف ، فقد قال : « قوله : « يوم هم بارزون ، أى :
ظاهرون لا يستتر شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع
صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء في الحديث :
« يحشرون عراة حفاة غرلا ، لا يخفى على الله منهم شيء ، أى : من أعمالهم
وأحوالهم . . . »

فإن قلت : قوله : « لا يخفى على الله منهم شيء ، بيان وتقرير لبروزهم ،
واقه - تعالى - لا يخفى عليه منهم شيء بروزاً أم لم يبرزوا ، في معناه ؟
قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استقروا بالحيطان
والحجب ، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صاترون من البروز
والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه . قال - تعالى -
« ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ... » (١) .

وقوله - تعالى - « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، السائل والجيب
هو الله - تعالى - . »

أى : ينادى الله - تعالى - في المخلوقات في ذلك اليوم ، لمن الملك في هذا
اليوم المسائل الشديد ؟ ثم يجيب - سبحانه - على هذا السؤال بقوله : « لله
الواحد القهار . »

قال القرطبي ماملخصه : د قال الحسن : هو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : د الله الواحد القهار .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل القضة ، لم يعص الله - جل وعلا - عليها ، فيأمر مناديا بنادى : د لمن الملك اليوم ، فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : د الله الواحد القهار .

فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقول الكافرون غما وإنقيادا وخضوعا ...

ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار إنفراده - تعالى - بالملك عند إنقطاع دعاوى المدعين ، وإنساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملاكمه ... (١) .

وبعد أن قرر - سبحانه - أن الملك في هذا اليوم له وحده ، أتبع ذلك ببيان ما يحدث في هذا اليوم فقال : د اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ...

أى : في هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة . بما كسبت في دنياها من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

د لا ظلم اليوم ، ولا جور ولا محاباة ولا وساطات ... وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب .

د إن الله سريع الحساب ، لأنه - سبحانه - لا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه ، بل هو - سبحانه - قد أحاط بكل شيء علما ، كما قال - تعالى - : د عالم الغيب ، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

ثم بوجه الله - تعالى - أمره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يحذر
كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول: «وأنذركم يوم الآزفة إذا القلوب
لدى الحناجر كاظمين»

والآزفة: القيامة . وأصل معنى الآزفة: القربة، ومميت القيامة بذلك
لقربها، يقال: أزف - بزنة فرح - يوم الرحيل، إذا دنا وقرب .
والحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم .

وكاظمين: حال من أصحاب القلوب على المعنى، فإن ذكر القلوب يدل
على ذكر أصحابها .

وأصل السكظم: الحبس والإمساك للشيء . يقال: كظم القربة إذا ملأها
بالماء، وسد فاهها، حتى لا يخرج منها شيء من الماء .

والمعنى: وأنذر - أي - الرسول للسكريم - الناس، وحذرهم من أهوال
يوم عظيم قريب الوقوع، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها
من صدورهم، ومتشبثة بحناجرهم، ويكونون كاظمين عليها ومحسكين بها حتى
لا يخرج مع أنفاسهم، كما يمسك صاحب القربة فيها لكي لا يتسرب منها الماء .

فآية السكريمة تصوير بديع لما يكون عليه الناس في هذا اليوم من فزع
شديد، وكرب عظيم، وخوف ليس بعده خوف .

والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - :
« اقتربت الساعة وانشق القمر »

وقوله - سبحانه - : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون »
والظاهر أن قوله هنا « يوم الآزفة » هو المفعول الثاني للإنذار وليس
ظرفاً له، لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع في دار الدنيا .
وقوله « إذا القلوب » يدل من يوم الآزفة .

قال صاحب الكشاف: « فإن قلت « كاظمين » بم انتصب ؟ قلت: هو حال

من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ تلويهم لدى حناجرهم كأظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كأظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

ولأنما جمع السلامة ، لأنه وصفها بالسكظام الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال - تعالى - : « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ... » (١) .

وقوله - تعالى - : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » ، نفى ليكون هؤلاء الظالمين يوجد في هذا اليوم من يفهمهم أو يدافع عنهم .

والحميم : هو الإنسان الذى يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حامته .

والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .

أى : ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم ، لأنهم في هذا اليوم يكونون على غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم .

فألاية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان الذى تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم .

ثم أكد سبحانه - ثم - ولعله لئلا يترك شيئا ، فقال : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المستسلل ليطالع على ما حرم الله الإطلاع عليه .

والجمله خبر لمبتدأ محذوف . والإضافة في قوله « خائنة الأعين » ، على معنى من ، وخائنة نعمت لمصدر محذوف .

أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائفة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى تسال وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التى يخفيها الناس فى صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك فى هذا اليوم بما يستحقون .

قال القرطبي : « ولما جرى - بعيد الله بن أبى سرح إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعدما اطمأن أهل مكة - وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صحت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طويلا ، ثم قال : « نعم » .
فلما انصرف قال - صلى الله عليه وسلم - لمن حوله : « ما صحت إلا ليقوم إليه . بعضكم فيضرب عنقه » .

فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : « إن النبي لا تكون له خائفة أعين » (١) .

ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق فى هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : « والله يقضى بالحق ... » .

أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

« والذين يدهون من دونه لا يقضون بشئ . . . أى : والآلهة الذين يعبدون الكفار من دون الله - تعالى - لا يقضون بشئ أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدررون على شئ ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .

« إن الله - تعالى - هو السميع » لكل شئ « العليم » بكل شئ ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتعاظهم بمن

كان قبلهم فقال : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ،

أى : أبلغت الجمالة والغفلة وانطماس البصيرة هؤلاء المشركين من قدامك - يا محمد - أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا .
لأنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، ولأنهم ليساهدون آثارهم ماثلة أمامهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركي قريش في القوة واليأس ، وأشد منهم في إقامة المباني الفارغة ، والحصون الحصينة ...

فلما استمروا في جحودهم وكفرهم ، وأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم ، وما كان لهم من دون الله - تعالى - من بدفع عنهم عذابه ، أو يقيمهم من بأسه .

ذلك ، الأخذ من أسبابه ، أنهم كانت رسالهم تأتيهم بالبينات ، أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربهم

« فكفروا ، أى : بالرسول وبما جاءهم به ، فأخذهم الله ، أى : فأهلكهم - سبحانه - لأنه قوى شديد العقاب ، أى : لأنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسوله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقنا لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن علمه الشامل لكل شيء ، ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، فذكرت جانبا من التهديدات التي وجهها فرعون

إلى موسى وقومه ، وكيف أن موسى - عليه السلام - رد عليه ردا قويا حكيما ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) » .

والمراد بآياتنا في قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ، تلك الآيات التسع »
 التي أعطاها الله - تعالى - لموسى ، لتكون معجزات له دالة على صدقه ، وهي :
 العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل
 والضفادع ، والدم .

قال - تعالى - : ، ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، ، ، .

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة والظاهرة التي تغلب بها في الحجاج والجدال على فرعون .

أى : والله لقد منحننا موسى - عليه السلام - بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحنناه - أيضا - حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .
قوله - سبحانه - : : إلى فرعون وهامان وقارون . . . ، بيان لمن أرسله الله - تعالى - إليهم .

و فرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر في تلك العهود السابقة ، والمراد

به هنا : ذلك الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه « منفتاح » ابن رمسيس الثانى .

ود هـ - سامان ، هو وزير فرعون . ود قارون ، هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليه ، وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال ... ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى ، فكانت لهم ولايتهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكائد ضد موسى - عليه السلام - فيقتبهم العامة من أقوامهم ...

وقوله : « فقالوا ساحر كذاب » ، أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعهم آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته لبائهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، أن قالوا فى شأنه ، إنه ساحر يمحوه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه أنه رسول رب العالمين .

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه السلام - ، وبين هؤلاء الطغاة الظالمين ، إنهم وصفوه بالسحر والكذب . وهو المؤيد بآيات الله ، وبمجده الظاهرة ، وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملذاتهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأظنى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم ... » .

أى : لحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - ، بدعوته ، وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجابهم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - : اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، وتركوا الإناث بدون قتل لحديثكم ، وليكون ذلك أبلى فى إذلالهم . إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة ، وذل عظيم ..

والتعبير بقوله: فلما جاءهم الحق من عندنا، يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم، وأنهم لم يخرجوا لطلبه، وإنما هو الذي جاءهم عن طريق موسى، المؤيد بآيات الله - تعالى - .

والقائلون: «اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم»، هم الملائكة من قوم فرعون، الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان، وإرضاء له، وإرهاها لموسى - عليه السلام - ولمن آمن معه.

قال الإمام الرازي: «والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى، لأن القتل في ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدوه يظهر عليه، فأمر بقتل الأبناء في ذلك الوقت. وأما في هذا الوقت، فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه، لئلا ينشأوا على دين موسى، فيقوى بهم، وهذه العلة المختصة بالبنين دون البنات، فلماذا السبب أسر بقتل الأبناء...» (١).

وقوله - تعالى -: وما كيد الكافرين إلا في ضلال مبين، توهمين لشأن الكافرين في كل زمان ومكان، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا في طريق الحق، دون أن يرهبهم وعد أو وعيد، فإن النصر سيكون في النهاية لهم. / أى: وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان. يقال: ضل فلان الطريق، إذا ضاع منه الرشد، والتبست عليه السبل، وصار تائها لا يعرف له طريقاً يوصله إلى ما يريد.

ثم بين - سبحانه - لو أن آخر من ألوان فجر فرعون وبغيه فقال: «وقال فرعون ذروني أقتل موسى...».

والجملة المكرمة معطوفة على قوله: «قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه».

وجملة ، وما كيد الكافرين إلا في ضلال ، لإعتراضية ، جرى بها مسارعة لبيان خسراتهم وضلالهم .

أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصة : أتركوني لأقتل موسى عليه السلام . وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها ما فيها من الضرر بى وبكم .

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان مجرد معارضة من مستشاريه ، لأنهم يرون أن قتله لا ينهى المتاعب ، بل قد يزيد بها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثارتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى عليهم ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .

قال صاحب الكشف : قوله : ذرونى أقتل موسى ، : كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم : ليس موسى بالذى تخافه ، وهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة . . . وأنتك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة .

والظاهر أن فرعون — لعنه الله — كان قد إستيقن أن موسى نبيا ، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شئ . فكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه هو الذى يثل عرشه ، ويهدم ملكه ، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله ، أن يعاجل بالهلاك . . . (١) .

وقوله : ولیدع ربه ، تظاهر من فرعون بأنه لا يبالي بما يكون من وراء قتله لموسى . وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى .

فالجملة الكريمة بيان لما جهل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر وإستهزاء بالحق فكأنه يقول : إني قاتل لموسى وليدع ربه لكي يخلصه مني . . . ١١

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ماحله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم ، فيقول : « إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد » .

أى : اتركوني لأقتل موسى ، وليدع ربه لكي يخلصه مني ، إن كان في إمكانه ذلك ، فإني أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر أو بأن يظهر في الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، من طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم ، والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة ، ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم . . . إنهم مافعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية ١١

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذا الكلام ، بيان السبب لقتل موسى وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ، وبصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتنة .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق محبتهم لاموالهم ، لا جرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال :

«لأنى أخاف أن يبدل دينكم ، ثم أنبئه بذكر فساد الدنيا فقال : أو أن يظهر فى الأرض الفساد» (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى - عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال - تعالى - : « وقال موسى لى عزت برى وربكم من كل متكبر لا يؤمن برب الحساب . »

وقوله «عزت» بمعنى إستجرت ولجأت . يقال : عاذ فلان بفلان وإستعاذ به ، إذا لجأ إليه . وإستجار به .

أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم . لى إستجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل متكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله - تعالى - له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وإنجائهم وإنجائهم من فرعون ومائه ، كما يتجلى فيه أن الإستكبار عن إتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

قال صاحب الكشف : « وقوله : « وربكم ، فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا باقائه عياده ، ويتصموا بالتوكل عليه لإعتصامه ، وقال : « من كل متكبر ، لشمتمل إستعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ . وأراد بالتكبر : الإستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح إستكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وهو فرط ظلمه وعسفه . »

وقال : « لا يؤمن بيوم الحساب ، لأنه إذا اجتمع فى الرجل التعجب

والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده . ولم يترك عظيمة إلا إرتكابها ... (١).

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملك موسى - عليه السلام - ، قبض الله - تعالى - لموسى رجلاً . ثمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه ، هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعاً حكماً مؤثراً ، يحمل الترغيب نارة والترهيب أخرى ، والإرشاد نارة والتأنيب أخرى ... ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ، أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَنَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَاتِ فِرْعَوْنَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِرِيدٍ ظَالِمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ

مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَامُ
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) .

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن موسى - عليه السلام -
أنه مازاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه - تعالى -
قيض لإنسانا أجنبييا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالف في
تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشر .

ثم قال - رحمه الله - : يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جربت في
أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفي بتفويض
ذلك الأمر إلى الله ، فإنه - سبحانه - يقيض أقواما لا أعرفهم البتة ،
يبلغون في دفع ذلك الشر ... ، (١) .

وظاهر الآية السكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون
بدليل قوله - تعالى - « من آل فرعون ، ولم يكن من بني إسرائيل » .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - ذلك فقال : « وأولى القولين في ذلك
بالصواب عندي : القول الذي قاله الذي ، من الرجل المؤمن كان من آل
فرعون ، ولذا فقد أصغى لسكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل
موسى عند نهيه عن قتله ... ولو كان لإسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا
القاتل له ولملئه ما قال بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن تستدعيه بني إسرائيل
لاعتداده بإمام أعداءه ... وليكنه لما كان من ملاقومه ، استمع إليه ، وكف
فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى ... ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٣٠٤

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٢٨

قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذي نضج موسى - عليه السلام - بقوله :
 « إن الملائكة يأتمرُونَ بك ليقتلوك ، فأخرج إني لك من الناصحين ، »

وكان إسمه : حزقييل ، أورد حبيب ، .

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم لإيمانه
 عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، قال لهم عندما سمع فرعون يقول : ذروني
 أقتل موسى ، : أنقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات
 من ربكم ، .

أى : أنقتلون رجلا لأنه ربي الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ،
 وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقوله : أن يقول ربي الله ، في موضع المفعول لأجله ، أى : أنقتلونه
 من أجل قوله هذا . وجمله : وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، حالية من فاعل
 يقول وهو موسى - عليه السلام - .

والمقصود بهذا الإستفهام : الإنكار عليهم ، والتهكميت لهم ، حيث قصدوا
 قتل رجل كل ذنبه أنه عبادة الله - تعالى - وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات
 الدالة على صحة فعله .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كان هذا الرجل يكتم لإيمانه عن قومه القبط ،
 فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ذروني أقتل موسى ، ، فأخذت
 الرجل غضبة لله - تعالى - و « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » اللهم
 إلا مارواه البخارى في صحيحه حيث قال :

حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأزاهي ، حدثني
 عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاصي : أخبروني بأشد شيء
 صنعه المشركون برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : بينا رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بغناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا. فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبة ردفع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : أقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم،^(١) وقال القرطبي : وعن علي - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قریش بعد وفاة أبي طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأقبل هذا بجوه : : أى : يضربه ، ، وهذا بثلته - أى : بحركة نحر يكاشد بها - فلم يغشه أحد إلا أبو بكر وله ضميرتان، فأقبل يجأ هذا وينتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم ، أقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، والله إنه لرسول الله ، فقطعت لإحدى ضميرتى أبى بكر يومئذ ...^(٢).

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدتم موسى بالقتل بل أخذ في محاربة إقناعهم بالعدل عن هذا القصد بشئ الأساليب والحجج فقال : : وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ...

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله : فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شيء ، وإن كانت صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من - يصبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه ...

فأنت ترى أن الرجل كان في نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، في مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرطين ، وكلاهما لا يوجب قهقهة موسى - عليه السلام - بالقتل ، ورحم الله صاحب الكشف . فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٣١

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٠٨

ما ملخصه : وقوله : « أنقثلون رجلا أن يقول ربي الله ... » ، هذا إنكار عظيم منه ، وتبكيك شديد لهم ، كأنه قال : أن تركبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة فط في ارتكابها - إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله « ربي الله » . . .

ثم أخذ في الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا يتخطأ ضرره وإن يك صادقا يصبكم بعض ما بعدمكم به إن تعرضتم له .

فإن قلت : لم قال : « بعض الذي بعدمكم » ، وهو - أي موسى - نبي صادق ، لا بد لما بعدمكم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟

قلت : لأنه احتاج في - مقالة خصوم موسى ومناكريه ، إلى أن يلاوصهم - أي يحايلهم - ويدارهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول . وبآتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال : « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي بعدمكم ، وهو كلام المنصف في مقاله ، غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما بعد ، ولكنه أردفه بقوله : « يصبكم بعض الذي بعدمكم » ، ليضمنه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأقياء فضلا عن أن يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ... » (١) .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتغير فقال : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » .

أي : إن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يهدي إلى الحق والصواب ، من كان مسرفا في أموره ، متجاوزا الحدود التي شرعها الله - تعالى - ، ومن كان كاذبا في إخباره عن الله - تعالى - ، ولو كان موسى

مصرفاً أو كذاباً ، لما أیده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة ، وبالخصم
الساطة الدالة على صدقه .

فالجملۃ الکریمة إرشاد لهم عن طريق خفي إلى صدق موسى فيما يبلغه عن
ربه وتعرض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .
قال الجمل في حاشيته : « فالجملۃ الکریمة كلام ذو وجهين نظراً
لموسى وفرعون :

الوجه الأول : أن هذا إشارة إلى الرمز والتعرض بعلمو شأن موسى .
والمعنى : أن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله
إلى ذلك لا يكون مصرفاً ولا كذاباً ...

الوجه الثانى : أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى ،
وكاذب في ادعائه الألوهية ، والله لا يهدى من كان كذلك ... (١) .

ثم أخذ في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفي تحذيرهم من نقمه فقال : « يا قوم
لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فن ينصرونا من بأس الله إن جاءنا ، .
أى : وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضاً - : يا قوم ، أى : يا أهلى ويا عشيرتى .
أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين في أرض
مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى ...

وإذا كان أمرنا كذلك ، فن نستطيع أن ينصرونا من عذاب الله ، إن
أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

ولنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض دون أن يسلك
ففسه معهم ، وسلك نفسه معهم في موطن التحذير ، تطييباً لقلوبهم ، ولإذنا
بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا يهجم سوى منفعتهم ومصلحتهم ...

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة
الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه :
« ما أرىكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، .

أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم ، لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صواباً وخيراً ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهدى لكم برأى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتويه على قومه ، وأنه ما يريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص عن موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جملة قومه فأطاعوه ، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم - « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه ، وحكى القرآن عنه ذلك فقال : وقال الذى آمن يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب

أى قال لهم : يا قوم لنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرأ . . .

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء ، وكان تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر .

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه ، فالسكلام على حذف مضاف .

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

وقوله : مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين بعدهم . . . ، يدل أو عطف بيان من قوله « مثل يوم الأحزاب » .

والدأب : العادة الدائمة المستمرة . يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والعنان والعادة .

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وغاد ونيهود
والذين من بعدهم كقوم لوط ، فهو لاء الأقوام كذبوا أنبيائهم فدمرهم الله
- تعالى - ندميرا ، فأحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى
- عليه السلام - بالقتل والإيذاء ، فينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بهم .

وما الله - تعالى - يريد ظلمنا للعباد ، أى : فما أنزله - سبحانه - بهم
من عذاب ، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم ، وعلى الإعراض عن دعوة
أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفهم يظلمون .

ثم بواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول :
ويا قوم لنى أخاف عليكم يوم التناد .

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يذكر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار ، ونداء
أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاء .
فلفظ التناد - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء ،
يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا .

وقوله : يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . . . ، بدل من يوم
التناد . أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف
الحساب والجزاء ، فتتلقاكم النار بآلهها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا
تستطيعون ، لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله
- تعالى - وعقابه .

ومن يضل الله فإله من هاد . أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق
الحق بسبب سوء إستعداده ، وإستجابته العمى على الهدى ، فإله من هاد
يهديه إلى الصراط المستقيم .

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع
ذلك بتخويفهم من العذاب الآخروى .

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ... »

والذي عليه المحققون أن المراد يوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئته إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون فالتعبير في الآية بالكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقةتهم في الإعراض عن الحق .

أى : « ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل بجي موسى إليكم ، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات البينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه . »

« فما زلتم في شك مما جاءكم به ، أى : فما زال آباؤكم في شك مما جاءكم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - . حتى إذا هلك ، أى : مات يوسف - عليه السلام - . »

« قلتم ، أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، فهم قد كذبوا رسالته في حياته ، وكفروا به من بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده . فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، في تكذيب رسل الله ، وفي الإعراض عن دعوتهم . »

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم « رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف - عليه السلام - ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فأطاعوه تلك الساعة إلا لجررد الوزارة ، والجاه الدنيوى ، ولهذا قال : « فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده »

رسولا ، أى : يثبتم فقطم طامعين : د لن يبحث الله من بعده رسولا ، وذلك لكفرهم وتكذيبهم ، (١) .

وقوله : د كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله - تعالى - من هو مسرف فى ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب فى دينه . شك فى صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون فى آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال : الذين يجادلون آيات الله بغير سلطان اتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . . .

وقوله : د الذين يجادلون . . . مبتدأ ، وخبره قوله - تعالى - كبر مقتا . . . والفاعل ضمير يعود إلى الجدل المفهوم من قوله د يجادلون ، أى : كبر جدالهم ود مقتا ، تمييز محول عن الفاعل ، أى : عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين .

أى : الذين يجادلون فى آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان اتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسوله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا ،

قال الجمل : وهذه الصفة - وهى الجدل بالباطل بدون برهان - موجودة فى فرعون وفومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عمل عن مخاطبتهم إلا الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم ، وأبرز ذلك فى صورة تنكرهم فلم يخصصهم بالخطاب .

وفي قوله : د كبر ، ضرب من التعجب والاستعظام لجداهم . (١)
 وقوله : كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، أى : مثل ذلك
 الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - ويختتم بالكفر والعمى على قلب كل
 إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاوّل ومتجبر على خلق الله - تعالى -
 بالعدوان والإبذاء .

• • •

ومع هذا النصيح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة ،
 والإرشادات القريمة من الرجل المؤمن لقومه . . ظل فرعون سادراً في غياه
 مصر على كفره وضلاله . . إلا أن الرجل المؤمن لم يياس من توجيه الصبح
 بل أخذ يذكر وينذر ويبشر . . . ويعكى القرآن السكر بهم كل ذلك فيقول :

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦)
 أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأظُنُّهُ كَاذِباً ، وَكَذَلِكَ
 زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى
 تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَأْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)
 يَأْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)
 مَنِ عَمِلَ سِئْتَةً فَلَا يَجْزِى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنِ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشِى
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)
 وَيَأْقُومِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى
 لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لى بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٥ .

النَّارِ (٤٢) لاجْرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
 الْآخِرَةِ ، وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)
 فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَبْئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَاحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
 الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) .

والمراد بالصرح في قوله - تعالى - : وقال فرعون يا هامان ابن لي
 صرحا . . . ، البناء العالى المكشوف للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه
 ما يريد أن يراه ، ماخوذ من التصريح بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها
 هنا : أبواب السماء وطرقها ، التى يصل منها إلى ما بداخلها .

أى : وقال فرعون لوزيره هامان : يا هامان ابن لي بناء ظاهرا عاليا
 مكشورا لا يخفى على الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لئلى عن طريق الصعود على
 هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر إلى
 إله موسى .

والمراد بالظن في قوله : وإنى لأظنه كاذبا ، اليقين لقوله ، - تعالى -
 فى آية أخرى : وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقدلى
 يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لئلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من
 الكاذبين ، (١) .

فقوله - كما حكى القرآن عنه - : ما علمت لكم من إله غيرى ، قرينة

قوية على أن المراد بالظن في الآيتين: اليقين والجزم، بسبب غروره وطمعانه .
 أى : وإننى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا في دعواه أن هناك إلها
 غيرى لكم ، وفي دعواه أنه رسول إلينا .

وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثانى يدل من الأول ، والثى إذا بهم
 ثم أوضح ، كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أبل بلغه من أسباب
 السموات أبهمها ثم أوضحها .

وقوله : فاطلع .. ، قرأه الجمهور بالرفع عطفا على : أبلغ ، فيكون في
 حيز الترجى .

وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب فيكون جوابا للأمر في قوله : ابن
 لى صرحا ... ،

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالاته على أنه أبلغ الغاية في الطغيان
 والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل - أيضا - على شدة خداعه ، إذ
 هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان
 هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس .

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذى لم يرفى
 الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ،
 من أن هناك إلها غير فرعون ... ، (١) .

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا ، المقصود منه التلبيس
 والتزويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف
 حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم :
 لو كان إله موسى موجودا لكان له عمل ، وعمله إما الأرض وإما السماء ،

ولم نره في الأرض ، فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلم .. (١) .

ثم بين ، سبحانه - أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال :
« وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في ثياب » .

والثياب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله - تعالى - فلانا ، أى : أهلكه . وتبت يدا فلان ، أى : خسرتا ومنه قوله - سبحانه - : « تبت يدا أبي لهب وتب .. » .

أى : ومثل ذلك الزين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى . وما كيد فرعون ومكره وتلبسه واحتياله في إبطال الحق ، إلا في هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه . بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون .. » ، أى : فيما أنصحتكم به ، وأرشدكم إليه .

« أهدكم سبيل الرشاد » ، أى : أتبعوني فيما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد . أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الفنى والضلال .

« يا قوم إنى أنا هذه الدنيا متاع .. » ، أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالأت أيامه .. .

« وإن الآخرة ، وحدها » هى دار القرار ، أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود .

« من عمل سيئة ، في هذه الدنيا ، فلا يحزى ، في الآخرة إلا مثلها ، كرما
من الله - تعالى - وعدلا .

« ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، باق - تعالى -
إيماننا حقا .

« فأولئك ، المؤمنون الصادقون ، يدخلون الجنة برزقون فيها بغير حساب ،
أى : برزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله - تعالى - ،
ولا يحاسبهم عليهم محاسب ، تفضل - سبحانه - على عباده . أن يضاعف لهم
الحسنات دون السيئات .

ثم استند - كرمه منه فقال : « ويا قوم ما أدعوكم إلى النجاة ،
من العذاب النبوى والآخروى ، بأن آمركم بأن بالإيمان والعمل الصالح ،
وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وهو
موسى - عليه السلام - .

وأنتم تدعوننى إلى النار ، أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة
غير الله - تعالى - ، والمواقفة على قتل الصالحين أو إيذائهم ..

قال صاحب السكشاف : « فإن قلت : لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو فى
النداء الثالث دون الثانى ؟

قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سدة الغفلة ،
وفيه : أنهم قومه وعشيرته ... ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتجهزون لهم ،
ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه ، فإن سرورهم سروره ، وغمهم
غمه ، ويؤولوا على نصيحتهم لهم ، كما كرر إبراهيم - عليه السلام - فى نصيحة
أبيه قوله : « يا أبت - فى سورة مريم - .

وأما الجىء بالواو العاطفة ، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمبطل ،

وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو ، وأما الثالث :
فداخل على كلام ليس بتلك المثابة ، (١) .

وقوله : د تدعوني لا كفر باقه وأشرك به ما ليس لي به علم ... ، بدل
من قوله : د وتدعوني إلى النار ، وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوني إلى الإشراف باقه
- تعالى - وإلى الكفر به ، مع أني أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا شريك له ،
لا في ذاته ولا في صفاته .

وقوله : ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، بيان للفرق الشاسع بين دعوته
لهم ودعوتهم له

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع
على بطلانها ، وهو بدعوم إلى عبادة الله - تعالى - وحمده ، الغالب لكل
ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه .

ثم يؤكدهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل
وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : د لا جرم أن ما تدعوني إليه ، ليس له
دعوة في الدنيا ولا في الآخرة

وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب . وقد وردت هذه الكلمة
في القرآن في خمسة مواضع ، وفي كل موضع جاءت متلوذة بإن واسمها .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من د لا ، ود جرم ، تركيب خمسة عشر .
ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق وثبت ، والجملة بعدها هي الفاعل
لهذا الفعل

ومن النحاة من يرى أن د لا ، نافية للجنس ، ود جرم ، لاسمها ، وما بعدها
خبرها .

أى : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن ألهمتكم التى تدعوننى لعبادتها
ألهة باطلة ، لا وزن لها ولا قيمة لافى الدنيا ولا فى الآخرة ...

وأن مردنا ، جميعا ، إلى الله ، - تعالى - وحده ، وأن المسرفين ، أى :
المستكثرين من المعاصى فى الدنيا ، هم أصحاب النار ، فى الآخرة .

ثم نصح نصائح الحكمة الغالية بقوله : « فستذكرون ، يا قوم ، ما أقول
لكم ، من حق وصدق .

« وأفوض أمري إلى الله ، - تعالى - وحده لى يعصمى من
كل سوء .

« إن الله ، - تعالى - بصير بالعباد ، لا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو
أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله - تعالى - : « فرقاه الله سيئات ما كسبوا ... » ، بيان للعاقبة
الطيبة التى أكرمها الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون
وجنده .

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهده بكلمة الحق ، ونصحه
لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن
مكرسى ...

« وحق بآل فرعون ، أى : ونزل وأحاط بفوعون وقومه سوء العذاب
بأن أغرقهم الله - تعالى فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال :
« النار يعرضون عليها غدوا وعشيا . ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون
أشد العذاب . »

والغدو : أول النهار . والعشي : آخره . وجملة : « النار يعرضون عليها ... »
بدل من قوله - تعالى - « سوء العذاب » .

بمرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم وهم في قبورهم في الصباح والمساء ، يوم تقوم الساعة ، يقال للملائكة العذاب : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .

قال القرطبي : والجهور على أن هذا العرض في البرزخ واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى - : والنار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ما دامت الدنيا ...

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ألا تراه يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

وفي الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثله من الكفار ، تعرض على النار بالغداة والعشي ، فيقال : هذه داركم . . . (١) .

هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على أسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكامها في الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل موسى - عليه السلام - ، ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل .

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله - تعالى - من سوء مكر أعدائه ، ونجّاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيئ - يحق بهم .

ثم حكى - سبحانه - جانباً مما يدور بين أهل النار من مجادلات ، وكيف أن كل فريق منهم يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولا يمكن لا يجابون

إلى طلبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن سعة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين في الدنيا والآخرة ، قال - تعالى - :

« وَإِذْ يَتَحَايُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ، قَهْلَ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ عَنَّا نَضِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخِزْنَةُ جَهَنَّمَ ، اذْعُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا : بَلَى ، قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) » .

و إذ ، في قوله - تعالى - : « وإذ يتحايون في النار » ، متعلق بمعذرتهم تقديره : أذكر أي : وأذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليحشروا ويتظاهروا ، وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم .

وفيقول الضعفاء ، منهم : للذين استكبروا ، في الدنيا وكانوا رؤساء وقادة .

« إنا كنا لكم تبعاً ، أي إنا كنا في الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لهما كما ومسخرين لخدمتكم ... والإستغفار في قوله - تعالى - : « قهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » ، للطلب المصحوب بالرجاء والاستجداء ...

أي : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا في الدنيا منقادين لكم لإنقياد العباد الصالحين

لسيده ، فادفعوا عنا شيئا من هذا العذاب الممين الذى نزل بنا ؛ فطالما دافعنا عنكم فى الدنيا وسرنا وراءكم بدون تفكير أو معارضة .

وقوله : نصيبا ، منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله : « مغنون ، أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذى نحن فيه ، وتحملون عنا نصيبا منه .

وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : قال الذين استكبروا ، أى للضعفاء .

« إنا كل فيها ، أى : أنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شئ من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا .

ولفظ « كل ، مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خير ، والجملة من المبتدأ والخبر ، خبر إن .

وجملة : « إن الله قد حكم بين العباد ، من جملة الرد ، أى : إن الله تعالى قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، لجعل المؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار ، وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

ورصد أن يذس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : وقال الذين فى النار ، لخزنة جهنم ، « وملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين .

قالوا لهم : « ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الايام الكثيرة التى ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التى رقتنا العذاب الدائم .

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : « أولم تك تأتكم رسلكم بالبينات »
 أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : « أولم تك رسلكم فى الدنيا
 فتنبذكم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على
 صدقهم . »

« قالوا بلى ، أى : قال الكافرون لخزنة جهنم : بلى أتونا بكل ذلك
 فكذبناهم . »

وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : « ما دام الامر كما ذكرتم من أن الرسل قد
 فصحوكم ولعنكم أمرضتم عنهم فادعوا ، ما شئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء
 لن ينفعكم شيئا . »

« وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم
 إلا فى ضياع وخسران . »

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : « إنا لننصر
 رسلنا ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، . »

والأشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم
 يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين يشهدون للرسول
 بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر وكل من يقوم يوم القيامة
 للشهادة على غيره يكون من الأشهاد .

أى : لقد اقتضت سنتنا التى لا تتخلف أن ننصر رسلنا والمؤمنين فى
 الدنيا بالحجة الدامغة التى تزهق باطل أعدائهم ، وبالغلب عليهم ، وبالاتقام
 منهم ...

وأن ننصرهم فى الآخرة كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم .
 قال صاحب الكشف : « قوله : « فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »
 أى : فى الدنيا والآخرة ، يعنى أنه ينصرهم فى الدارين جميعا بالحجة والظفر

على أعدائهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله . فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين ، (١) ...

وما ذكره صاحب الكشف فإننا نراه واقعا في سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي سيرة أتباعه فلقد هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة وليس معه سوى أبي بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثمان سنوات فأحيا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه .

والمؤمنون قد يغلبون - أحيانا - ويمتدئ عليهم ... ولكن العاقبة لا بد أن تكون لهم ، متى داوموا على التسك بما يقتضيه إيمانهم من القبات على الحق ، ومن العمل الصالح ...

وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للاشعار بأن قصر الرسل والمؤمنين في هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين والآخرين ، لا ينكره منكر ، ولا ينازع فيه منازع .

وقوله : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ... » أي : وننصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أعداءهم لكي نعضو عنهم ، فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أضرار ساقطة . وجماعات في غير وقتها .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » لأن المقصود منهما واحد ، وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما ..

« ولهم اللعنة ، من الله - تعالى - ومن عباده المؤمنين » ولهم ، - أيضا - « سوء الدار » وهي جهنم وسوقها ما يسوء فيها من العذاب فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي : ولهم الدار السوءى .

وفي هاتين الآيتين ما فيه من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن
الإهانة التي ليس بعدها إهانة للكافرين .

ثم ساق - سبحانه - مثالا من نصره لرسله وعباده المؤمنين ، فقال
- تعالى - : « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب . هدى
وذكرى لأولى الألباب . »

أى : « ولقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصحف
والشرائع ، وأورثنا من بعده قومه بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة ، لكي
يتفهمون بإرشادانه وأحكامه وتوجيهاته . »

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب
العقول السليمة فقله - تعالى - « هدى وذكرى ، » ففعل لأجله ، أو هم
مصدران في موضع الحال ، أى : « وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، حالة كونه
هاديا ومذكرا لأولى الألباب ، لأنهم هم الذين يفتهمون بالهدايات ، وهم الذين
يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم . »

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم -
بالصبر على أذى أعدائه ، فقال : « فاصبر إن وعد الله حق . »

أى : « إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أننا سننصر
رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . . . فاصبر على
ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله - تعالى - به من النصر ثابت لا شك
فيه ، وحق لا باطل معه . »

« واستغفر لذنبك ، فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل
ما يفضينا - يجعل أمتك تقتدى بك في ذلك ، وتسير على نهجك في الإكثار
من فعل الطاعات . »

« وسبح بحمد ربك بالمشي والإبكار . أي : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تغزيه عن كل ما لا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار . وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : « واعلم أن مجاميع الطاعات عصوراً في تسدين : التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما لا ينبغي ، والاول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية ، فوجب أن يكون مقدماً عليه في الذكر ..

أما التوبة عما لا ينبغي ، فتراها في قوله - تعالى - : « واستغفر لذنبك .. » وأما الاشتغال بما لا ينبغي ، فتراها في قوله - تعالى - : « وسبح بحمد ربك بالمشي والإبكار ، .

والتسبيح عبارة عن تغزيه الله - تعالى - عن كل ما يليق به والمشي والإبكار ، قبل صلاة العصر وصلاة الفجر ، وقبل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والمشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الاوقات ، وبالجمله فالمراد منه المراقبة على ذكر الله . وأن لا يفتر اللسان عنه .. » (١)

ثم تعود السورة المكرمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التي حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفي المساواة بين الكفار والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله - تعالى - فتقول :

« إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَمٍّ ، إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءَ ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) .

والمراد بالمجادلة في قوله - تعالى - : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أنائم ... » ، المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والكشف عنه .. فهي محمودة ، لأنها تهندي إلى الخير والصلاح ..

قال صاحب الكشف : « فأما الجدال في آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقاومة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله .. » (١)

وجملة « إن في صدورهم لإكبر ما هم بها الغية » ، خبر « إن » ، والتكبر والتعالى والتعاضم على الغير .

والمعنى : « إن الذين يجادلون في آيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم ... »

هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعاضم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم ... وهم جميعا لن يصلوا إلى شيء من ذلك ، ولن يبلغوا ما تتوق إياه نفوسهم المربضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده .

وصدق الله إذ يقول : د ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، (١) .

فآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التي حملت هؤلاء المجادلين
بالباطل على جدالهم ، هو حجبهم للتكبر والتعالى ...

قال الألوسي : قوله : د بغير سلطان أنام ... أى : بغير حجة في ذلك
أنهم من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إثبات الحجة ،
الإيدان بأن المتكلم في أمر الدين ، لا بد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان
صحيح ، وهذا عام في كل مجادل مبطل ...

وقوله : د مام ببالفه ، صفة لقوله د كبر ، أى مام ببالفه موجب
التكبر ومقتضيه ، وهو متعلق بإرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة
أو النبوة ... ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ، إرشاد منه
- تعالى - إلى ما بقى من شرور هؤلاء المجادلين بالباطل .

أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو الدافع إلى جدالهم ، وما
دام هذا هو حالهم ، فالتجىء إلى الله - تعالى - أيها الرسول الكريم - لى
يحفظك من شرورهم وكيدهم ، إنه - تعالى - هو السميع لى كل شىء ، البصير
بما ظهر وخفى من شئون عباده .

ثم يبين - سبحانه - للناس عن طريق المشاهدة صغر حجمهم بالنسبة إلى
بعض خلقه - تعالى - فيقول : د لخلق السموات والأرض أكبر من خلق
الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، .

(١) - سورة فاطر . الآية ٢

(٢) - تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ٧٨ .

أى : لخلق السموات والأرض إبتداء وبدون مثال سابق ، أكبر وأعظم من خلق الناس ، وما لا شك فيه أن من قدر على خلق الأعظم ، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر وأقدر ، ولا يمكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهووى عليهم ، لا يعلمون هذه الحقيقة الجليلة .

وقوله - تعالى - : أكبر من الناس ، إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفهم ، فن المعروف بين الناس أن معالجة الشيء الكبير أشد من معالجة الشيء الصغير ، وإن كان الأمر بالنسبة إلى الله - تعالى - لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير ، إذ كل شيء خاضع لإرادته ، كما قال - سبحانه - : إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

قال صاحب الكشف : وفإن قلت : كيف اتصل قوله : لخلق السموات والأرض . . . بما قبله ؟

قلت : إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها . فخرجوا بخلق السموات والأرض ، لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهما ، وبأنهما خلق عظيم لا يقادر قدره . وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شيء قليل ، فن قدر على خلقهما مع عظمهما ، كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر . . . (١) .

وقوله - تعالى - : وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء . . . ، نفى لعدم المساواة بين الأخيار والأشرار . والمتقين والفجار . . .

أى : كما أنه لا يصح في عرف أى عاقل المساواة بين الأعمى والبصير ، كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا في دنياهم العمل الصالح ، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السيئ ، والفعل القبيح . . .

وانفظ قليلا ، في قوله - تعالى - : « قليلا ما تتذكرون » ، مفعول مطلق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، و « ما » ، مزيدة للتأكيد . أى : تذكرنا قليلا تتذكرون .

ثم أكد - سبحانه - مجيء الساعة في الوقت الذى يختاره - تعالى - فقال : « إن الساعة لآتية لا ريب فيها ، أى : لا ريب ولا شك في مجيئها في الوقت الذى يشاؤه - عز وجل - ، ويمكن أكثر الناس لا يؤمنون ، بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحوذ الشيطان عليهم . . . »

ثم أمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء فقال : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . . . »

أى : وقال ربكم - أيها المؤمنون - تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء .

ولا تنافى بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله - تعالى - ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من العبادة ، بل هو مخها كما جاء في الحديث الشريف .

والإنسان الذى ألزم في دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديراً بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عندما دعوا الله - تعالى - أجاب لهم دعاءهم . ومن ذلك قوله - تعالى - : « ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم » (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ، أى :

(١) لمعرفة آداب الدعاء وشروطه وفضله . . راجع كتابنا « الدعاء » طبع مجمع البحوث الإسلامية .

إن الذين يستكبرون عن طاعتي ، وعن التقرب إلي بما يرضيني ، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين .

فقوله : « داخرين » ، من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع . يقال : دخر فلان يدخر دخور إذا ذل وهان .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التي تتصل بموضوع الدعا . فارجع إليه ، إن شئت (١) .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - مصير الذين يستكبرون عن عبادته ، أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التي أنعم بها على عباده . كنعمة السماء والأرض ، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من الطيبات ، ونعمة الليل والنهار . . فقال - تعالى - :

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تَوْفِكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَالسَّمَاءَ بَنَاءً ، وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

طِفْلاً ، ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، ثُمَّ لَتَسْكُونُوا مَبْصُورًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى
 مِنْ قَبْلُ ، وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي
 يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُكُمْ فَإِنَّمَا يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) .

فقوله - تعالى - : د الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ،
 بيان لنعمتى الليل والنهار اللتين أنعم بهما - سبحانه - على الناس .

أى : الله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل
 لتسكنوا فيه ، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهىاء هذه الاستراحة بأن
 جعله مظلماً ساكناً . . .

وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصراً ، أى : جعله مضيئاً مسافراً ،
 بحيث تبصرون فيه ما تريدون لإبصاره من الأشياء المتنوعة .

قال صاحب الكشف : د قوله د مبصراً ، هو من الإسناد المجازى لأن
 الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار .

فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالخال ؟ وهلا كانا حالين
 أو مفعولاً لهما ، فیراعى حق المقابلة ؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى
 الآخر ، ولأنه لو قال : لتبصروا فيه فأنت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ،
 ولو قيل : ساكناً - والليل يحوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى
 إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ربيع فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز ،^(١)

وقوله : د إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ،
 بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - عليهم .

أى : إن الله - تعالى - لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ، ولكن
أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء
والشهوات عليهم .

وقال - سبحانه - : لذو فضل ، بالتذكير ، الإشعار بأنه فضل لا تحيط به
عبارة أو وصف .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو
خالق كل شيء . . . ، يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله
- عز وجل - .

و ذلكم ، مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة .

أى : ذلكم الذى أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله - تعالى - ربكم خالق
كل شيء في هذا الوجود ، لا إله إلا هو في هذا الكون . .

وقوله - تعالى - : ، فأنى تؤفكون ، تعجيب من انصرافهم - بعد هذه
النعم - عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران .

أى : فكيف تنقلبون عن عبادته - سبحانه - إلى عبادة غيره ، مع
أنه - عز وجل - هو الخالق لكل شيء ، وهو صاحب تلك النعم التى
تتمتعون بها .

وقوله - تعالى - : : كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يحدون . بيان
الحال الذين وقفوا من نعم الله - تعالى - موقف الجحود والكفران .

ويؤفك هذا بمعنى القلب والصرف عن الشيء ، من الأفك
- بالفتح - مصدر أفك عن الشيء بمعنى صرفه عنه - وبابه ضرب -
ومنه قوله - تعالى - : : قالوا أجتنا لنافكنا عن آلهتنا . . ، أى :
لتصرفنا عن عبادتها .

والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى الباطل ، ينصرف
وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على
وحدانيتنا وقدرتنا يحدون ويكفرون .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر نعمه عن طريق الزمان - الليل والنهار -
أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان - الأرض والسماء - فقال : « الله الذي
جعل لكم الأرض قراراً ، أى : جعل الأرض مكاناً لاستقراركم عليها ،
والسمى فيها .. »

« والسماء بناء ، أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق
رءوسكم ، فانتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد .. »

قال الألوسي قوله : « والسماء بناء ، أى : قبة ، ومنه أبنية العرب لقبابهم
التي تضرب . وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ ،
وفيه إشارة ليكروبتها ، وهذا بيان لمضله - تعالى - المتعلق بالمكان بعد بيان
فضله المتعلق بالزمان ، (١) . »

وقوله : « وصوركم فأحسن صوركم ، بيان لفضله - تعالى -
المتعلق بذواتهم . »

أى : جعل لكم الأرض مستقراً ، والسماء بناءً ، وصور أشكالكم
في أحسن تقويم ، وأجل هيئة ، كما قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان
في أحسن تقويم ، »

« ورزقكم من الطيبات ، أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستند .
ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ، أى : ذلكم الذي أعطاكم تلك
الذمم المتعلقة بزمانكم ، ومكانكم ، وذراتكم ، ومطعمكم ومشربكم ، هو الله
ربكم الذي تولاكم بتربيته ورعايته في جميع أطوار حياتكم . فتبارك الله
- تعالى - وتعاظم في ذاته وفي صفاته ، فهو رب العالمين ومالك أمرهم .
« هو الحى ، أى : هو - سبحانه - المنفرد بالحياة الدائمة الباقية .. »

، لا إله إلا هو ، إذ لا موجود يدايه لا في ذاته ولا في صفاته
ولا في أفعاله . .

، فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ، أى : فاعبدوه عبادة
خالصة لوجه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاثر ، حالة
كونكم قائلين الحمد لله رب العالمين .

قال ابن جرير : « كان جماعة من أهل العلم يأمرؤن من قال لا إله إلا الله ،
أن يتبعها بقوله : « الحمد لله رب العالمين ، عملاً بهذه الآية » (١) .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يوجب به
المشركين فقال : « قل إني نهييت أن أعبد الذى تدعون من دون الله لما جاءني
البيئات من ربي . . . » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين الذين يطلبون منك
مشاركتهم في عبادة آلهتهم : قل لهم إني نهييت من ربي وخالقي ومالك أمرى
عن عبادة غيره - تعالى - ، والسبب في ذلك أن كل الدلائل والبراهين التى
أكرمى - سبحانه - بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله -
تعالى - وحده .

فقوله : « لما جاءني البيئات من ربي » ، بيان السبب الذى من أجله نهاه ربه
عن عبادة غيره ، وهذه البيئات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية .

وقوله : « وأمرت أن أسلم لرب العالمين ، أى : إني بعد أن نهاني ربي عن
عبادة غيره ، أمرنى بأن أسلم وجهى لإليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده
رب العالمين ومالك أمرهم .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته في خلق الإنسان في أطوار مختلفة ،

فقال - تعالى - : « هو الذى خلقكم من تراب ، أى : خلق أبائكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه . »

« ثم من نطفة ، وأصل النطفة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلّة . »

والمراد بها هنا : المني الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .
« ثم من علقه ، والعلقة قطعة من الدم المتجمد .
« ثم يخرجكم طفلا ، أى : ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها . فقوله : « طفلا ، اسم جنس يصدق على القليل والكثير . »

« ثم لتبلغوا أشدكم ، بعد ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة ، إلى المرحلة التى تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم . »

« ثم لتـكونوا شيوعا ، بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى السن التى تنقاص فيها قوتكم ، والبلوغ الكريمة معطوفة على قوله « لتبلغوا ، » أو معمولة لمخدوف كالجلل التى تقدمتها ، أى : ثم يبيقيكم لتكونوا شيوعا . »

« ومنكم من يتوفى من قبل ، أى : ومنكم من يدرك الموت من قبل أن يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة . »

وقوله - تعالى - : « ولتبلغوا أجلا مسمى ، معطوف على مقدر . أى فعل ذلك بكم لى تعيها ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهى عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب والجزاء . »

وقوله : « واعلمكم تعقلون ، أى : واعلمكم تعقلون عن ربكم أنه هو الذى يبيحكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم من تلك الأحوار المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا . »

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم بقوله - تعالى - :
 « هو الذى يحيى ، من يريد لإحياءه ، ويميت ، من يشاء لإماتته .

« فإذا قضى أمرا ، أى : فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى هذا الوجود
 « فإنما يقول له ، أى لهذا الأمر ، كن فيه - كرون ، فى الحال بدون توقف على
 سبب من الأسباب ، أو علة من العلل .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه
 من المشركين ، بأن يبين له سوء عاقبتهم يوم القيامة ، وبأن أمره بالصر على
 كيدهم ، وبشره بأن الباقية ستكون له ولأتباعه . . . فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ (٦٩) الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ
 الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
 يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قَبْلَ لَهُمْ آيْنٌ مَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ
 الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا
 كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى
 الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِذَا نَرَيْتَكَ بِعَظْمِ الَّذِي
 نَمِدُّمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتَكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُومُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ
 مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ رَسُولٌ

أَنْ يَأْتِيَ بَآيَةٍ إِلَّا يَأْذَنَ اللَّهُ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله . . ، لتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، حيث أنكروا الحق الواضح وانسافوا وراء الأوهام والأباطيل .

والمعنى : أنظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال المشركين ، وتعجب من سلوكهم الذميم ، حيث جادلوا في الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة .

وقوله : أنى يصرفون ، أى : أنظر كيف يصرفون هن آيات الله الموجهة للإيمان بها ، إلى الجحود والتكذيب والجدال بالباطل فيها ؟

لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن وصل إليهم . . . ولكنهم عمدا وصموا عنه ، لانطماس بصائرهم ، واستحوذ للشيطان عليهم . وقوله : الذين كذبوا بالكتاب ... ، يدل من قوله : الذين يجادلون في آيات الله . .

أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الكريم ، الذى أنزلناه إليك - يا محمد - لتخرجهم به من الظلمات إلى النور .

وكذبوا - أيضا - بما أرسلنا به رسالنا ، من سائر الكتب والمعجزات . فهم لم يكتفوا بالتكذيب بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول . وقوله - تعالى - : فسوف يعلمون ، وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسول وبكتبهم ، أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لآيائه الله - تعالى - ولكتبه التى أنزلها عليهم .

ثم فصل - سبحانه - هذا الوعيد ، وبين ما أعد لهم من عذاب فقال : إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى النارى يسجرون .

و . إذ ، هنا ظرف بمعنى : إذا ، وهو متعلق بـ يعلمون ، وعبر - سبحانه - بالظرف الدال على الماضي ، للدلالة على تحقق الخبر ، حتى لو كان العذاب قد نزل بهم فعلا .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد يوضع في اليد والعنق فيجمعهما .

والسلاسل : جمع سلسلة ، وهي ما يربط بها الجاني على سبيل الإذلال له .
والحميم : الماء البالغ أفعى درجات الحرارة .

ويسجرون : مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود .

والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع الأغلال والقيود في أعناقهم ، ثم يسحبون ويمحرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقى بهم في النار التي تملأ بهم ، ويكونون وقودا لها .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : وهل قوله : فسوف يعلمون . إذ الأغلال ... ، إلى مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟

قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله - تعالى - متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد . والمعنى على الاستقبال ... ، (١) .

وقوله - تعالى - : ثم قيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، تبكى وتأنى لهم .
أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المأمين لهم : أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ، لكي تدفع عنكم شيئا من العذاب الاليم الذي نزل بهم ؟ .

وقوله : قالوا أضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ... ، حكاية لجوابهم الذي يدل على حسرتهم وبؤسهم .

أى: قالوا: ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا، ولا م يعرفون عنا طريقا، ثم أضربوا عن هذا القول ترهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا: بل لم تكن نعبد من قبل في الدنيا شيئا يعتد به، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أو هام وضلال...

وقوله - تعالى - وكذلك يضل الله الكافرين، أى مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح، يضل الله - تعالى - الكافرين، ويجعلهم يتخبطون في إجاباتهم على السائلين لهم.

ثم بين سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا العذاب المهيمن فقال: ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فئس مثوى المتكبرين.

وقوله «تمرحون» من المرح وهو التوسع فى الفرح مع الأشر والبطر. أى: ذلكم الذى نزل بكم من العذاب، بسبب فرحكم وبطركم فى الأرض بالباطل، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها.

وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك: أدخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً، فئس مثوى، أى: مكان المتكبرين، عن قبول الحق جهنم.

وقال - سبحانه - فئس مثوى المتكبرين، ولم يقل فئس مدخل المتكبرين، للإشارة إلى خلودهم فى جهنم، إذ الثواء معناه الإقامة الدائمة، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا قام به إقامة دائمة.

ثم ذكر الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الوصية بالصبر فقال: «فاصبر إن وعد الله حق، فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون».

وقوله: «فإما نرينك» أصله: فإن ترك، فريدت «ما» لتوكيد «إن».

الشرطية ، وجوابها محذوف ، وقوله « أو نتوفينك » ، جوابه « فإلينا يرجعون »
والمعنى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد ، فاصبر على
جدالهم بالباطل ، إن وعد الله - تعالى - بتعذيبهم وبتهلكة عليهم حق .

فإن ترك بعض الذي نعدهم به من القتل والأسر والهزيمة فيها ونعمت ،
أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم يوم القيامة ، فنجازهم بما يستحقون
من عقاب .

فالآية المكرمة تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بمداومة الصبر ، وتحض
على تبايخ ما أنزل لإيئه من ربه بدون كلل أو ملل ، ثم بعد ذلك يترك النتائج
لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ، فإما أن يطالعه على ما أوعده أعداءه ،
وإما أن يتوفاه قبل ذلك .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإما يرينك بعض الذي نعدهم أو
نتوفينك » ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - نسبية أخرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال :
« ولقد أرسلنا رسلا . . . أى : رسلا كثيرين من قبلك ، أى من قبل
لرسالك إلى الناس .

« منهم من قصصنا عليك ، كنوح وهود وصالح وإبراهيم . . وغيرهم .
« ومنهم من لم نقصص عليك ، أخسارم وأحوالهم لأن حكمتنا قد
اقتضت ذلك .

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا
لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما » ، (٢) .

(١) سورة الرعد الآية ٤٠

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤

والمراد بالآية في قوله - تعالى - : وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . . . ، المعجزة الخارقة لدالة على صدق ، فيما يبلغه عن ربه .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي بمعجزة من عند نفسه ، وإنما يأتي بها بإذن الله - تعالى - ومشيتته ، إذ المعجزات جميعها عطايا من الله - تعالى - لرسله لتأييدهم في دعوتهم .

، فإذا جاء أمر الله ، أى : فإذا جاء الوقت الذى حددده - سبحانه - لعذاب أعدائه ، قضى بالحق ، أى : قضى بين الناس جميعا بالحق ، فينجى - سبحانه - بقضائه العادل عباده المؤمنين .

، وخسر هنالك المبتلون ، أى : وخسر عند مجىء أمر الله ، عند القضاء بين خلقه المبتلون ، وهم الذين مانوا مهربين على كفرهم أو فسوقهم عن أمره . كما قال - تعالى - في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ذو وقته ملك السموات والأرض ، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبتلون ، .

• • •

ثم بين - سبحانه - في أواخر هذه السورة الكريمة ، جانباً آخر من نعمه على عباده ، ووخ الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم ، وهدمهم بأنهم عند مجىء العذاب لإيهم أن ينفعهم إيمانهم . . فقال - تعالى - :

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لَتُرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْشِكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ

مَا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا آمَنَّا
 بِاللَّهِ وَخَذَهُ ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ
 لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ، سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ
 الْمُبْطِلُونَ (٨٥) .

وقوله - تعالى - دافقه الذى جعل لكم الانعام ... ، بيان لنعمة اخرى من
 نعمه التى تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب ، بعد بيانه
 قبل لكثير من النعم التى تتعلق بالليل والنهار ، والسماء والارض ... الخ .

والانعام جمع نعم وأطلق على الإبل والبقر والغنم ، قالوا والمراد بها
 هنا : الإبل خاصة ، لأن معظم المنافع التى ذكرت هنا توجد فيها .

أى : الله - تعالى - هو الذى خلق لكم بقدرته الإبل ، لتركبوا منها ومنها
 تأكلون ، أى لتركبوا بعضها منها ، ولتأكلوا بعضها آخر منها . فن فى الموضعين
 للتبيين .

و- لكم فيها منافع ، أخرى غير الأكل وغير الركوب ، كالإنتفاع
 بالبنائها وأوبارها وجلودها ...

و- لتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، أى : ومن منافعها - أيضا - أنكم
 تستعملونها فى الأمور الهامة كحمل الأنقال ، والانتقال عليها من مكان
 إلى مكان ...

كما قال - تعالى - ونحمل أنقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بهن الأنفس
 لأن ربكم لرووف رحيم ، (١) .

، وعليها وعلى الفلك يحملون ، أى : وعلى هذه الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر يحملون .

كما قال - تعالى - : « الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ... » (١) .

هذا ، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا ما يشمل الإبل والبقر والغنم وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير ، فقد قال : يقول - تعالى - « متنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام » وهى : الإبل والبقر والغنم ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الانتقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأفطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ، وتحرب عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع نجى أوبارها وأصوافها وأشعارها ، فيتخذ منه الأثاث والثياب والامتعة ... » (٢) .

وقوله - تعالى - « ويرىكم آياته فآى آيات الله تشكرون ، تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات المبثوثة فى الكون . والى تدل جميعها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

ولفظ « أى » منصوب بقوله « تشكرون » وقدم وجوباً لأن له صدر الكلام .

أى : أنه - سبحانه - فى كل وقت وحين يرىكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته ، فقولوا لى . آية تلك الآيات تذكرون دلالتها على ذلك ؟

إنها جميعاً تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها ؟

(١) سورة الزخرف آية ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٧ .

فألاية الكريمة توبيخ شديد لأوثاك الذين استحبوا العمى على الهدى ،
مع أن كل شيء في هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار .
ثم وبخهم - سبحانه - مرة أخرى لعدم إنعاضهم بمصارع الغابرين فقال :
« أفلم يسيرا في الأرض ، فينظروا كيف كان طائفة الذين من قبلهم ... » .
أى : أقبعوا في بيوتهم ، فلم يسيرا في أنظار الأرض ، فينظروا
كيف كانت طائفة الأمم المكذبة من قبلهم ، كقوم صالح وقوم لوط ، وقوم
شعيب وغيرهم .

فلاستفهام للتوبيخ والتأنيب ، والقاء في قوله : « أفلم ... » ، للعطف
على مقدر .

ثم فصل - سبحانه - حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال :
« كانوا أكثر منهم ، أى : فى العدد ، وأشد قوة ، أى فى الأبدان
والاجسام ، وآثارا فى الأرض ، أى : وكانوا أظهر منهم فى العمران
والحضارة والغنى .

« فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، أى أن هؤلاء الغابرين عند ما حل بهم
عذابنا لم تغن عنهم شيئاً كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم ... بل أخذناهم أخذ
عزيز مقتدر فى زمن يسير .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال : « فلما جاءتهم
رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ... »

أى : فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين ، فرحوا بما لديهم من العلوم
الدنيوية كاللجارة والزراعة ... واغتروا بتلك القشور التى كانوا يزعمون
أنهم على شيء من العلم الدينى ، واستهزؤا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى
إلى الرشء ، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله ... واعتقدوا - لغبايمهم - وانطماس
بصائرهم - أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها ...

ورحم الله صاحب البكشاف فقد فصل القول عند تفسير هذه الآية فقال :
قوله : « فرحوا بما عندهم من العلم ، فيه وجوه : منها أنه أراد القلم الوارد على

سبيل التمسك في قوله - تعالى - : « بل أدارك علمهم في الآخرة ، وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب . »

ومنها : أن يريد علم الفلاسفة والديهين عن بني يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصفروا علم الأنبياء إلى علمهم .

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال - تعالى - . يعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخرة هم غافلون ، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ... لم يلتفتوا إليها وصفروها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للقوائد من علمهم ، فرحوا به ، (١) .

ويدوا لنا أن هذا الرأى الأخير الذى ذكره صاحب الكشف ، هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وقوله - سبحانه - : « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ، بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسولهم ، واستهزائهم بهم .
أى : ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الاليم بسبب استهزائهم برسولهم ، وإعراضهم عن دعوتهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما أحاط بهم العذاب فقال : « فلما رأوا بأسنا ، أى هابتوا عذابنا النازل بهم . »

« قالوا ، بفزع وخوف ، آمنا بالله وحده وكفرت بما كنا به مشركين ،
أى : وكفرتنا بما كنا به مشركين في الدنيا من عبادة لغير الله - تعالى -
وإعتماد على سواه . »

وقد بين - سبحانه - أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء في غير وقته فقال

« فلم يك ينفعهم إيمانهم ، شيئاً من النفع لأنه لإيمان جاء عند معاينة العذاب ، والإيمان الذي يدعى في هذا الوقت لقيمة له ، لأنه جاء في وقت الإضطراب لافي وقت الاختيار ولفظ « سنة الله التي قد خلت في عباده . . . » منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف .

أى : سن الله - تعالى - ذلك ، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية في الناس ، بحيث لا تتخلف في أى زمان أو مكان .

« وخسر هنالك الكافرون ، أى : في هذا الوقت الذي ينزل الله - تعالى - فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شيء ، بحيث لا تنفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التي كانوا يتوهمون شفاعتها .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « غافر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم - كتبه الراجى عفوره
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - مساء الثلاثاء

٩ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥/٩/٢٤

فهرس إجمالى لتفسیر «سورة غافر»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	
١	حم . . .	٣٣٥
٧	الذين يحملون العرش . . .	٣٤٠
١٠	إن الذين كفروا ينادون . . .	٣٤٥
١٣	هو الذي يرسلكم آياته . . .	٣٤٨
٢٣	ولقد أرسلنا موسى . . .	٣٥١
٢٨	وقال رجل مؤمن . . .	٣٦٢
٣٦	وقال فرعون يا هامان . . .	٣٦٨
٤٧	وإذ يتعاجون في النار . . .	٣٧٨
٥٦	إن الذين يجادلون في آيات الله . . .	٣٨٦
٦١	الله الذي جعل لكم الأرض . . .	٣٩٦
٦٩	ألم تر إلى الذين يجادلون . . .	٤٠٢
٧٩	الله الذي جعل لكم الأنعام . . .	٤٠٧

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ فَصَّلَتْ

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الرابع والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

• صدق الله العظيم •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة «فصلت»، هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة «غافر» .

وهي من السور المسكية الخالصة ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية في المصحف البصري والشامي ، وثلاث وخمسون في المصحف المسكي والمندني ، وأربع وخمسون في المصحف الكوفي . وسورة «فصلت» تسمى - أيضا - بسورة السجدة ، وحم السجدة ، وبسورة المصاييح ، وبسورة الألقوات (١) .

٢ - والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها في مطلعها تمدح القرآن الكريم ، وتذكر موقف المشركين منه ومن الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وتلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يكتبهم ، وتهديم بالعذاب الآليم .

قال - تعالى - : « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون . بهيمرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . » .

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن طريق بيان خلقه للأرض وما اشتملت عليه من جبال وأقوات ، وعن طريق

خلق السماء بطبقاتها المتعددة ، وعن طريق ترتيب السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ...

قال - تعالى - : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، ومجمعون له أُنْدَاداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْها قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ... » .

٤ - وبعد أن هدد الله - تعالى - مشركي مكة بالعذاب الذي أصاب من قبلهم قوم عاد وثمود ، وفصل لهم موقف هؤلاء الأقوام من رسالهم وكيف أنهم عندما كذبوا رسالهم واستحبوا العمى على الهدى ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون ...

بعد كل ذلك محدثت عن أحوالهم السيئة يوم يحشرون للحساب يوم القيامة ، وكيف أن حواسهم تشهد عليهم في هذا اليوم العصيب .

لنتدبر قوله - تعالى - : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ... » .

٥ - وكعادة القرآن الكريم في قرنه الترويب بالترهيب أو العكس ، وفي بيان عاقبة الاختيار والأشرار ، أتبعنا السورة الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم ، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم ، فقال - تعالى - : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تهمزوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ... » .

٦ - ثم سأقت سورة فصلت ، أنواعا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : **ومن آيات الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . . .**

ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت **إن الذى أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شئ قدير .**

٧ - ثم أخذت السورة فى تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفى إقامة الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله .

قال - تعالى - : **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، ولو جعلناه قرآنا عجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أعجمى وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد . . .**

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان أن مرد علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وببيان طبيعة الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، وببيان أن حكمته - سبحانه - إقتضت أن يطلع الناس فى كل وقت على آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : **دسرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شئ محيط .**

٩ - وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة فصلت ، ومنه نرى : أنها إهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وبأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه .

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى
وبيان أحوالهم يوم القيامة ... وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
وأحسنوا القول والدعوة إلى الله ... بأحسن البشارات وأفضلها ...

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

القاهرة - مدينة نصر

صباح الأربعاء : ١٠/١/١٤٠٦ هـ

٢٥/٩/١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « حَمَّ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)
 كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا
 فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا
 تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، فاعْمَلْ إِنَّا عامِلُونَ (٥) قُلْ
 إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ
 وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
 غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) » .

سورة « فصلت » من السور التي بدئت ببعض حروف التهجى .

والرأى الراجح في هذه الحروف أنها جى . بها للإيقاظ والتنبيه على أن
 هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التي
 يتخاطب بها المشركون ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأنوا بسورة
 من مثله .

وقوله : « تنزيل من الرحمن الرحيم » ، بيان لمصدر هذا القرآن ، وقوله
 « تنزيل » ، خبر لمبتدأ محذوف .

أى : هذا القرآن ليس أساطير الأولين - كما زعم الجاحدون الجاهلون -
 وإنما هو منزل من عند الله - تعالى - صاحب الرحمة العظيمة الدائمة .

إذ لفظ « الرحمن » ، بمعنى عظيم الرحمة ، لأن فعلا صيغة مبالغة في كثرة
 الشيء . وعظمته ، أما صيغة فاعيل فتستعمل في الصفات الدائمة ككريم ،

فكانه - تعالى - يقول : هذا الكتاب منزل من الله - تعالى - العظيم الرحمة الدائمة .

قال بعض العلماء : وإنما خص هذان الوصفان بالذكر ، لأن الخلق في هذا العالم كالأرض المحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية . فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم أنزال القرآن الناشئ عن رحمته ولطفه بخلقه ، (١) .

ثم أتى - سبحانه - على هذا القرآن الذي أنزله بمقتضى رحمته وحكمته فقال : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا .

ومعنى : « فصلت آياته » : ميزت في ألفاظها بفواصل ومقاطع ، وميزت في معانيها لاشتمالها على أنواع متعددة من المعاني الحكيمة .

وقوله « قرآنا » منصرب على المدح ، أو على الحال من كتاب ، ودعرباء صفة للقرآن .

وقوله « لقوم يعلمون » متعلق بفصلت .

أى : هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهو كتاب فصلت آياته ، ووضعت وميزت من حيث ألفاظها تفصيلا بليغا . إذ اشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه .

وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما ، إذ بعضها جاء لبيان ذاته وصفاته وأفعاله - تعالى - ، وبعضها اشتمل على ألوان من نعمه التي لا تحصى وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ ، وبعضها جاء لتبشير المؤمنين بحسن الثواب ، ولانذار الكافرين بسوء العقاب .

وخص - سبحانه - الذين يعلمون بالذكر ، لأنهم هم الذين يستفدون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها .

قال صاحب الكشف : قوله : « لقوم يعلمون ، أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى ، لا يلتبس عليهم شئ منه .

فإن قلت : هم يتعاق قوله : « لقوم يعلمون ، ؟

قلت : يجوز أن يتعاق بتزويل أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم . والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى : قرآننا عربيا كما ننا قوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم .

والمراد بالأكثر هنا : الكافرون الذين لم ينتفعوا بإحداثيات القرآن الكريم . أى : هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور ، فأعرض أكثرهم عن هداياناه لاستحواذ الشيطان عليهم ، فهم لا يسمعون سماع تدبر وإتماظ ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية ، وعقول خالية من إدراك معانيه ، ومن الإستجابة له .

ونفى - سبحانه - سماعهم له ، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن أصحابه ، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به . . صار سماعهم بمنزلة عدمه .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على توغلمهم فى الكفر والعناد فقال : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل لنا عاملون ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء للشيء . و « الوقر ، الصمم الذى يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له .

والحجاب : من الحجب بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قبل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول .

أى : وقال الكافرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - على سبيل تفتيشه من إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغشية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا ، وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك وإن من بيننا ومن بينك حاجر أغليظا يحجب التواصل والاتلاق بيننا وبينك ، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيما يتعلق بدينك ، ونحن من جانبنا سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا .

وهذه الأقوال التى حكها القرآن عنهم ، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد ، فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق وأسماعهم قد صمتت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الإقتراب من شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان .

وصدق الله إذ يقول : فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ثم اثن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يرد به عليهم فقال : قل إنما أنا بشر مثلكم بوحى إلى إنما إلهكم إله واحد .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم فى الصفات البشرية أوجدنى الله - تعالى - بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم - عليه السلام - ، إلا أن الله - تعالى - قد إختص بوحى ورسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبأفكم أن إلهكم وخالقكم ... هو إله واحد لا شريك له ، فعليكم أن تخلصوا إلى العبادة والطاعة . وقوله : فاستقيموا إليه واستغفروه ، أى : فإلزموا الإستقامة فى طريقكم إليه - تعالى - بالإيمان به ، وطاعته والإخلاص فى عبادته .

وقوله - تعالى - : « وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، تهديد لهم بسوء المصير إذ استمروا على عنادهم وشركهم . والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لافعل له من لفظه والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزي والهلاك .

أى : فهلاك وخزي وعقاب شديد لهؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى : لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها . . . وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

قال ابن كثير : والمراد بالزكاة هنا : طهارة النفس من الأخلاق المردولة . . .

وقال قتادة : يمتنون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير . . .

وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية . اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأمورا به في ابتداء البعثة ، كقوله - تعالى - : « وآتوا حقه يوم حصاده ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها في المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه - تعالى - صرح في هذه الآية بالكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم - سبحانه - بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أ قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، وإجتنب المعاصي .

ورجح بعضهم - أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان - لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة .

وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الاسلام .

أعني إمتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومادات عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصي ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله - تعالى - : **« ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين . . . »** (١) .

وخص - سبحانه - من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرّناً بالكفر بالآخرة ، لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمحتاجين ، فذلك أقوى دليل على إستقامته ، وصدق نيته .

وقوله - تعالى - : **« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ، بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين .**

أى : **« إن الذين آمنوا إيماناً حقاً وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير ممنون ، أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم ، بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا ، فضلاً من الله - تعالى - وكرماً .**

• • •

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله - تعالى - الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :

د قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رُبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وجعلَ فيها رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ
فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنَهُ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْنِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ (١٢) .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : د أعلم أنه - تعالى - لما أمر نبيه - صلى الله
عليه وسلم - أن يقول للناس : قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى أردفه
بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشراكة بينه - تعالى - وبين هذه الأصنام في
الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات
والأرض في مدة قليلة ... والاستفهام في قوله : أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ ... ، بمعنى
الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله ... وجعل الأنداد له ، (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل الإنكار
لأفئدتهم : أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بالله - تعالى - الذي خلق الأرض في يومين .
قال الألوسى : ولأن واللام في قوله : أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ ، لتأكيد الإنكار ...
وعلق - سبحانه - كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه - تعالى - ، واستعظام
كفرهم به .

واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه
ههنا الوقت مطلقاً ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض

نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأقل أنسب بالمقام ... ، (١) .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - : «لأن الله - تعالى - قادر على أن يخلق هذا المكون كله فى لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ليعلم خلقه التثبيت والتأني فى الأمور ، .

وقوله : «وتجعلون له أنداداً ، معطوف على قوله «تكفرون» ، وداخل معه فى حكم الإنكار .

والأنداد : جمع ند . وهو مثل الشيء يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شارباً .

أى : وتجعلون له أمثالا ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها - زورا وكذبا - آلهة ، وجمع - سبحانه - الأنداد باعتبار واقعهم ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة - ومنهم من عبد الكواكب .

واسم الإشارة فى قوله «ذلك رب العالمين» ، يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة .

أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتهيئتها دون سواه .

وقوله : «وجعل فيها رواسى من فوقها .. ، معطوف على «خلق الأرض فى يومين» .

والرواسى : جمع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والاستقرار فى المكان ، يقال : رسا الشيء إذا ثبت واستقر . وهو صفة لموصوف محذوف .

أى : وجعل فيها جبالا رواسى من فوقها ، لئلى تستقر وتثبت ، ولا تتمد أو تضطرب بكم .

وقال - تعالى - : د من فوقها ، لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ، ومشاهدة الإنسان لذلك بعينه ، يزيده إقتناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة ، وحكمته البالغة .

د وبارك فيها ، أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار الميثومة فوقها ، والمياه التى تخرج من جوفها . والكنوز التى تحصل من باطنها .

د وقدر فيها أقواتها ، والأقوات : جمع قوت . والمراد بها أرزاق أهل الأرض وما يصلحهم .

أى : وجعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معاشهم ومنافعهم ، على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر فى كل قطر من أقطارها أقوانا تناسب أهله ، وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ، فيعمر السكون ، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الجملة - : د والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - أخبر أنه قدير فى الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش . ولم يخص - جل ثناؤه - بقوله د وقدر فيها أقواتها ، أنه قدر فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر من تقديره فيها جميع الأقوات ... (١) .

وقوله - تعالى - د فى أربعة أيام ، متعلق بمحذوف يدل عليه ما قبله .
أى : خلق الأرض ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها . وقدر

(١) تفسير ابن جرير ٢٤٤ ص ٦٢ .

فيها اقواتها في تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التي خلق فيها الأرض وما عليها أربعة أيام .

وقوله - سبحانه - : « سواء للسائلين » تأكيد لما دلت عليه الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث في أربعة أيام .

قال الألوسي : « وقيدت الأيام الأربعة بقوله : « سواء » فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة الأيام . أي : - في أربعة أيام - استوت سواء ، أي : استواء .

وقوله - تعالى - : « للسائلين » متعلق بمحذوف وقع خبر المبتدأ محذوف . أي : هذا الحصر في أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض ، وما فيها ... » (١) .

وقال الجمل في حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها ، ضعف مدة خلق السموات مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب ؟

قلت : للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من العقلاء ، ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل في المنة على ساكنيها ، وللإعتناء بشأنهم وشأنها - أيضا - زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصي والمجاهدات والمعالجات ... » (٢) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته في خلق السماء ، فقال : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » .

ومعنى استوائه - سبحانه - إلى السماء : ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه - سبحانه - منزّه عن ذلك .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ١٠٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٢ .

والدخان : ما ارتفع من لُهب النار . والمراد به هنا : ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : دثم استوى إلى السماء ، : د تعلق لإرادته - تعالى - بخلقها .

قال الألوسي : قوله : دثم استوى إلى السماء ، أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير فى غيرها . من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره ...

وقوله : د وهى دخان ، أى أمر ظلمانى ولعله أريد بهما مادتها التى منها تركبت ... (١) .

وقوله - تعالى - : فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ... بيان لما وجهه - سبحانه - إليهما من أوامر .

والمراد بإتيانهما : ائتيادهما التام لأمره - تعالى - .

أى : فقال - سبحانه - للسماء والأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت يا سماء : أبرزى ما خلقت فيك من شمس وقر ونجوم ... وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز .

قال الفخر الرازى : د والمقصود من هذا القول : إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شئها ذلك أو أبيتها ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، وتفعله طوعا أو كرها ، وانتصاهما على الحال ، بمعنى طائعين أو مكرهين ... (٢) .

وقوله : د قالتا أتيننا طائعين ، بيان لامتثالهما التام لأمره - تعالى - .
أى : قالتا : فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين مستجيبين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ١٠٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٠٣ .

قال القرطبي : « وقوله : « قالنا أنينا طائعين » فيه وجهان : أنه تمثيل لظهور الطاعة منهما ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ، ومنه قول الرازي :

امتثالاً الخوض وقال قطبي مهلاً رويداً قد ملأت بطني
يعنى ، ظهر ذلك فيه .

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله - تعالى - فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد - سبحانه - (١) .

وجمعهما - سبحانه - جمع من يعقل ، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء .

ثم فصل - سبحانه - بديع صنعه في خلق السموات فقال : فقضاهن سبع سموات في يومين . . . ، أى : فخرج من خلقهن وتسويتهن على أبداع صورة وأحكم صنع ، في مقدار يومين .

والضمير في قوله : فقضاهن ، إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات .

وقوله : « وأوحى في كل سماء أمرها » أى : وأوحى في كل منها ما أراه وما أمر به ، وخلق فيها ما اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

وقوله : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » أى : وزينا السماء الدنيا أى القريبة منكم - بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظاً عظيماً من الاختلال والاضطراب والسقوط ، ذلك ، الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق ما فيها .

« تقدير العزيز العليم » أى : تقدير الله - القاهر لكل شئ . والعليم بما ظهر وبما بطن في هذا التكون .

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم في أربعة أيام . وأن خلق السموات كان في يومين فيكون مجموع الأيام التي خلق الله - تعالى - فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام .

وقد جاء ذلك في آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام . . . » (١) وقوله - سبحانه - : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . . . » (٢).

كما أخذ العلماء منها - أيضا - ، أن خلق الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله - تعالى - بعد حديثه عن خلق الأرض : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . . »

وبدليل قوله - تعالى - في آية أخرى : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات . . . » (٣).

وعلى هذا رأى سائر جمهور العلماء ، وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الأرض ، لأن الله - تعالى - يقول في سورة النازعات : « أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحائها . - أي : بسطها .

ردوا عليهم بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التي معنا ، وبين آيات سورة النازعات فقال : إنه - تعالى - خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الراسي والأنهار وغيرهما .

(١) سورة الأعراف آية ٥٤

(٢) سورة ق آية ٣٨ . .

(٣) سورة البقرة آية ٢٩ .

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد خلق السماء وردوا عليهم - أيضا - بأن لفظ « بعد » فى قوله - تعالى - « والأرض بعد ذلك دحاها » بمعنى مع ، أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدا لسكنى أهلها فيها .

وردوا عليهم - أيضا - بأنه - تعالى - لما خلق الأرض غير مدحوة ، وهى أهل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله فيها .

قال بعض العلماء : « والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع » - وإن لم يكن موجودا بالفعل - قوله - تعالى - : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »

فقوله : « خلقناكم ثم صورناكم ، أى : بخلقنا وتصويرنا لآبائكم آدم الذى هو أصلكم ، (١) .

كما أخذ منها العلماء أن وجود هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة فى هذه الأرض وما أقلت ، وفى هذه السموات وما أظلت . . . من أكبر الأدلة التى تحمل العقلاء على إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كما عاقبة الظالمين الذين سبقوهم ، فقال - تعالى - :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) »

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ،
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَمْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ
 عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَمُمْ
 لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ،
 فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ
 آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) .

ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات والتي قبلها روايات تتعلق بما
 بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين بعض المشركين منها ما ذكره محمد
 ابن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما لقريش - ورسول
 الله صلى الله عليه وسلم - جالس في المسجد وحده - : يا معشر قريش ألا أقوم
 إلى محمد فأكله ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكله . فقام إليه عتبة فقال : يا محمد ،
 يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة - أي من الشرف - في العشيرة
 وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفقت به أحلامهم ،
 وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مصي من آبائهم ، فاسمع مني أعرض
 عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .

ثم قال : إن كنت - يا ابن أخي - تريد ما لا أعطيناك من المال حتى تكون
 أكثرنا مالا . وإن كنت تريد ما لا جعلناك ملكا علينا . . . وإن كان الذي
 يأتيك رئيسا تراه - أي ترى بعض الجن - طلبنا لك العطب حتى تبرا .

فلما فرغ عتبة قال - صلى الله عليه وسلم - : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال :
 نعم . قال : فاسمع مني قال : أفعل . فتلا عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من
 أول سورة فصلت . .

- وفي رواية أنه لما بلغ قوله - تعالى - : «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود...» ، قال له عتبة : حسبك ما عندك غير هذا .
ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذي ذهب به . فلما جلس إليهم ، قالوا له : وراء يا أبا الوليد ؟

فقال : لقد سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - قولاً ما سمعت مثله قط والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالسكاهنة . يامعشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي . خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاهزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ .

فقالوا : لقد سحرك محمد - صلى الله عليه وسلم - . فقال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ، (١) .

فقوله - تعالى - : «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، تهديد لهُؤلاء المشركين ، بعد أن وضع الحق لهم في أكمل صورة .. والصاعقة - كما يقول ابن جرير - : «كل أمر هائل رآه الراي أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هولاء وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقاً ...» (٢) .

والمراد بها هنا : العذاب الشديد الذي أنزله الله - تعالى - على قوم عاد وثمود فصمعتهم وأهلكهم .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهُؤلاء المشركين : لقد أقت لكم الأدلة الناصحة على وحدانية الله - تعالى - وعلى عظيم قدرته ، وعلى أني رسول من عنده ، وصادق فيما أبلغه عنه .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٢

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠

« فإن أعرضوا ، عن دعوتك ، ولجوا في طغيانهم ، وإستمروا في كفرهم وعنادهم .

« فقل ، لهم على سبيل التحذير : لقد « أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، .

وخص - سبحانه - عاد وثمود بالذكر . لأن مشركي قريش يعرفون ماجرى لهؤلاء الظالمين . إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف - أي بالمكان المرتفع الكثير الرمال - في جنوب الجزيرة العربية . ورسولهم هو هود - عليه السلام - .

وأما ثمود فهم قوم صالح - عليه السلام - ، ومساكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت آثارهم باقية وأهل مكة كانوا يمررون عليها في طريقهم إلى بلاد الشام للتجارة .

والضمير في قوله - تعالى - : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، ألا تعبدوا إلا الله . . . » يعود إلى قوم عاد وثمود .

والمراد بالرسل : هود وصالح - عليهما السلام - من باب إطلاق الجمع على الإثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معهما في الجمل . إلى هؤلاء الأقوام لدهوتهم إلى عبادة الله وحده .

وقوله : « إذ جاءتهم الرسل . . . » حال من قوله « صاعقة عاد وثمود ، وقوله « من بين أيديهم ومن خلفهم » متعلق بجاءتهم .

والمراد بالجملة السكرية : أن الرسل بذلوا كل جهدهم في إرشاد قوم عاد وثمود إلى الحق . ولم يتركوا وسيلة إلا إتبعوها معهم ، وبينوا لهم بأساليب متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين .

وقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله ، بيان لما نصح به الرسل أقوامهم . وأن يصح أن تكون مصدرية أي : بأن لا تعبدوا إلا الله . ويصح أن تكون مخففة

من الثقبيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف . أو تفسيره لأن مجيئ الرسل يتضمن قولاً .
 أى جاء الرسل إلى قوم عاد ونمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص
 العبادة لله ، ولم يتركوا وسيلة إلا إنهم صوّفوها عنهم ، وقال لهم : إجعلوا
 عبادتكم لله - تعالى وحده .

قال صاحب المكشاف ما ملخصه : دقوله : إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم
ومن خلفهم . . .

أى : أنوم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض . كما حكى الله - تعالى - عن الشيطان أنه قال : « ثم لا تأتيني من بين أيديهم ومن خلفهم . . . » يعنى لا تأتيني من كل جهة ، ولا أعلن فيهم كل حيلة .

وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الديني والآخروي.

وقيل معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هـ ودا وصالحا قد أمروهم بالإيمان بهما وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكان الرسل جميعا قد جاءوهم ،^(١)

وقوله - تعالى- : « قالوا لو شاء ربنا لآتينا ملائكة فإنا بآرسلهم به كافرين ، حكاية للرد السيء الذي رد به قوم عاد وثمود على رسلهم .

ومفعول المشيئة محذوف. أى : قال هؤلاء الكافرون أرسلهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم : أنتم لستم رسلا ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل إلينا رسلا لارسل ملائكة ، وما دام الأمر كذلك فإننا بما أرسلتم به - أيها الرسل - كافرون ، وإلى ما تدعوننا إليه مكذبون .

والسبب الذي حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون

إلا من البشر كما قال - تعالى - : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »

ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما نزل به من عذاب مهين فقال : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة »

أي : هذا هو قولهم على سبيل الإجمال لرسلهم ، وإليك جانباً من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم الباطلة .

إنهم قد استكبروا في الأرض بغير الحق . واغتروا بما بين أيديهم من نعم ، وقالوا على سبيل التباهي والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة .

وقيد استكبارهم في الأرض بأنه بغير الحق . لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم الله - تعالى - في آيات أخرى متجبرين متعاليين على غيرهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « أتنبئون بكل ربع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين » .

والاستفهام في قوله - تعالى - الذي حكاه عنهم « من أشد منا قوة ، للإنكار والنفي

أي : لا أحد أقوى منا ، فنحن في استطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو العمور الكاذب الذي يشعر به الطغاة الجاهلون في كل زمان ومكان .

وقد رد الله - تعالى - عليهم وعلى أمثالهم رداً منطقياً حكماً يخرس السنتهم فقال : « أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمجدون » .

أي : أعموا وصموا عن الحق ، ولم يعلموا أن الله - تعالى - الذي أوجدكم من العدم ، هو - سبحانه - أشد منهم قوة وبأساً .

لأنهم لغرورهم وجهالأنهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدايتنا يحدون ، ويعاندون ويفكرون الحق الذي جاءهم به رسالهم .
ثم حكى - سبحانه - ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على كفرهم ،
وبسبب غرورهم وبطهم فقال : فأرسلنا عليهم رجحاصرصرا في أيام نحسات ،
لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا . . .

ولفظ د صر صرا ، من الصر - بفتح الصاد - وهو شدة الحر ، أو من الصر -
بكسر الصاد - وهو شدة البرد الذي يقبض البدن ، أو من الصرة التي هي
الصبيحة المزعجة ، ومنه قوله - تعالى - : فأقبلت امرأته في صرة . . . ، أى :
في صبيحة .

ولا مانع من أن تكون هذه الريح التي أرسلها الله - تعالى - عليهم ، قد
اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل .

وقوله : : نحسات ، جمع نحسة - بفتح النون وكسر الحاء - صفة مشبهة من
نحس - كفرح وكرم - ضد سعد ،

أى : فأرسلنا على قوم عاد رجحادرشديدة الهبوب والصوت ، وشديدة
البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشثومات نكدات عليهم بسبب
إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب الخزي لهم في الحياة الدنيا .
وللعذاب الآخرة أخزى ، أى : أشد خزيا وإهانة لهم من عذاب الدنيا .
وهم لا ينصرون ، أى : وهم لا يجحدون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب بحال
من الأحوال .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من عذاب فقال :
: وأما ثمود فهديناهم . . .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبيننا لهم من طريقه

سبيل الرشاد وسبيل النجى . فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

« واستجبوا العمى على الهدى ، أى : فاختراروا الكفر على الإيمان ، وآثروا النجى على الرشاد .

فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية الإيمان والطاعة .
« فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، أى : فكانت نتيجة إيثارهم الكفر على الإيمان ، وتصميمهم على ذلك . . أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المبين الذى أبادهم ، بسبب ما كتبوه من ذنوب وقياماتهم .
وقد حكى - سبحانه - ما أنزله بعد وعود من عذاب فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « كذبت عمود وعاد بالقارعة . فأما عمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . »

وقد ذكر بعضهم أن الأيام المنحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد ، كانت فى أواخر شهر شوال ، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها - أيضا - كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشام من هذا اليوم .
والحق أن ما ذكروه فى هذا الشأن لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التى ذكروها فى أن يوم الأربعاء يوم نحس :

« فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم ، (١) .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٢٤ للشيخ الشنيطى .

ثم بين - سبحانه - فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال : « وننجينا الذين آمنوا ... ، أي ونجينا الذين آمنوا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة .
« وكانوا يتقون ، أي : يتقون الله - تعالى - ؛ ويصونون أنفسهم عن كل مالا يرضيه . »

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم يعلمون أن ما جاءهم به رسلهم حق لا ريب فيه ، فقال - تعالى - :

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَاجَأَ وَهَأَ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَئِنْ لَمْ نَشْهَدْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا مِنْ الْمُتَعْتِبِينَ (٢٤) . »

والظرف في قوله : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

وقوله : « يوزعون » من الوزع وأصله الكف ، تقول : وزع فلان فلانا عن الشيء ، أي : كفه ومنعه عنه . ومنه قول الشاعر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله والمراد هنا : أن يكف أولهم ويمنع عن التحرك حتى يرد آخرهم فيلحق بأولهم ، بحيث يجتمعون جميعا للحساب ثم يدعون إلى نار جهنم .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم يحشر أعداء الله جميعا إلى النار ، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة : د فهم يوزعون ، أي : فهم يحسبون في هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم ، ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله - تعالى - بقضائه العادل فيهم .

والتعبير بقوله : د أعداء الله ، يدل على ذمهم ، وعلى أن ما أبهم من عذاب مهين ، إنما هو بسبب عداوتهم لله - تعالى - ولرسله - صلوات الله عليهم - ، حيث أعرضوا عن الحق الذي جاءهم به الرسل من عند ربهم .

والتعبير بقوله د يوزعون ، يشعر بأنهم يحسبون ويمنعون عن الحركة بخلقة وزجر .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يعرضون على النار فقال : د حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، .

والمراد بشهادة هذه الأعضاء عليهم : أنها تنطق - بإذن الله - تعالى - وتخبر بما اجتروه من سيئات ، وبما فعلوه من قبائح .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : د فإن قلت د ما ، في قوله : د حتى إذا ما جاءوها ، ما هي ؟

قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يتلو منها . . .

فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟

قلت : الله - عز وجل - ينطقها . . . بأن يخلق فيها كلاما .

وشهادة الجلود بالملامسة للحرام . وما أشبه ذلك مما يفهم من إلهام من المحرمات . وقيل : المراد بالجلود الجوارح - وقيل : هو كناية عن

الفروج . . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله هؤلاء الكافرون لجوارحهم على سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا . . . »

أى : وقال هؤلاء الكافرون لجلودهم التى تشمل جميع جوارحهم بتمجيب وذمهم : لماذا شهدتم علينا مع أننا ما دافعنا إلا عنكم . لىكى نتخذكم من النار ؟

وهنا ترد عليهم جوارحهم بقولها - كما حكى سبحانه عنها - « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ . . . »

أى : قالوا فى الرد عليهم : أنطقنا الله - تعالى - الذى أنطق كل شئ - بقدرته التى لا يعجزها شئ . « وهو » - سبحانه - الذى « خلقكم أول مرة » ولم تسكنوا شيئاً مذكوراً .

« وإليه » وحده « ترجعون » ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويحكم فيكم بحكمه العادل .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عدداً من الأحاديث ، منها ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم - ذات يوم وتبسم فقال : « ألا تسألون عن أى شئ ضحكتم ؟ قالوا : يا رسول الله ، من أى شئ ضحكتم ؟ قال : عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ؟ »

يقول : أى ربى ، أليس قد وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى . فيقول : فإننى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى . فيقول الله - تعالى - أو ليس كفى بى شهيداً ، وبالملائكة الكرام الكائنين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مراراً قال : فيختم علي فيه ، وتسلّم أركانها بما كان يعمل . فيقول : بعداً لىكن وسحقاً ، فعنكن كنت أجادل ، (١) .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم ، بما كانوا يكسبون » (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقال ل هؤلاء الكافرين يوم القيامة من حمته - تعالى - .
أو من جهة جوارحهم التي شهدت عليهم فقال - تعالى - : وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون .

وقوله : « تستترون » ، من الاستتار بمعنى الاستخفاء ، وما ، نافية .
وقوله : « أن يشهد عليكم .. » ، في موضع نصب على نزع الخافض أي : من أن يشهد عليكم .. أو مفعول لأجله .

أي : مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم .

والمعنى : أن جوارحهم تقول لهم يوم القيامة على سبيل التبكيت : أنتم - أيها الكافرون - لم تكونوا في الدنيا تخفون أعمالكم السيئة ، خوفا من أن تشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها لاعتقادكم أن الله - تعالى - لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم ما تظفرونه منها .

وما حملكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات الله - تعالى - . وكفركم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، واستبعادكم أننا سنشهد عليكم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ... » ، يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم . ويجوز أن يكون من قوله الله - تعالى - لهم ، أو الملائكة .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ،

قرشيان وثقفي ، - أى شخص من قبيلة ثقيف - أو ثقفيان وقرشى ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم . فقال أحدهم : أترون الله - تعالى - بسمع ما نقول : فقال الآخر ، بسمع إن جهرنا ولا بسمع إن أخفينا .

فأنزل الله - عز وجل - : وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم .. الآية .

فآية الكريمة تنهى على المشركين جهالاتهم الفاضحة ، حيث ظنوا أن الله - تعالى - لا يعلم الكثير من أعمالهم ، وتنبه المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يعلموا أن الله - تعالى - معهم ، ولا يخفى عليه شيء من أقوالهم أو أفعالهم ، وأنه - سبحانه - يعلم السر . وأخفى ورحم الله من قال :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت . ولا كن قل : على وقيب ولا تحسب الله بعقل ساعة ولا أنت ما يخفى عليك ، يغيب

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين فقال : وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم

وذلكم ، اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق ، وهو مبتدأ ، وقوله : أرداكم ، خبره .

أى : وذلكم الظن ظننتموه بربكم ، وهو أنه - سبحانه - لا يعلم كثيرا مما تعملونه سرا ، هذا الظن أرداكم ، أى : أهلكم ، يقال ردى فلان - كصدى - إذا هلك ، فأصبحتم ، أيها الكافرون ، من الخاسرين ، لكل شيء فى دنياكم .

فإن تصبروا ، عن العذاب ، فالنار مشوى لهم ، أى : فالنار هى المكان المعد نراشهم فيه ، ولبقائهم به بقاء أبديا . يقال : نوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

وإن يستعجبوا فاهم من المعتبين ، أى : وإن يطلبوا الرضا عنهم ، فاهم

من المرضى عنهم، وإنعام من المنضوب عليهم، أو وإن يطلبوا منا الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم إلى الدنيا، فإمام من المجابين إلى ذلك .

قال القرطبي : وأصل الكلمة من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهي الموجدة ، يقال : عتب عليه بعتب - كضرب يضرب - إذا وجد عليه . فإذا فاضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب . والاسم العتبي ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . قال الشاعر : فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته وإن كنت ذا عتبي فثلك يمتب (١) وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت الأحوال السبعة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة ، والمجادلات التي تدور بينهم وبين جوارحهم في هذا اليوم العسير عليهم .

ثم بين - سبحانه - جانباً من الأسباب التي أوقعتهم في هذا المصير الآليم ، ومن الأقوال السيئة التي كانوا يتواصون بها فيما بينهم ، وعن عاقبة هذا التواصي الأنيم فقال - تعالى - :

« وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَءَ الَّذِي كَانُوا يَمْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْمَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) » .

قال الجمل ماملخصه : د قوله : د وقبضنا ... ، أى : سببنا وهبنا وبعثنا لهم
قرنا . يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القبيض على البيض . والقبيض قشر
البيض ...

والقبيض - أيضا - التيسير والتهيئة ، تقول قبضت لفلان الشيء ، أى :
هيأته ويسرته له .. ، (١) .

والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذى لا يكاد
يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيناتها .
والمراد بما خلفهم : ما يتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب .

والمعنى : إن حكمتنا قد اقتضت أن نهيب ونسبب هؤلاء المشركين قرناء
سوء ، هؤلاء القرناء يزبنون لهم القبيح من أعمال الدنيا التى يعيشون فيها ، كما
يزبنون لهم إنكار ما يتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث
والحساب والجزاء .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : د ومن يعش عن ذكر الرحمن
نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم
معتدون ، (٢) .

وقوله - تعالى - : د وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والإنس ... ، بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء السوء ، وانقيادهم لهم
انقياد التابع للمتبع .

أى : وثبت عليهم القول الذى قاله - سبحانه - لإبليس ، وتحقق مقتضاه
وهو قوله - تعالى - : د لا ملأ جهم منكم ومن تبعك منهم أجمعين ، (٣) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين : ص ٢٩

(٢) سورة الزحرف . الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة « ص » آية ٨٥

وقوله : « في أمم » ، في محل نصب على الحال من الضمير في « عليهم » ، أى : وثبت عليهم العذاب . حالة كونهم داخلين في جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من تبليهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الإنس . وجملة « إنهم كانوا خاسرين » ، تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لكفار قريش وغيرهم من الأمم السابقة التي هلكت على الكفر .

ثم حكى - سبحانه - ما تواصى به المشركون فيما بينهم فقال : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلمكم تغلبون » ،

وقوله : « وألغوا فيه » ، من اللغو ، وهو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه يقال : لغا فلان في كلامه يلغو ، إذا نطق بكلام ساقط لا خير فيه .

ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة لأتباعهم فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل - لأتباعه - : إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول .

أى : وقال زعماء الكفر لأتباعهم : لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يقرأه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ولا تنصتوا لإياه ، بل ابتعدوا عن قارئه « وألغوا فيه » ، أى : وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو . من القول ، كالتشويش على القارئ ، والتخليط عليه في قراءته بالتصفيق ورفع الصوت بالخرافات والهذيان ...

« لعلمكم تغلبون » ، أى : لعلمكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين ، وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن .

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن في القلوب ، هذا التأثير الذى حمل كثير منهم عند سماعه على الدخول في الإسلام ونبت الكفر والكافرين .

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته ، وعن الإنهاك بسورة من مثله ،

لجأوا إلى تلك الأساليب السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم .
وقد رد - سبحانه - على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد فقال : **فَلَنَنْذِقَنَّ**
الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : فوالله لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئيه
بالصياح والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذى يهينهم ، ويصدون به
إحساساً أليماً . ولنجزينهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التى
عملوها فى الدنيا .

قال الآلوسى : **د قوله - تعالى - : « وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ »**
أى : جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ ، فأفعل للزيادة المطلقة
وقيل : إنه - سبحانه - لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة المهورف ، وصلة
الأرحام . ولم كرام الضيف . . . لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب
كفرهم . . . (١) .

وقال الجمل فى حاشيته : **د وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه**
لكلام الله خاضعاً خاشعاً متفكراً متدبراً . وتهديد ووعد شديد لمن يصدر
عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة
القرآن المجيد ، وتأمل فى هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل
قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم (٢) .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : **« ذَلِكَ جزاء أعداء الله . . . يعود إلى**
ما تقدم من العذاب الشديد للمعد لهؤلاء الكافرين ، وهو مبتدأ ، وجملة جزاء
أعداء الله ، خبره .

وقوله **« النار »** بدل أو عطف بيان .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١١٩ .

(٢) حاشية الجمل ج ٤ ص ٤١ .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى نذيقه للكافرين جزاء عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل فى النار التى أعدها - سبحانه - لهم .

وجملة : د لهم فيها دار الخلد ، مؤكدة لما قبلها . أى : لهم فى تلك النار الإقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهى بمثابة الدار المهيأة لسكنهم الدائم .

وقوله - سبحانه - : د جزاء بما كانوا بآياتنا يجرءون ، بيان لحكم الله العادل فيهم .

أى : نجازهم جزاء أليما بسبب جبرودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلنا .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم وهم يتقلبون فى النار ، وحكى بعض أقوالهم التى يقولونها وهم فى ذلك العذاب الأليم فقال : ، وقال الذين كفروا ، على سبيل الحسرة والغضب على من أضلهم .

• ربنا أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس . . . أى : قالوا ياربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أمراء الجن الإنس • نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ، أى : أرنا ليامم لنتنقم منهم ، بأن ندوسهما بأقدامنا لإحتقارنا لهم ، وغضبا عليهم ، ليكونا بذلك فى أسفل مكان من النار ، وفى أحقره وأكثره سعيراً .

وهكذا تتحول الصداقة التى كانت بين الزعماء والأتباع فى الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى له أسوأ العذاب .

• • •

وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ،
 أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ
 أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ
 قَوْلًا يَمُنُّ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)
 وَلَا نَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
 وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ،
 وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ الشَّيْطَانُ نَزْغٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) » .

والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله - تعالى - وحده ،
 لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته .

« ثم استقاموا ، أى : ثم ثبتوا على هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا
 القول من طاعة الله - تعالى - في المنشط والمكروه ، وفي السر واليسر ، ومن
 اقتداء برسوله - صلى الله عليه وسلم - في كل أحواله .

قال صاحب المكشاف : « و ، ثم ، اقراخى الاستقامة عن الاقرار في المرتبة
 وفضلها عليه . لأن الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله - تعالى : « إِنَّمَا
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، والمعنى : ثم ثبتوا على الاقرار
 ومقتضياته .. » (١)

ولقد بين لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الاستقامة على أمر الله جماع
 الخيرات ، ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت :

يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل
 آمنت بالله ثم استقم . . . ، (١) .

وقوله - تعالى - : : وتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا . . .
 بيان للأثار الطيبة التي تقرتب على هذا القول المؤيد بالثببات على طاعة الله
 - تعالى - .

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون في حياتهم من طريق
 لإلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم
 عند موتهم وعند بعثهم .

قال الألوسي : قوله - تعالى - : : وتنزل عليهم الملائكة ، قال مجاهد :
 عند موتهم . وعن زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ،
 وقيل : معنى : تنزل عليهم ، : يدونهم فيما يمن ويطأ لهم من الأمور الدينية
 والدينية ما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام
 كما أن الكفرة يغريهم ما قبض لهم من قرآن السوء بتزيين القبايح . . . ، (٢) .

والخوف : غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل .
 والحزن : غم يلحقها لفوات نفع في الماضي .

أي : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على طاعته في
 جميع الأحوال ، تنزل عليهم من ربه الملائكة ، لتقول لهم في ساعة احتضارهم
 وعند مفارقتهم الدنيا ، وفي كل حال من أحوالهم : لا تخافوا - أي المؤمنون
 الصادقون - عما أنتم قادمون عليهم في المستقبل ، ولا تحزنوا على مفارقتهم
 من أموال أو أولاد .

(١) تفسير ابن كثير - ٧ ص ١٦٥

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ١٢١

« وأبشروا ، عما قريب ، بالجنة التى كنتم توعدون بها فى الدنيا .

ثم يقولون لهم - أيضا - على سبيل الزيادة فى المسرة : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

أى : نحن نصرأؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة فى الحياة الدنيا التى توشكون على مفارقتها ، وفى الآخرة التى هى الدار الباقية ، سنتملقاكم فيها بالتكريم والترحاب .

« ولكم فيها ، أى : فى الدار الآخرة ، ما تشتهى أنفسكم ، من أنواع الطيبات التى أعدها لكم خالقكم فى جناته .

« ولكم فيها ما تدعون ، أى : ما تمنعونه وتطلبونه ، فقوله « تدعون » افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

قوله - تعالى - : « نزلنا من غفور رحيم » ، حال من قوله : « ما تدعون » ، وأصل النزل : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من ما كل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته .

أى : لكم فى الدار الآخرة جميع ما تطلبونه وما تدعونه ، حال كون هذا المعطى لکم رزقا وضيافة مهیأة لکم من ربك الواسع المغفرة والرحمة .

ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال - تعالى - : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

أى : لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله - تعالى - وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به ...

ولم يكنف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذى يجعل المدعوين يزدادون استجابة له .

« وقال ، بعد كل ذلك على سبيل المرور والابتهاج والتحدث بنعمة الله
لأننى من المسلمين ، »

أى : من الذين أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأخلصوا له القول والعمل .
قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ،
فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ،
وينهون عن المنكر ويأتونه . . وهذه الآية عامة فى كل من دعا إلى خير ،
وهو فى نفسه مهتد . .

وقيل المراد بها المؤذنون الصالحاء . . . والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين
وفى غيرهم . . . ، (١) .

ثم أرشد - سبحانه - إلى ما ينمى روح المحبة والمودة . . . بين الداعى
والمدعوى بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال : « ولا تستوى
الحسنة ولا السيئة . . »

أى : « ولا تستوى الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا فى ذواتهما ولا
فى الآثار التى تترتب عليهما ، إذ الخصلة الحسنة جميلة فى ذاتها ، وعظيمة فى
الآثار الطيبة التى تنتج عنها ، أما الخصلة السيئة فهى قبيحة فى ذاتها وفى نتائجها .

وقوله - تعالى - : « ادفع بالتي هى أحسن ، إرشاد منه - تعالى - إلى
ما يحب أن يتحلى به عباده المؤمنون .

أى : « ما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة ، فعليك
- أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاتك من المصء ، بأحسن ما يمكن دفعها
به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة ،
وفظاظته بالصراحة .

وقوله - سبحانه - : « فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم »
بيان للأثار الجميلة التي تقترب على دفع السيئة بالحسنة .

والولي : هو الصديق المحب الشفيق عليك ، من الولي بمعنى القرب .
والحميم في الأصل : يطلق في الأصل على الماء الحار . والمراد به هنا :
الصديق الصدوق معك .

أي : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة ، صار عدوك الذي أساء إليك ،
كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن
إليها ، ومن عما عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنعها بالعطاء .

ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس . . . عقب - سبحانه -
على هذه التوجيهات السامية بقوله : « وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم » .

والضمير في « يلقاها » يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التي على
رأسها الدفع بالتي هي أحسن .

أي : وما يستطيع إتيان بملك الأخلاق العاقبة التي على رأسها الدعوة
إلى الله ومقاومة السيئة بالحسنة . . . إلا الذين صبروا على المسكاره وعلى
الأذى .

وما يستطيعها - أيضا - إلا صاحب الحظ الوافر ، والنصيب الكبير ، من
توفيق الله - تعالى - له إلى مكارم الأخلاق .

والمتمامل في هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكام الطرق ،
وأفضل الوسائل ، التي ترفع درجته عن خالفه - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان ، فقال : « ولما
ينزعك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » ، إنه هو السميع العليم .

والنزغ والنخس والفرق بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف
العصا في الجلد .

والمراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيدته للإنسان ،
 والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، ونحملك
 على خلاف ما أمرك الله - تعالى - به . . . فاستعذ بالله ، أى فالتجىء إلى حماه
 واستجبر به . من كيد الشيطان « لأنه » - سبحانه - هو السميع لدعائك ، العليم
 بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك .
 فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذى يحميه من وسوسة الشيطان
 وكيدته ، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع اكل شئ ، العليم بكل شئ . القادر
 على كل شئ . .



وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين
 ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ،
 فقال - تعالى -

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
 وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)
 فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ
 لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) » .

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - : « ومن آياته . . . » العلامات الدالة
 دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .
 أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته - تعالى - وعلى وجوب

إخلاص العبادة له ، وجود الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة ، حيث أن الجميع يسير بنظام محكم ، وبؤدى وظيفته أداء دقيقاً . كما قال - تعالى - : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وقوله - تعالى - : **لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ . . .** نهى عن السجود لغيره - تعالى - ، وأمر بالسجود له وحده .
أى : لَا تَسْجُدُوا - أيها الناس - للشمس ولا للقمر ، لأنهما - كغيرهما - من جملة مخلوقات الله - تعالى - ، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذى خلق كل شيء فى هذا الـكون ، إن كنتم حقاً تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده - عز وجل -

فالأية المكرمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل -
وتنهي عن عبادة غيره - تعالى - .

قال الجمل : هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض
للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار ، إلا بذان بكال سقوط الشمس والقمر
عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام
لها بذاتها ، وهذا هو السر في نظم السلك في سلك آياته .

ولإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث - مع أن فيها ثلاثة مذكرة، والعادة تغليب المذكر على المؤنث - لأنه لما قال : ومن آياته ، فنظم الأربعة في سلك الآيات ، صار كل واحد منها آية فمعبر عنها بضمير الإناث في قوله وخلقهن ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله - تعالى - وحده ،
لن ينقص من ملكه شيئاً فقال : « فإن استكبروا ، فلذين عند ربك يسبحون
له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » ،

أى : فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله - تعالى - فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - فإن الذين عند ربك من الملائكة . ينزهونه - تعالى - ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون ، لا يستلذذهم لتلك العبادة والطاعة ، وخوفهم من مخالفة أمره - عز وجل -

فالأية السكرية نهون من شأن هؤلاء الكافرين ، وتبين أنه - تعالى - في غنى عنهم وعن عبادتهم . لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبد بالليل والنهار بدون سأم أو كلال .

والمراد بالعندية في قوله - تعالى - عند ربك ، عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان .

وقوله فالذين عند ربك ، تعليل الجواب الشرط المقدر ، أى : فإن استكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار . وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : وله من في السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

ثم بين - سبحانه - آية أخرى من آياته الدالة على وجوب إخلاص العبادة له فقال : ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

و د خاشعة ، أى : يابسة جديبة ، من خشعت الأرض ، إذا أجذبت لعدم نزول المطر عليها وقوله : د اهتزت ، أى : تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و د ربت ، أى : انتفحت وعلت ، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض ، إرتفعت له ، ثم تشققت عنه . يقال : ربا الشيء إذا زاد وعلا وإرتفع ، ومنه الربوة للمكان المرتفع من الأرض .

أى : ومن آياته - تعالى - الدالة على وجوب العبادة له وحده ، أنك - أيها

العاقل - ترى الأرض يابسة جامدة ، فإذا أنزلنا عليها بقدرتنا المطر ، تحركت بالنبات ، وارتفعت بسببه ، ثم تصدعت عنه .

وعنى - سبحانه - هنا بقوله وخاشعة ، لأن الحديث عن وجوب السجود لله - تعالى - وحده ، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع .

وفى سورة الحج قال - سبحانه - وترى الأرض هامدة . . . ، لأن الحديث هناك كان عن البعث ، وعن إمكانية ، فناسب أن يعبر بالهمود الذى يدل على فقدان الحياة .

قال - تعالى - يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب . . . ، (١) .

وقوله - تعالى - : إن الذى أحيانا لمحبى الموتى ، إنه على كل شيء قدير ، بيان لمظاهر قدرته - عز وجل - .

أى : إن الذى أحيانا بنزول المطر عليها ، وبخروج النبات منها ، لقادر على أن يحيى الموتى عن طريق البعث والنشور ، إنه - سبحانه - على كل شيء قدير .

• • •

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، جاءت الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون فى آياته - تعالى - ولتمدح القرآن الكريم ، ولتسلي النبى - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من أعدائه ، ولتبين أن من عمل صالحا فثمار عمله لنفسه ، ومن عمل سيئاً فعلى نفسه وحده يحق . . . قال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ يُاحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ (٤٥) مِنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلْتَنَفَسْهُ ، وَمِنْ أَسَاءِ فَعْلَاهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٥) .

وقوله - تعالى - « ياحدون » من الالحاد وهو الميل عن الاستقامة ، والعدول عن الحق .

يقال ألحد فلان في كلامه إذا مال عن الصواب ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى .

والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق في شأن آياتنا بأن يأولوها تأويلا فاسدا ، أو يقابلوها باللفظ فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات حكيمة ... هؤلاء الذين يفعلون ذلك : « لا يخفون عنا ، أي : ليسوا بغائبين عن علينا ، بل هم تحت بصرفنا وقدرتنا ، وسنجازيمهم بما يستحقون من عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب .

فالجلة تهديد لهم على تحريفهم الباطل لآيات الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - البون الشاسع بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين ، فقال : **«أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة؟»** والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين يلحدون في آيات الله سبحانه يكون مصيرهم الإلقاء في النار ، وأن الذين استجابوا للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون ، سيأتون آمنين من الفرع يوم القيامة .

قال الألوسي : **«وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة ، لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجميل ، إعتناء بشأن المؤمنين ، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ، ولذا عبر عن الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر ، وعبر عن الثاني بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا ، مع الأمن ودخول الجنة ...» (١)** .

وقوله - تعالى - : **«داعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير»** ، تهديد آخر لهم على إلحادهم .

أى : **«اعملوا أيها الملحدون ما شئتم من أعمال قبيحة ، فإنها لا تخفى على خالقكم - عز وجل - ، لأنه بصير بكم ، ومطلع على أفعالكم ، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذى تستحقونه .»**

فالمقصود من الأمر فى قوله - تعالى - **«داعملوا»** ، التهديد والوعيد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق تهديداً ثانياً فقال : **«إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ..»**

وخبر إن هنا محذوف للعلم به مما سبق ، أى : **«إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين جاءهم عل لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، خامسون أو هالكون أو مهذبون هذا بشديداً .»** ولأنه ، أى : هذا القرآن الكريم

في الحق الذي جاءهم به - صلى الله عليه وسلم - ، لعل هذا التدبر يوصلهم إلى الهداية والرشاد .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد إقتضت أن يطلع الناس في كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، فقال : « سنبرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . »

والمراد بالآيات في قوله « آياتنا » : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

والآفاق : جمع أفق - كأعناق جمع عنق - وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق - كضرب يضرب - إذا سار في آفاق الأرض وجهاتها المتعددة . والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا في أقطار السموات والأرض ، من شمس وقر ومجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع ونمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار .

سنظلمهم على مظاهر قدرتنا في هذه الأشياء الخارجية التي يرونها بأعينهم ، كما سنظلمهم على آوار قدرتنا في أنفسهم عن طريق ما أردعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل ، وروح ، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة . ولقد صدق الله - تعالى - وعده ، ففي كل يوم بل في كل ساعة ، يطلع الناس على أسرار جديدة في هذا الكون الهائل ، وفي أنفسهم . . ، وكلها تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى صحة دين الإسلام الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام . .

وقوله - تعالى - : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ، استئناف مسوق لتوبيخ الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جأ به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عنده به هو الحق المبين .

ثم علل - سبحانه - هذه التسليية وهذا التوجيه بقوله إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم .

أى : ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك ، وما دام الأمر كذلك . فاصبر كما صبروا ، إن ربك الذى تولاك بتربيته ورعايته ، لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

ثم رد سبحانه - على بعض الشبهات التى أثاروها حول القرآن الكريم ردا يحرس السلفتهم فقال : ، ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته الأعجمى وعربى

والأعجمى : يطلق على الكلام الذى لا يفهمه العربى كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية . وقوله : الأعجمى وعربى ، خير لمبتدأ عذوف .
أى : ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة المعجم كما قالوا : هلا أنزل هذا القرآن بلغة المعجم .

لو فعلنا ذلك - كما أرادوا - لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب : هلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها ؟ ثم لاضافوا إلى التعجب والإنكار ، تعجبا آخر فقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى ؟
ومقصودهم من هذه الشبهة الداحضة ، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة المعجم .

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ولو نزل بلسان أعجمى ، لا تعرضوا وقالوا هلا نزل بلسان عربى نفهمه ، ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعتت والسفاهة .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بالرد الذى يكتبه فقال : ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين : هذا القرآن هو للذين آمنوا إيماناً حقاً ، هداية إلى الصراط المستقيم ، وشفاء لما في الصدور من أسقام . كما قال - سبحانه - في آية أخرى : ، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذا الكتاب فقال : ، والذين لا يؤمنون ، أى : بهذا الكتاب ، وبمن نزل عليه هذا الكتاب .
، في آذانهم وقر ، أى : في آذانهم صمم عن سماع ما ينفعهم .
، وهو عليهم عمى ، أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الإهتمام به .

وقوله - تعالى - : ، أولئك ينادون من مكان بعيد ، ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذى ما أنزله الله - تعالى - إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

أى : أولئك الكافرون الذين لم ينتفعوا بالقرآن ، مثلهم في صمم وإنطماص بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد ، فهو لا يسمع منه شيئاً ، ولا يعقل عنه شيئاً ، لوجود المسافة الشاسعة بين المتكلم ، وبين من وقع عليه النداء .
قال القرطبي : وقوله - تعالى - : ، أولئك ينادون من مكان بعيد ، يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد . أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك : ، ينادون ، يوم القيامة بأقبح أسمائهم ، من مكان بعيد ، فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم ... ، (١) .

ومن يتدبر هذه الآية الكريمة يرى مصداقها في كل زمان ومكان . فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعا وتطبيقا . . . وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا يزيدهم ذلك إلا صمما على صممهم ، ورجسا إلى رجسهم ، وعمى على عمى .

ثم بين - سبحانه - زيادة في التسليية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، أن إختلاف الأمم في شأن ما جاء به الرسل شيء قديم فقال - تعالى - : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . . .

أى : ولقد آتينا نبينا موسى - عليه السلام - كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه ، فاختلفوا في شأن هذا الكتاب ، ففهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه .

د ولولا كلمة سبقت من ربك ، - أيها الرسول الكريم - - وهى ألا يهذب المكذبين من أمتك فى الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم .

لولا ذلك د لفضى بينهم ، أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم .
د وإنهم ، أى : كفار قومك د لنى شك منه مريب ، أى : لنى شك من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون فى قلق وإضطراب .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : د من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها . . .

أى : من عمل صالحا بأن آمن بالله ، وصدق بما جاء به رسله ، فثمرة عمله الصالح لنفسه .

د ومن أساء فعليها ، أى : ومن عمل عملا سيئا ، فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها د وما ربك بظلام للعبيد ، أى : وليس ربك - أيها الرسول الكريم - - بذى ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته .
فقوله د ظلام ، صيغة نسب - ككبار وخيبر - وليست صيغة مبالغة .

قال بعض العلماء ما ملخصه: وفي هذه الآية وأمثالها سؤال معروف، وهو أن لفظه «ظلام» فيها صيغة مبالغة. ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل. فقولك - مثلاً - : زيد ليس يقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا يتنافى أنه ربما قتل بعض الرجال.

ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة - وهو لفظ ظلام - في هذه الآية وأمثالها المراد به نفى الظلم من أصله.

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها: أن نفى صيغة المبالغة هنا، قد جاء في آيات كثيرة مادل على أن المراد به نفى الظلم من أصله، ومن ذلك قوله - تعالى - : «ولا يظلم ربك أحداً» وقوله - تعالى - : «إن الله لا يظلم الناس شيئاً» . . .

ومنها: أن المراد بالنفي في الآية، نفى نسبة الظلم إليه، لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة، فتعني عن ياء النسب . . . كقولهم: لبان، أي: ذو لب، ونبال أي صاحب لب . . . (١).

ثم بين - سبحانه - في أواخر هذه السورة الكريمة: أن علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من الخير فإذا مسه الشر يمس وقته. وأن حكمته - تعالى - قد إقتضت أن يقيم للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذي يعيشون فيه فقال - تعالى - :

«إليه»^(٢) يردُّ علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها، وما تحمِل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين ثركم قالوا

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٤٠ فشيخ الشنقيطي .

(٢) أو الجزء الخامس والعشرون .

آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ،
وَوَضَعُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَبِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ
مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَمْنُوسْ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَدْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ
مُسْتَهْتِكَةٍ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي
إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ،
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ هَرِيصٍ (٥١) نَلَّ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ نَحْمُ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ
آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ،
أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ .

وقوله - تعالى - : : إليه يرد علم الساعة وما يخرج من ثمرات من أكامها
وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . . . ، بيان لإفراد الخالق - عز وجل -
بوقت قيام الساعة ، وبإحاطة علمه - تعالى - بكل شيء ، وإرشاد المؤمنين إلى
ما يقولونه إذا ما سئلوا عن ذلك .

والأكام : جمع كم - بكسر الهمزة - وهو الوعاء الذي تكون الثمرة بداخله .
أي : إلى الله - تعالى - وحده مرجع علم قيام الساعة ، وما يخرج ثمرات
من أوعيتها الباكنة بداخلها ، وما تحمل أنثى حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته
- عز وجل - . ومن ، في قوله : من ثمرات ، وفي قوله : من أنثى ، مزيدة
لتأكيد الاستعراق . وفي قوله : من أكامها ، إبتدائية .

قال الجمل : فإن قلت : قد يقول الرجل الصالح قولاً فبصيب فيه ، وكذلك
السكان والمنجمون ؟

قلت : أما قول الرجل الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من علمه - تعالى - الذى يرد إليه ، وأما السكمان والمنجّمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شئ مما يقولونه البتة ، وإنما غاية إدعاء ظن ضعيف قد لا يصيب ، وعلم الله - تعالى - هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا يشرك فيه أحد ، (١) .

ثم بين - سبحانه - تبرأ المشركين من آلهتهم يوم القيامة فقال : ، ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد ، وضل عنهم ما كانوا يبدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص ، .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مقدر ، ومعنى « آذناك » أعلمناك وأخبرناك ، آذن فلان غيره يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به .
والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم والتهكم بهم فى هذا الموقف العظيم .
والظن هنا بمعنى اليقين .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم يناد الله - تعالى - المشركين فيقول لهم يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدونهم من دونه ليقر بركم إلى أو ليشفعوا لكم عندى ؟

« قالوا ، على سبيل التحسر والتذلل : يا ربنا لقد آذناك ، أى : لقد أعلمناك بأنه ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد انكشفت عنا الحجب ، واحترقنا بأنك أنت الواحد القهار .

« وضل عنهم ، أى : وغاب عن هؤلاء المشركين « ما كانوا يدعون من قبل ، أى : ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من أصنام وغيرها .
« وظنوا ما لهم من محيص ، أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى لهم من العذاب .

يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب .

وقوله - تعالى - : لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، بيان لما جبل عليه الإنسان من حب للمال وغيره من ألوان النعم . ومن ضيقه بما يخاف ذلك .

ويبدو أن المراد بالإنسان في هذه الآية وأمثاله جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالحن صبروا .

والمراد بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والمالطمان وما إلى ذلك مما يشتمى .

والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشيء ، إذ مله وضاق به وانصرف عنه .

والياس : أن ينقطع قلب الإنسان عن رجاء الحصول على الشيء ، يقال : يئس فلان من كذا - من باب فهم - ، إذا فقد الرجاء في الظفر به .

والقنوط : أن يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسراً متضائلاً مهموماً .

فكان اليأس شيء داخل عن أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التي تظهر علاماتها على الإنسان .

أى : لا يسأم الإنسان ولا يمل ولا يهدأ من طلب الخير والسعة في النعم . وإن مسه الشر ، من عسر أو مرض ، فيئوس قنوط ، أى : فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى - وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته .

وعبر - سبحانه - بئسوس وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للإشارة إلى شدة حزنه وجزعه عند ما يعتربه الشر .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من حالات هذا الإنسان فقال : ولئن أذقناه

رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا الى وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى

أى : ولئن أعطيتنا هذا الإنسان الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما ، من بعد أن كان فقيرا أو مريضا ... ليقولن على سبيل الغرور والبطر : هذا الذى أعطيتة شئ استحقته ، لأنه جاءنى بسبب جهدى وعلى . ثم يضيف إلى ذلك قوله : وما أظن الساعة قائمة ، أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء .

« ولئن رجعت إلى ربي ، على سبيل الفرض والتقدير ، إن لي عنده للحسنى ، أى : إن لي عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم فى الدنيا . وقوله - تعالى - : فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، بيان للعاقبة السيئة التى يكون عليها هذا الإنسان الجاحد .

أى : فلنعلن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة ، ولنريهم عكس ما اعتقدوه بأن نزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى التى أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، لا يمكنهم الفكاك منه أو التخلص عنه لشدة وإحاطته بهم من كل جانب ، فهم كاللواتق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ثم أكد - سبحانه - ما ذكره من حالات الإنسان ، فقال : « وإذا أنعمنا على الإنسان ، بنعمة من نعمنا التى توجب عليه شكرنا وطاعتنا .

« أعرض ونأى بجانبه ، أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا ، وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كمسه واجتهاده .

وقوله « ونأى بجانبه ، كناية عن الانحراف والتكبر والصلاف والبطر . والنأى البعد . يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه .

وقوله - تعالى - : وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، بيان لحالة هذا الإنسان في حالة الشدة والضر .

أى : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، في حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويفتر ويحمد .

وفي حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .
وفي معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : : كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

وقوله - تعالى - : : إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء المكافرين على جحودهم وجهالانهم فقال : قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به

أى قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله - تعالى - وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان به .

والاستفهام في قوله - تعالى - : : من أضل عن هو في شقاق بعيد ، للنفي والانكار أى : لا أحد أكثر ضللا منكم - أيها الكافرون - بسبب معاداتكم للحق . وإبتعادكم عنه ، وفوركم منه نفورا شديدا .

والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة . من الشق - أى : الجانب - . فكان كل واحد من المتعادين أو المتخالفين : صار في شق غير شق صاحبه . ووصف - سبحانه - شقاquem بالبعد ، للإشارة بأنهم قد باغوا في هذا الضلال ، مبلغا كبيرا ، وشوطا بعيدا .

فألاية الكريمة تهويل هؤلاء المكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر

و الكتاب عزيز ، أى : الكتاب متبع معصوم بمصمة الله - تعالى - له من كل تحريف أو تبديل .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أى : لا يستطيع الباطل أن يتطرق إليه من أى جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه لأن الله - تعالى - تكفل بحفظه وصيانيته ، كما قال - تعالى - : **إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون** .

قال صاحب الكشف : **وإن قلت : أما طعن فيه - طاعنون ، وتأوله المبطلون ؟**

قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم ، فلم يخفوا طعن طاعن إلا محوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا ... (١) .

وقوله : **تزيل من حكيم حميد** ، أى : هذا الكتاب منزل من لدن الله الحكيم فى أقواله وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى .
ثم سلى - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه فقال : **و ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** :

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم .
فالآية الكريمة من أبلغ الآيات فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنها كانت تقول له : **إن ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك** ، فاصبر كما صبروا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : **وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون .

والهمزة الإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء
مزيدة للتأكيد ، وقوله ربك ، فاعل كفى .

والمعنى : ألم يرض هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا
الدين ، أن ربك - أيها الرسول الكريم - شهيد على كل شيء ، وعلى أنك صادق
فيما تبلغه عنه . . . بلى . إن في شهادة ربك وعلمه بكل شيء ما يغنيك عن كل
شيء سواه .

ثم بين - سبحانه - في ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال :
« ألا إنهم في مرة من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط . »

أي : ألا إن هؤلاء المشركين في مرة وشك وريبة من لقاء ربهم يوم
القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء .

« ألا إنه - سبحانه - بكل شيء محيط لإحاطة قامة لا يخفى عليه شيء
في الأرض ولا في السماء . »

وسيجتمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة فصلت ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

كتبه الراجي عفوه ربه

صباح الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٠٦ هـ

د . محمد سيد طنطاوي

١٠ / ١٠ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة فصلات»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	
١	حم ...	٤٧١
٨	إن القدين آمنوا وعملوا الصالحات ...	٤٧٥
١٣	فإن أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة ...	٤٣١
١٩	ويوم يحشر أعداء الله ...	٤٣٨
٢٥	وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ...	٤٤٦
٣٠	إن الذين قالوا ربنا الله ...	٤٥١
٣٧	ومن آياته الليل والنهار ...	٤٥٦
٤٠	إن القدين يلهدون ...	٤٦١
٤٧	إليه يرد علم الساعة ...	٤٦٥
		٤٧١

